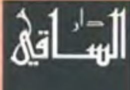
فلسطين

التاريخ القديم الحقيقي
منذ ما قبل التاريخ حتى الخلافة العباسية

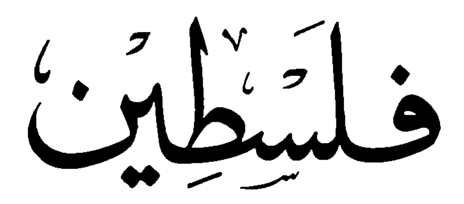
قاسم الشواف



من أعمال قاسم الشواف

- كتاب «الكلمة الصافية» صدر عن دار الأجيال في دمشق عام ١٩٦٩.
- «الاستعادة» بصدد الصراع الصهيوني ـ العربي، صدر عن مؤسسة التوجيه المعنوي في دمشق (١٩٦٩) باللغة الفرنسية.
- «نحن الملك» مسرحية مُعرّبة عن كتاب «أنا الغاضب» للكاتب المغربي محمد خير الدين. صدرت في عام ١٩٧١ عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق.
- كتاب «مع رحلة الفنان وليد عزّت، في أساطير سومر وملحمة جلجامش» محتوياً على كامل لوحات الفنان الخاصة بهذه المواضيع. صدر عن مؤسسة التوجيه المعنوي بدمشق (أيلول ١٩٧٣).
- الكتاب الأول من مجموعة ديوان الأساطير: «أناشيد الحب، ماء الأرض وماء القلب» في نصوص ما بين النهرين. صدر عن دار الساقي، حزيران ١٩٩٦.
- الكتاب الثاني من مجموعة ديوان الأساطير: «الآلهة والبشر» عبر نصوص سومر وآكاد وآشور. صدر عن دار الساقي ١٩٩٧.
- الكتاب الثالث من مجموعة ديوان الأساطير: «الحضارة والسلطة» في نصوص ما بين النهرين. صدر عن دار الساقي ١٩٩٩.
- أخبار أوغاريتية وموسيقى من أوغاريت: أقدم موسيقى معروفة في العالم. صدر عن دار طلاس بدمشق ١٩٩٩.
- الكتاب الرابع من مجموعة ديوان الأساطير: «الموت والبعث والحياة الأبدية» عبر نصوص سومر وآكاد وآشور. صدر عن دار الساقي ٢٠٠١.

قاسم الشواف



التاريخ القديم الحقيقي منذ ما قبل التاريخ
حتى الخلافة العباسية



دار الساقي

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

ISBN 1-85516-776-X

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

المحتويات

الإهــداء

هذه الدراسة عن فلسطين عبر التاريخ، هي مهداة بالدرجة الأولى لمأساة فلسطين وشعب فلسطين وإلى كل قارئ عربي.

غايتها التعريف بما كانت عليه فلسطين، قبل إبراهيم وداوود وسليمان، دون إغفال الإشارة غير مرة، من ضمن هذا البحث، إلى كيفية تعمّد كاهن وملك، يطمعان بأرض فلسطين، اعتباراً من نهاية القرن السابع لما قبل الميلاد، اختلاق أسطورة أُعطِيت لها مظاهر تاريخية، مع أنه لا تاريخية لها ثم دُبّجت على أساسها المرويات التوراتية التي وصلتنا، فكانت قصة «الوعد» و«الاحتلال الأول» و«المملكة الموحّدة»، التي لم تكن موحّدة في يوم من الأيام، وكلّها تمنيات إيديولوجية وأسطورية لا أساس لها، ولا تعتمد على الحقائق التاريخية.

سوف يتضح ذلك من ضمن هذا البحث، الذي يستعرض التاريخ الحقيقي لأرض فلسطين وشعب فلسطين منذ مراحل ما قبل التاريخ، ثم يشير إلى دور كلٍ من مصر الفرعونية وآرام وآشور وبابل، كما يستعرض مراحل الحكم الفارسي، ثم دخول الإسكندر الكبير المنطقة ومن بعده القادة السلوقيون، كما يعرض فترة الحكم الروماني والبيزنطي ليتوقف عند الفتح العربي ونهاية الخلافة العباسية.

وبهذه المناسبة، أخصّ بالشكر الصديق الفنان الفلسطيني ناصر السومي الذي تلطّف وقرأ مخطوط هذه الدراسة مبدياً حوله ملاحظات قيّمة، وهو في الوقت نفسه مصمّم الغلاف ومنفذه، فله مزيد الشكر.

قاسم الشواف

خريف العام ٢٠٠٤

الفصل الأول

(١) لماذا هذا العنوان؟

(١ ـ ١) هذا الكتاب

(١ ـ ٢) الباحثون الأجانب وتاريخ فلسطين

(١ ـ ٣) الجديد الأخير

(١) لماذا هذا العنوان؟

(١ ـ ١) هذا الكتاب:

من حقّ القارئ قبل كل شيء، أن يعرف لماذا اخترنا صفة الحقيقي مضافةً إلى التاريخ القديم لفلسطين. ولا بد من الإشارة، منذ البداية إلى أن التاريخ الحقيقي لكل بلد أو أمّة، هو الذي تدعمه الحقائق التي تبنيها الوثائق التاريخية القديمة، التي لا لبس فيها، وتبْنيها المكتشفات الأثرية، التي حفظتها ذاكرة الأرض في البلد نفسه وفي البلدان المجاورة ذات العلاقة والمعاصَرَة، كما تبْنيها الأنصاب التذكارية التي أقامها الملوك ولا تزال قائمة حتى اليوم، أو التي نقشوا تفاصيل محتواها على جدران معابدهم وبقيت لتشهد على أعمالهم.

التاريخ القديم الحقيقي، هو الذي تُغرس معالمه في وجدان أطفال الأمة، لينمو حقيقةً في نفوسهم، وتتثبَّت دعائم بنيتهم على أساسه. كل ذلك لا يجوز إلا أن يكون مبنياً على الحقائق، بعيداً عن الأوهام وأساطير التمنيات أو التزوير، ولهذا أردنا ضرورة تبنّي إضافة يتميّز بها عنوان هذا الكتاب، بحيث يسرد تاريخاً قديماً مجرداً من التزوير، تاريخاً حقيقياً.

التزوير بشكل خاص، عرفته فلسطين أكثر من أي بلد آخر، بحيث شُوِّه تاريخها وحُمِّلَ بذورَ هدم لا علاقة له بها. ومن نكد الدنيا، أن تلك البذور السيئة المنبت، تبناها باحثون أجانب لا تهمهم حقيقة فلسطين، وأنّ بعض باحثينا وقعوا في شركها وانجرّوا

إلى اعتبار ما بناه أعداء هذه الأمة ضدّنا ولمصلحتهم، مواضيع نقاش علينا التحاور معها والإجابة عليها، وكل ذلك كان من شأنه إبعادنا عن الحقيقة الأساسية لتضيع جهودنا في مناقشات عقيمة.

الحقيقة وحدها، هي أنّ فلسطين تبقى لشعبها، ولا حقوق فيها لأي شعب آخر. أما اعتبارها أرضاً مقدّسة فهو شرف لها وشرف لشعبها وليس سبباً لاغتصابها واستبعاد شعبها!

(١ ـ ٢) الباحثون الاجانب وتاريخ فلسطين:

بقصد استعراض المناهج التي استعملها الباحثون الأجانب في دراسة تاريخ فلسطين القديم، يمكننا القول بأن هؤلاء، توزعوا على مجموعات عدة:

- منهم من تبنّى مرويات التوراة العبرية باعتبارها كتاباً تاريخياً مقدّساً، وما اهتموا إلا بسردٍ وتعليق وتفخيم، لأن المرويات تقول الحقيقة حتماً. وفي ذلك ما يشجّع السذّج المتتبعين لتلك المرويات، على ألاّ يقبلوا أي تشكيك في تاريخانية ما يقرأون، حتى أن أحدهم قال لي في أثناء تبادل الحديث ونحن في قطار: «هذه حقيقة لأن ذلك مكتوب» وأمثال هذا كثيرون.
- ومنهم من تقدم ببطء، مفتشاً عن توازٍ بين المرويات والمكتشفات الأثرية، وعندما كانت تنقصه الأدلّة، كان يسوق استنتاجات وآراء توفيقية محاولاً دعم ما قالته التوراة، مستعملاً بالنسبة لبعض الوقائع ذات الأهمية، تعابير مثال: «يمكن أن تكون حدثت»، أو «يجب أن تكون حدثت»، وأيضاً تعبير «ليس من المستبعد» كل ذلك خلق بلبلةً لم نخرج منها حتى اليوم.
- أما الموضوعيون الذين يقولون إنّه لا توجد دلائل، فهؤلاء هم في عرف أصحاب العلاقة: «الهدّامون» الذين «تقوم الدنيا ولا تقعد» لمحاربتهم وتسخيف آرائهم في وسائل الإعلام، التي تبقى مفتوحة ومشجّعة لكل من يتفنن في محاربتهم واختلاق كل ما يضر بسمعتهم، بينما يتم تبنّي جماعة الفئة الأولى ويُرحَّب مع ذلك بجماعة الفئة الثانية لأنها لم تكذّب.

نذكّر هنا بأن المحاولات لإثبات صحة المرويات التوراتية من ضمن التنقيب في

تربة فلسطين، أُطلقت منذ منتصف القرن التاسع عشر، وتدرّجت مصفقةً لكل اكتشاف خُيّل لِدارسِهِ خطأً بأنه يثبت ما يرغب الباحث في إثباته. فكم من مرةٍ تم اكتشاف اصطبلات سليمان الملك على اعتبار أنه بحسب المرويات تاجَرَ في بيع الخيول، وبعد «التطبيل والتزمير»، تمرّ سنوات ويتم تكذيب الخبر بعد التمحيص والتدقيق وعدم تقبّل مثل تلك الأوهام من قبل بعض الموضوعيين من البحاثة، ويبقى ذلك طبعاً محصوراً في الدوائر الاختصاصية، ويكون سليمان الملك قد استفاد من الدعاية لاصطبلاته في وسائل الإعلام الواسعة الانتشار التي جُنِّدت في البداية.

ويمكننا القول إن معظم المكتشفات التي اعتُبرت مع التضخيم والتفخيم مثْبِتة لما أرادت إثباته جماعة المدافعين تمّ تكذيبها تدريجاً.

من حسن الحظ بدأت منذ السبعينيات تظهر مؤلفات تصحّح وتقوّم، ورغم محاربتها بضراوة، لم يكن هناك مجال لتكذيبها، لنقص الإثباتات ضدّها. ومن الطبيعي، لدى ظهور دراسات من هذا النوع تصحّح الادعاءات وتثبت نقص الأدلّة والتناقضات الزمنية (الكرونولوجية)، أن يلجأ البلد المتألم من تلك الأكاذيب، فلسطين والبلاد العربية بكاملها إلى نقل مثل هذه الدراسات إلى اللغة العربية احتراماً للمعرفة والحقيقة، على الرغم من أنها في هذه الأزمنة السوداء تغطّيها غطرسة السلاح الذي يعتبر نفسه فوق الحقيقة، كما يعتبر أن الباطل يفرضه السلاح، ليصبح حقّاً لمن يملك السلاح. وفي جديد عالمي، تقوده قوّة السلاح، تُحارَبُ المقاومة بقصد التحرر، كما يحارَبُ ما يسمّونه بالإرهاب وكأن الشعب المحتل كان عليه أن يستقبل بالزهور مغتصب أرضه ومحتل بلده.

أما بالنسبة للدراسات المصحِّحة للادعاءات التي أشرنا إليها، فيمكننا أن نَذْكرَ للقارئ كتاباً نُشر العام ١٩٧٤، ونقل إلى اللغة العربية من قبل صالح علي سوادح تحت عنوان «التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي»[1]، نشرته في بيروت مكتبة بيسان العام ١٩٩٥. يستعرض توماس ل. طومسون، مؤلف الكتاب، آراء العديد من الباحثين الذين شكّكوا كما أسلفنا ولو جزئياً بالمرويات التوراتية، ونقدم إلى القارئ نظرة سريعة عن آراء بعض هؤلاء الباحثين، وسوف نعود إلى تفصيل ذلك في فصلٍ آخر:

---

(١) أما كتابنا هذا، الذي نقدمه إلى القارئ العربي، فيهدف إلى تقديم التاريخ القديم لفلسطين، تاريخ الشعب الفلسطيني على حقيقته وليس تاريخ الشعب الإسرائيلي.

- شكك الباحث (دي فوكس)[١] منذ العام ١٩٧٠ بتاريخية فترة القضاة (ص٦٢).
- كما أن (هـ. فريس)[٢] من جامعة كوبنهاغن، اعتبر أن المرويات حول ملكية داود هي من إنتاج فترة السبي، وكذلك فترة التوحيد اليهودي[٣] وأن الخروج من مصر هو مجرّد أساطير.
- أما (ج. فان سيتير)[٤] فقد اعتبر هو أيضاً العام ١٩٧٤، أن التقاليد اليهودية تنتمي في مضمونها إلى فترة السبي وما بعدها (ص٦٧).
- ويمكن أيضاً متابعة آراء التشكيك وفقاً لدراسات (غاربيني)[٥] الذي يثبت بدوره أن لا وجود للقضاة ولا توجد بنية مقنعة عن الغزو. . . كما يعتبر الباحث نفسه، أن ما كتب في الحقبة الفارسية يعتمد على الأوهام، وكذلك ما كتب في الفترة الهلنستية (ص٨٣)، أما بالنسبة لما ورد في لوحة مينفتاح، الفرعون المصري عام ١٢٢٠ ق.م، حيث ذُكِرَ اسم إسرائيل للمرة الأولى (وسوف نعود إلى تلك التسمية في ما بعد)، فيمكن القول إن هذا لا يثبت إلا وجود قبيلة كنعانية لا علاقة لها بمرويات التوراة. وفي حال اعتبار العكس، نجد أمامنا صعوبات تواصل سياسي (ص٨١).

نكتفي بهذا الحدّ من آراء التشكيك، التي أدت بنتيجة الأمر إلى هدم ما تبقى من نظرية مدرسة ألبرايت[٦] في الخمسينيات والستينيات. ومن أهمّ الاستنتاجات التي قدّمها طومسون، مؤلف الكتاب المشار إليه أعلاه، بهذا الخصوص، هو أن «التاريخ يتعلق بالطبيعة وليس بما وراء الطبيعة» (ص٨٢). ويمكننا منذ الآن إضافة أن «التاريخ قد يصبح أسطورة تتداولها الشعوب، ولا نعرف غير ما سمّي ادّعاءً «بالعهد القديم»[٧] الذي

---

(١) De Foxe.

(٢) H. Friis.

(٣) الذي لم يكن يعني التوحيد بالمفهوم الحالي بل كان يعني إلهاً خاصاً يغار من بقية الآلهة.

(٤) J. Van Setter.

(٥) Guy Garbini.

(٦) Albright.

(٧) وهنا تكمن المحاولة التي أرادت اعتبار المسيحية كعهدٍ جديد، مكمّل للعهد القديم التوراتي. وبالعودة إلى **الكتاب الرابع من ديوان الأساطير** لقاسم الشواف من منشورات دار الساقي، بيروت العام ٢٠٠٠، يمكن دعم التشكيك بهذه الصلة.

هو أسطورة في معظمه، أُريد لها بشكل قسري أن تصبح تاريخاً، وتمّت محاولة فرضها وكأنّها تأريخ يجب الانطلاق منه، وكأنه صحيح.

لذلك فإن التاريخ القديم لفلسطين، يجب أن يكتب طبعاً، من دون الاعتماد على تلك الأساطير والغَرَق في خضمّ أوهامها.

بعد أن استعرضنا بعض آراء التشكيك في السبعينيات، نجد أن الأمور لم تقف عند هذا الحدّ، حيث أصبح من المتعذر بالنسبة للمدافعين عن صحة المرويات تكذيب تلك الآراء طالما لا توجد أدلّة غير توراتية لديهم. وها نحن في التسعينيات نشهد تعديل الموقف، من قبل هؤلاء وتبنّي موضوع التشكيك مع محاولة التقليل من أهمية ذلك، على اعتبار أن المُعْتقد الديني هو الأساس. وما يهمّنا هنا هو التاريخ وليس كما أسلفنا معتقدات ما وراء الطبيعة، التي نفضل تجريدها من الأوهام التاريخية التي لا أساس لها، لتصبح معتقدات دينية بحتة يعمل بها معتنقوها بكل حرية، مَثَلها كَمثلِ بقية المعتقدات التي لا تحتل أي أرض، ولا تعتمد على أي وعدٍ أرضي.

(١ ـ ٣) الجديد الأخير:

ها نحن اليوم، نشهد تعديلاً جذرياً في المواقف، وأبلغ مثال على ذلك هو ظهور كتاب من تأليف باحثَيْن يهوديين، الأول هو (إسرائيل فينكيلشتاين)[١] الذي يشغل منصب مدير معهد الأركيولوجيا في جامعة تل أبيب، ويقوم بحفريات أثرية، والثاني هو (نيل ألدر سيلبرمان)[٢].

صدر الكتاب في نيويورك العام ٢٠٠١ تحت عنوان «التوراة مُسْتَخرجة من التربة»[٣]، وتحت تصرفنا الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب الصادرة العام ٢٠٠٢ بعنوان «التوراة مرفوعة الحجاب»[٤]، عمد المؤلفان إلى تقديم كتاب يوضع تحت تصرف أكبر عدد من القراء وقد أشارا إلى ذلك، وهو يبحث في تاريخانية المرويات التوراتية، بقصد إفهام قارئهما بشكل أفضل، عن ولادة «إسرائيل» القديمة، مع محاولة إيضاح

(١) Israël Finkelstein.

(٢) Neil Alder Silberman.

(٣) «The Bible unearthed» edition: The free press N.Y.

(٤) «La Bible dévoilée» Edition Bayard-Paris.

الاعتراضات التي تزداد شدةً أكثر فأكثر حول الحقائق التاريخية التي اعتمدتها التوراة.
ومن التساؤلات التي ساقها المؤلفان يمكن تعديد ما يلي:

- هل الخروج تمّ كما وُصِف في التوراة؟
- هل تمّ احتلال بلاد كنعان حقاً؟
- هل حكم داود وسليمان حقاً امبراطورية واسعة؟

وعلى هذا الأساس أرادا الرجوع إلى الحفريات الأثرية التي أُنجزت في فلسطين وذلك باستعراض قديمها وحديثها. وبما أننا نكتب عن التاريخ القديم لفلسطين، فهذا يهمنا حتماً.

يعتبر المؤلفان، وتدعم ذلك آراء عديدة، بأنه حتى في نهاية القرن السابع ق.م.، لم يكن معبد أورشليم عازلاً لبقية العبادات بل مشتركاً بين جميع المعتقدات، كبقية المعابد في الشرق الأوسط القديم، وأن الحركة الإصلاحية لملك (يهوذا) في الجنوب الفلسطيني، جوزياس (٦٣٦ ـ ٦٠٩ق.م.)، حاولت التوصل الى تخصيصه وإبعاد كل معتقد آخر عنه.

وفي الوقت نفسه، كانت المنطقة الشمالية في فلسطين وعاصمتها السامرة تحت الحكم الآشوري (ص١٢) والمعبد الرئيسي في الشمال كان في بيت إيل.

يمكن القول، كما يوضح المؤلّفان، إن الأصولية اليهوية التَعَصبيّة وُلدت على زمن الملك جوزياس الذي دعا إلى هدم جميع المعابد المحلية الأخرى، وحتى المعابد السامرية، وذلك لعدم منافسة معبد أورشليم، الذي أُريد له أن يكون المرجع الديني الوحيد، وذلك للتخلص من أهمية السامرة التي كانت متقدمة في حضارتها وغناها وتجارتها على المنطقة الجنوبية التي لم يكن قد مضى غير زمنٍ قصير على تعلّمها الكتابة واستعمالها في دواوين الحكم، ولم تكن حتى ذلك الحين تتمتع بمستلزمات إقامة دولة وشروطها.

إنه لمن المفيد هنا، ذكر ما كتبه المؤلفان المشار إليهما، عن قوّة إقناع التوراة. إذْ أنها تمكنت، بابتداع أسطورة المملكة الموحدة لداود وسليمان، من إقناع العالم كلّه، بأنه منذ ذلك الزمن أدّت القدس، «مدينة داود»، دوراً أساسياً في تجربة إسرائيل القديمة (ص١٣)، مع أن المدينة في نهاية القرن السابع، يوم ابتُدِعَتْ أُسُس الأساطير

الإيديولوجية، لم تكن مساحتها أكثر من حوالى ٦٠ هكتاراً (أي حوالى نصف القدس الشرقية الحالية)، ولم يكن عدد سكانها يتعدى ١٥٠٠٠ نسمة[١]، مضيفين، أن التنقيبات الأثرية أحدثت ثورة في دراسة «إسرائيل» القديمة. وزرعت الشك في جميع الأسس التاريخية للمرويات التوراتية الأكثر أهمية وشهرة، مثال: الخروج من مصر، والتيه في سيناء واحتلال كنعان، والإمبراطورية المزعومة التي حكمها كل من داود وسليمان (ص١٣).

أراد المؤلفان، كما ذكرنا، تقديم عمل موضوعي يروي تاريخ إسرائيل القديم من منظور جديد تقدّمه إليهما المكتشفات الأثرية والفصل بين ما هو أسطوري وما ينتمي إلى الحقيقة التاريخية. كما أنهما أرادا عرض الفترات التي عرّفت كتابة التوراة، والأسباب التي سوغت تأليفها (ص١٤)، مضيفَيْن أنه من المؤكد اليوم، أن عدداً من الأحداث التوراتية لم يقع كما روي، وأكثر من ذلك فبعضها لم يحدث (ص١٧).

الكتب الخمسة الأولى، وهي التي تروي تاريخ الأيام الأولى للعبريين القدماء، تمّ تبنّي أسس معظمها، في موضع وتاريخ أصبحا اليوم معروفين، وهما القدس في نهاية القرن السابع لما قبل الميلاد وما بعد السبي.

أما الأنبياء الأُول يوشع والقضاة وصموئيل (١ و٢) والملوك (١ و٢) وقصة شعب إسرائيل منذ اجتيازه الأردن والاحتلال وتأسيس الملكية، ثمّ الانكسار والسبي على يد الآشوريين والبابليين، وخصوصاً قصص آخر الأنبياء الذين يُعبّرون عن آمالهم المسيّانية... كلها كتبت ما بين منتصف القرن الثامن ونهاية القرن الخامس ق.م (ص١٧). أما ما تبقى من المراثي والابتهالات والأمثال والمزامير... فقد تمّ تأليفها على ما يظهر ما بين القرنين الخامس والثاني ق.م خلال الفترتين الفارسية والهلنستية[٢] (ص٢٩).

ومع ذلك، يدّعي المروّجون لقدم قصص التوراة أن تثنية الاشتراع ألّفها موسى

---

(١) من جميع المعتقدات.

(٢) يعني ذلك أن داود لم يؤلف المزامير، وأن سليمان لم يكتب الأمثال والحكم، وإذا ما عدنا إلى ما عرفناه عن نصوص ما بين النهرين السومرية والبابلية، وما تركته لنا مصر في مختلف المراحل، نجد أساساً لجميع ما كتب في المرحلة الأخيرة المشار إليها.

قبل موته على جبل نيبو، وأن كتب كل من يشوع بن نون والقضاة وصموئيل، كانت عبارة عن وثائق محفوظات مقدسة احتضنها معبد سيلو، وأن كتب الملوك هي بريشة النبي أرميا، ومن ضمن الأسطورة ذاتها يقال إن داود هو الذي ألّف المزامير، وسليمان هو صاحب نشيد الأناشيد (ص٢٣)... كل ذلك لم يعد مقبولاً اليوم.

ونشير بهذا الصدد، إلى أننا حتى اليوم مازلنا نسمع في كنائس العالم، بمناسبة التلاوة المقدّسة للمزامير، إعلان «مزمار الملك داود»! وهنا، كما اعتبر المؤلّفان، تكمن قوة إيحاء التوراة وتصديقها بحيث نجحت بربطٍ لا سند له بين اليهودية والمسيحية، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً في الحاشية رقم (٥) في نهاية الفقرة (١ ـ ٢).

يستمر المؤلفان في عرض التناقضات والمدارس المختلفة التي ساهمت في تأليف التوراة، مشيرَيْن إلى ازدواجية التسمية الإلهية، فهناك التيّار اليهوي والتيار الإيلوهيمي الذي تبنّى اسم الإله إيل الكنعاني المنتشرة عبادته في المناطق الشمالية. وبعد ذلك تمّ تبنّي إله رباعية الأحرف (ي هـ و ه) إله إسرائيل. كما يمكن للباحثين من ضمن دراسة نصوص التوراة، التعرف على مصادرها المختلفة الموزعة بين التيارين المشار إليهما أعلاه، مع إضافة تيار ابتدعه الكهنة ويفيد الطقوس وإضافة أخرى نسبت إلى تثنية الاشتراع الذي يظهر وكأنه نص مستقل، وأخيراً هناك إضافات أخرى للربط بين الأجزاء المجمّعة من مختلف التيارات (ص٣٤) لكي يظهر النص كوحدةٍ متكاملة[1]، وطبعاً فإن القارئ العادي لا يستطيع التفريق بين التيارات. وتجدر الإشارة إلى أن هناك خلطاً مقصوداً بين إيل ويهوه على الرغم من عدم المعاصرة، وكأنهما مترادفان، وقد نجد التسميتين في مقطع واحد.

يتابع المؤلّفان عرضهما معترفين أنه كلّما كانت الحفريات الأثرية تتقدّم في المواقع والمدن التي أشارت إليها المرويات، كانت التساؤلات تفرض نفسها حول قضايا الوجود الحقيقي للآباء الأُول وقضية الخروج وأهمية ذلك الخروج وحقيقته، وكذلك قضية احتلال كنعان (ص٣٤). وهكذا بدأت كما يوضح المؤلفان، تبرز في السبعينيات النظرة الجديدة المعتمدة على التنقيبات الأثرية، وعلى النظرة الإجمالية، وأنه، على الرغم من

---

(١) نميل إلى القول بهذا الخصوص، أن إضافات الربط قد تكون من ضمن محاولات جعل النص التوراتي يقول ما لم يكن في أصله وذلك لغايات معينة لا تخفى على القارئ.

أن بعض المختصين يعتقدون أن الفترة المسمّاة بالمملكة الموحدة (أي قبل الانقسام) قد بلغت مرحلة الدولة (بمفهومها الحقوقي والاجتماعي الكامل) منذ حكم داود وسليمان، يمكن القول إن مفهوم الدولة لم تصل إليه مملكة يهودا الجنوبية إلا في نهاية القرن السابع. كما دلّ على ذلك تحليل المكتشفات الأركيولوجية. كما أن المنقّبين المختصّين يستطيعون إثبات أن الكتب الخمسة الأولى[١]، بما في ذلك التثنية، تمّ تأليفها حتماً خلال نهاية القرن السابع لما قبل الميلاد (ص٣٦)، وأن معظم ما نعتبره، بصورةٍ عامة كواقع تاريخي، شاملاً قصص الآباء الأول والخروج واحتلال بلاد كنعان وملحمة الفترة المجيدة لحكم داود وسليمان، هي عبارة عن «حَماسة خلاّقة» تمّ ابتداعها لدعم حركةٍ إصلاحية دينية قامت في مملكة يهودا إبان حكم جوزياس (٦٣٩ ـ ٦٠٩) ق.م.

وهكذا بنيت سردية التوراة بقصد تحقيق الإصلاح الديني، وتحقيق المطامع الإقليمية لمملكة يهودا في سنواتها العشر الأخيرة.

في ما يتعلق بالمنطقتين الشمالية والجنوبية من فلسطين، يتابع المؤلفان موضّحيْن أنهما تمثلان مجتمعين مختلفين تماماً بدلالة مواقفهما وهويّتيهما القوميتين المختلفتين (ص٣٧). ويمكن التأكيد، كما أشار إلى ذلك الباحث التوراتي (جوليوس ويلْهُوْسن)[٢]، أن قصص الآباء الأول تشير إلى اهتمامات الملكية الأخيرة (جوزياس) بأن تسقط نفسها على وجود للآباء المؤسسين الأسطوريين، وتلك القصص، يمكن اعتبارها من بين الميثولوجيات القومية، كما هي الملحمة الهومبرية للبطل أوليس، أو قصة (إينيه)[٣] مؤسس روما كما أنشدها (ڤيرجيل)[٤] ثم عرض المؤلفان رأي باحث حديث يدعم آراءهما (ص٥١).

أما عن المغالطات، فيذكر المؤلفان أن التوراة قالت أيضاً إن إسحق، وريث أبرام، التقى ملك الفلسطينيين أبيملك في مدينة جرار[٥]، مع أن الفلسطينيين لم يعرفوا الساحل الكنعاني قبل العام ١٢٠٠ ق.م، أي بعد ما لا يقل عن ٦٠٠ سنة، ولم تشتهر

---

(١) الكتب الخمسة الأولى: التكوين ـ الخروج ـ اللاّويين ـ العدد ـ تثنية الاشتراع.

(٢) Jolios Willhausen.

(٣) Enée.

(٤) Virgile.

(٥) مدينة جرار (تل هرور)، تقع إلى الشمال الغربي من بئر السبع.

مدينتهم جرار إلا في فترة متأخرة خلال الحكم الأشوري، في القرن السابع ق.م. حين أصبحت خلال ذلك القرن مركزاً إدارياً آشورياً جيد التحصين، وبهذا كانت عبارة عن موقع مشهور، ما حدا بكتبة المرويات نسبة روايتهم إلى ذلك الموقع.

ومن المغالطات الأخرى ذكر قافلة جمال في قصة يوسف التوراتية مع العلم أن الجمل لم تبدأ الاستفادة منه، كواسطة للنقل إلا بعد سنة ١٠٠٠ ق.م، وأن القافلة المشار إليها في المرويات كانت محمّلة بمواد بخورية ودهون ومواد صمغية مصدرها الجزيرة العربية، يوم كانت تجارة تلك المواد تشرف عليها الامبراطورية الآشورية في القرنين الثامن والسابع ق.م. ولا علاقة لقصة يوسف بذلك. كما أن دراسة المفارقات التاريخية ومَكّنت الباحِثيْن من تحديد الفترة الزمنية التي كتبت خلالها التوراة (ص٥٣).

وهناك أمثلة عديدة أخرى أهمّها قصّة شراء أبراهام مغارة المكيفلة لدفن زوجته سارة، إذ أن وصف عملية الشراء تشير إلى ما كان معمولاً به بهذا الخصوص خلال الفترة البابلية الجديدة (ما بين ٦١٢ و٥٣٩ ق.م).

وهناك أمثلة عديدة لا ضرورة لعرضها وكل ذلك يدل على أن نهاية القرن السابع لما قبل الميلاد وما بعده كانت فترة خصبة ونشيطة نتج عنها تأليف قصص الآباء الأول، وأخيراً فإن المواقع الجغرافية التي تشير إليها تلك القصص من خلال وجود الآباء وتحركاتهم والشعوب التي نتجت عن تزاوجهم وتبادلهم العائلي ونبذ بعضها، جميعها ترسم خارطة حيّة للشرق الأدنى خلال القرنين الثامن والسابع ق.م (ص٥٣).

نتوقف هنا عن عرض الإيضاحات التي قدّمها المؤلفان في كتابهما، وقد عمدا في ما بعد إلى متابعة الحفريات الأثرية التي تمت في فلسطين بقصد إثبات الوجود الإسرائيلي كما روته التوراة واعترفا من جهتهما أن التنقيبات الأثرية لم تثبت ذلك.

أما من جهتنا، فلا بد لنا من التذكير ببعض الروايات التي ابتدعتها التوراة لمحاربة أعدائها، وجميعها كانت بعيدة عن الحقيقة، ولم تكن تنقصها الغرابة في الوقت نفسه:

تنظر التوراة إلى مملكتي عَمون وموآب بازدراء حين اختلقت أنهما تأسستا نتيجة مضاجعة بنتي لوط لوالدهما الثمل.

أما يعقوب وأخوه عيسو وهو إيدوم، فقد تنبّأت المرويات منذ أن حملت بهما

والدتهما: بأن أمتين سوف تخرجان من صلبهما هما إسرائيل وإيدوم، وأن الأخ الأصغر (أي يعقوب إسرائيل) هو الذي سوف يسيطر على البكر (عيسو).

ولا ننسَ أن إسماعيل طُرِدَ مع أمّه هاجر إلى الصحراء لأنه جد العرب، وأن «الوعد» سوف يرثه إسحق وليس إسماعيل. وبالإضافة إلى ذلك، فقد روت التوراة أن ملاك الرب كلّم هاجر قائلاً: «سوف تلدين ذكراً تسمينه إسماعيل (أي يسمع إيل) لأن يهوه سمع نداءَك»، وهنا نرى كيفية القفز من إيل إلى يهوه بتلك السهولة. ولم يكتف ملاك الرب بإبلاغ هاجر عن تلك الولادة ولكنه يضيف متحيزاً: «سوف يكون (أي إسماعيل) كالحمار الوحشي، يده على الجميع ويد الجميع عليه!»، وهذا ما يحدث اليوم!

أما بالنسبة لأبناء نوح، فلم تعتبر التوراة أن كنعان هو من أبناء سام جد اليهود، بل أرادت له أن يتحدّر من حام (أب المصريين)، ويبلغ الحقد أشدّه حين يضيف سفر التكوين بكل بساطة: إن كنعان سيكون عبداً لأخيه».

وهكذا فإن كره الآخرين واستبعادهم هو من الخصائص التي تميزت بها المرويات التوراتية، إذ أنها منذ ذلك الوقت كانت تمثل «جدار الكره الفاصل» بينها وبين شعوب المنطقة. فهل تغيّر ذلك؟

استعرضنا في ما سبق مراحل مختلفة من التشكيك في المرويات التي لم تدعمها مكتشفات أثرية تشهد على صحتها. وما أن عجزت الدعاية ووسائل الإعلام التي كانت تدافع عن تلك المرويات حتى بدأ أصحابها أنفسهم يتقبّلون مضطرين مثل هذا التشكيك، ويحاولون استثمار ما بقي من الحقائق التاريخية التي تُثْبِتها الوثائق غير التوراتية، وهي الوثائق المصرية القديمة ووثائق ما بين النهرين وكذلك الوثائق الحثيّة من خلال الحروب والأحلاف والمعاهدات. وهكذا يُمكن القول إن فترة حدوث الوقائع المؤكَّدة، تقع ما بين القرنين الثامن ونهاية السادس ق.م وهي فترة سوف نرى كم هي قصيرة وعرضيّة بالنسبة لتاريخ فلسطين.

وقبل الانتقال إلى فصل جديد، نذكّر بأن أهمّ ما يلفت النظر في إيضاحات المؤلفيْن اللذين عرضنا مرتكزات كتابهما اعتماد أنه:

- لا يوجد أي دليل في الأراضي المرتفعة من فلسطين، على احتلال داود أو تأسيسه امبراطوريته. ففي الوديان تتابع الثقافة الكنعانية دونما توقف أو تعديل.
- أما حكم سليمان الذي تذكر المرويات أنه بنى المعبد والقصر في القدس، وكان في الوقت نفسه كثير الاهتمام بكلٍ من مدن ماجدّو وحاصور وجازر، فلم يعثر على أي أثر لعمارة ذات أهمية في القدس. كما أنه لم يُعثر على أي بناء له أهميته في المدن الأخرى.

الفصل الثاني

(٢) المرويات التوراتية وتاريخ فلسطين

(٢ ـ ١) حفريات واستنتاجات تحت المراقبة

(٢ ـ ٢) دارسون جدد بدأوا بالتعرف على حقيقة فلسطين

(٢) المرويات التوراتية والحقائق التاريخية

(٢ ـ ١) حفريات واستنتاجات تحت المراقبة:

بالإضافة إلى ما أوردناه في الفصل الأول حول التشكيك بقصص أساسية وتأسيسية في المرويات التوراتية وعدم العثور بنتيجة التنقيبات الأثرية على ما يدعم تلك المرويات، لم يكن الاعتراف بالأمر بهذه السهولة من قبل المدافعين، ونقدم في ما يلي معلومات إضافية عن كيفية معالجة المؤلفات «ذات البحث الموضوعي» حول المواضيع الحساسة، وكيفية التصرف تجاهها، ولو أن ذلك سوف يؤدي إلى بعض التكرار لما قيل آنفاً.

حين كان يبرز من وقتٍ إلى آخر مؤرخون يتجرّأون على التشكيك في ما ورد في المرويات من أحداث تاريخية المظهر والسرد، مدعومة بتفاصيل ظاهريّة قد تساعد على عدم الشك بصحّة محتواها، كان هؤلاء يُحارَبون إعلامياً من قبل المدافعين، وتنشر المقالات المعارضة لهم والمتنكِّرة لأفكارهم من قبل من لا مصلحة لهم، بنشر حقائق تختلف عمّا يريدون إقناع العالم بما يناسبهم، وفرض واجب تبنّي هذه الحقائق من دون نقاش أو شك. وقد يصل الأمر إلى إصدار أوامر خفية بخنق الكتاب الذي لا يوافق هواهم وعدم توزيعه بشكل اعتيادي، وفي الوقت نفسه التبجح بالإشادة بحرية النشر واحترام آراء الآخرين. وقد يصل الأمر إلى إلصاق تهم بالمؤلف تسيء إلى سمعته. وعلى الرغم من أن ما أوردناه في الفقرة أعلاه يشبه «البرانويا» فإنه حصل فعلاً.

كثيراً ما كان الباحثون والمؤلفون أمام مثل هذا التهديد الخفي ينتبهون إلى عدم صدم المراجع المدافعة عن المرويات واتخاذ الاحتياطات لعرض الأمور بشكل توفيقي يتحاشى المجابهة، فيصاغ الشك بتعابير «مؤدّبة»، لا تنكرُ بلْ تتبنّى، كما أسلفنا، جملاً مبنية حيال غياب الدلائل على إمكانية الحصول أو عدم الاستبعاد، وكان البعض لا يتأخر عن الإعلان أن الوقائع موضوع بحثه «يجب أن تكون حدثت» ولو كانت تناقضهم الدلائل الحسية.

نقدم في ما يلي بعض آراء الباحثين حول حفريات مدينة لخيش[1] القديمة (تل الدوير الواقعة إلى الشرق من غزة على بعد حوالى ٣٥كم): تُعتبر مدينة لخيش من بين المدن أو الممالك الخمس التي تغلب عليها يشوع بن نون حين تمّ احتلال أرض كنعان، كما تدّعي المرويات وهي: القدس والخليل (حبرون) ويرموت ولخيش وعجلون. منذ العام ١٩٧١ اعتبر الباحث الأب ريمون دي ڤو[2] أن لا أساس تاريخياً لتلك الأحداث حين كتب حرفياً: «أعتقد، بالنسبة لي، بأن المؤرخ لا يمكنه الاعتماد على أي تفصيل ورد في سفر يشوع (١٠ ـ ٢٨ ـ ٣٩) على الأقل في ما يتعلق بالاحتلال».

أما الباحث (أندريه لومير)[3] فإنه يعلق على نتائج حفريات لخيش في دراسة نشرت العام ١٩٨٨[4]، وذلك في ما يتعلق بالمستويين **VI** و**VII** من تل الدوير الموافقين لعصر الحديد، حيث يجب العثور على دلائل تثبت أن المدينة استولى عليها وهدمها يشوع بن نون، ولا بد إذن أن تظهر آثار ذلك الانتصار. وعلى هذا الأساس بدأت التأويلات لتفسير المكتشفات. يقول الباحث (لومير) إن أحدث حفريات قام بها معهد الأركيولوجيا في تل أبيب في المستوى **VI** من تل الدوير من قبل المنقّب (د. أوسّيشكين)[5] حيث تمّ العثور على معبد كنعاني، وكذلك على بناء ضخم يحتوي على مماشٍ أو ساحات بطول ١٥ ـ ١٨ متراً. كما أن موقع هذا البناء في أحد أطراف التل،

---

(١) Lakish.

(٢) Raymond de Vaux.

(٣) André Lemaire, Histoire ancienne d'Israël, Paris 1971, (Edittions du Cerf).

(٤) بمناسبة مرور ١٠٠ عام على تأسيس معهد الدراسات العليا في باريس (قسم العلوم الدينية).

(٥) D. Ussishkin.

يساعد على الافتراض بأن المدينة لم تكن مسَوّرة، كما يتضح أن المعبد والبناء هُدِما بنتيجة اضطراب (؟)[١].

كما يدل المستوى السادس في لخيش على تأثير فرعوني بسبب طراز البناء، والعثور على مكتشفات تشير إلى ذلك وهو يمثل نهاية فترة البرونز في لخيش، التي لم يتم تحديد تاريخها بشكل أكيد، إذْ إن اكتشاف جُعَلٍ فرعوني يعود إلى عهد رعمسيس الثالث (١١٨٤ ـ ١١٥٣) ق.م لا يمكن تبنّيه لأن الجُعَل عُثر عليه في موضع لم يحافظ على بنيته الطبقية، أي أنه لم يكن في موضعه الأصلي. كما عثر المنقِّب نفسه على قطعة برونزية[٢] تحمل اسم رعمسيس الثالث، اعتبرت عائدة إلى السنة الخامسة أو السادسة من حكمه. وهو شكل لم يكن معروفاً من قبل.

وأخيراً فإن كِسَرَ طاساتٍ فخارية عليها كتابة فرعونية اعتبر الباحث (غولْدوَاسَّر)[٣] أنه بالإمكان إعادة تاريخها إلى الأسرة العشرين (١٢٠٠ ـ ١٠٩٠) ق.م خلال حكم رعمسيس الثالث، مع أن الاكتشاف تمّ هو أيضاً، في موضع لم يحافظ على بنية الطبقة الأصلية. والطريقة التي اتبعها (غولدواسّر) لتحديد تاريخ القطعة لم تكن مقبولة بشكل مؤكد.

كل ذلك يشير إلى الالتباس والتردد، وقد نقول التسرع واللهفة، ما يؤدّي إلى عدم المحافظة على بنية الطبقة موضوع الحفريات، ويؤدّي أيضاً إلى عدم الوثوق بما يقدّمه منقّبو معهد تل أبيب من استنتاجات.

وعلى الرغم من إعلان (أوسّيشكين)[٤] في كتاب له صدر في لندن العام ١٩٨٥ بأن «لخيش هي المفتاح لإثبات الاحتلال الإسرائيلي لبلاد كنعان». فلم يستطع أحد من هؤلاء المنقبين إقناع أحدٍ بتاريخية هذا الاحتلال كما قدمته المرويات التوراتية.

وبنهاية الأمر فإن هدم كلٍ من معبد وبناء لخيش المشار إليهما أعلاه في المستوى

(١) لا يفسر (لومير) سبب الاضطراب وسوف يتضح دوره اللاموضوعي في الملحق رقم (٣) من هذا الكتاب.

(٢) Cartouche.

(٣) O. Goldwasser.

(٤) D. Ussishkin.

السادس، من «المحتمل أن يكون التدمير حصل خلال فترة حكم رعمسيس الثالث العام ١١٧٥ ق.م لدى غزو شعوب البحر للساحل الكنعاني وبنتيجة المعركة التي أوقفت زحفهم نحو الحدود المصرية. وهكذا فإن نهاية عصر البرونز الحديث في لخيش مع نهاية كل من أوغاريت وإيمار وألَلاَخ في سورية الشمالية. تلت عملية الهدم هذه فترة طويلة من هجر الموقع بين منتصف القرن الثاني عشر والحادي عشر، ونذكّر هنا بأن أوغاريت لم تقم لها قائمة بعد ذلك الغزو لشعوب البحر. حَدَث ذلك الغزو في الفترة التي حددتها المرويات التوراتية لاحتلال أرض كنعان من قبل يشوع بن نون[١]، «القائد الكبير» الذي أوقف يهوه الشمس من أجله لكي يُنهي احتلاله مع أنه لم يكن هناك أي تنظيم عسكري أو جيش في ذلك الوقت لمن تاهوا في الصحراء.

أما في ما يتعلق بالمستوى السابع لمدينة لخيش القديمة، فقد عثر فيه على أوانٍ فخارية لا تسمح بتصنيفها في المستوى السابع، كما أن ربطها بالمستوى السادس لا يمكن تأكيده، ولا ندري إذا كان هذا أيضاً كما في المستوى السادس، أي الالتباس والاختلاط بين المستويين، يعود إلى عدم اتقان فن الحفريات الأثرية الدقيق وأصوله، أو إلى عنف التدمير والخراب الذي أصاب الموقع رغم أنه من الصعب الاعتقاد أو التصور أن الدمار الحاصل، قد أصاب في الوقت نفسه مستويين تفصل بينهما مدة خمسين عاماً على أقل تقدير.

عُثر أيضاً في المستوى السابع على بناء ومعبد، عرفا زوالاً بواسطة حريق. وعلى الرغم من العثور على جُعل يحمل اسم أمينوفيس الثاني (١٤٣٨ ـ ١٤١٢)، فإن المستوى المذكور يمكن إعادته بشكل موقت إلى القرن الثالث عشر من دون التمكن من تحديد تاريخ أدق! ومع كل تلك المجاهيل وعدم الدقّة حولها فقد عمد بعض الباحثين إلى ربط الهدم في المستويين السادس والسابع بالتقليد التوراتي لغزو يشوع بن نون، على الرغم من عدم وجود أي وثوق تاريخي بذلك الغزو، وكما صرّح بذلك الأب (دي فو)[٢]، فإن تاريخية تلك الرواية التوراتية تبقى مشكوكاً فيها، مضيفاً أنه من غير المقبول، بل من المغامرة استعمالها بصدد التأريخ لموقع لخيش بنهاية البرونز الحديث.

---

(١) حوالى نهاية البرونز وبداية عصر الحديد.

(٢) R. de Vaux.

أما (أندريه لومير)، فبعد تتبعه حفريات تل الدوير، كما أسلفنا، واستعراض الخلافات حولها، فإنه يطالب بالرجوع إلى مراسلات تل العمارنة ذات العلاقة بمدينة لخيش القديمة. تلك المراسلات، سوف نعود إليها بالتفصيل في الفصل السابع من هذا الكتاب، ونلخص في ما يلي رسالتين تشيران إلى مدينة لخيش في الفترة التي عرفت فيها فلسطين اضطرابات نتيجة تمرّد الأمراء المحليين بقصد الاستقلال عن النفوذ المصري، تساعدهم فرق من المرتزقة.

في الرسالة الأولى (EA 335) يحاول حاكم مدينة (قيلْتو)[١] إعلام الفرعون بمقتل حاكم مدينة (سيلو)[٢] ومسؤول (موخراشتو)[٣] ولخيش كما يُعلِمْ الملك أن (لخيش) أصبحت معادية، كما تم الاستيلاء على (أورسالم) التي أصبحت معادية. ثم يطلب من الفرعون إرسال فرقة للإنقاذ.

أما الرسالة الثانية (EA 288) فهي موجّهة من قبل حاكم أورسالم إلى الفرعون يعلمه فيها أن بلاد الملك من الجنوب وحتى الكرمل هي في صراع، وأن (الخابيرو)[٤] استولوا على مدن الملك ولم يبقَ أي حاكم بإمرة الملك، جميعهم زالوا. ومسؤول (سيلو) قُتل على بوّابة مدينته ولم يفعل الملك شيئاً. كما أن خدماً انضموا إلى (الخابيرو) وقاموا بضرب حاكم لخيش وقتلوا مسؤول (موخراشتو).

الاضطرابات التي أشير إليها في مراسلات العمارنة، تعود هنا إلى فترة حكم أمينوفيس الرابع (أخناتون) (١٣٥٢ ـ ١٣٣٦)، الذي كان منهمكاً في ترسيخ ديانته الجديدة الآتونية وأهمل مناطق النفوذ المصري على الساحل الفلسطيني (الكنعاني)، ما شجع الأمراء المحليين بمساعدة بعض المرتزقة ممن أُطلق عليهم التسمية (الخابيرو) التي صارت تعني في كثير من الرسائل التي سوف نستعرضها في الفصل السابع، جميع المتمردين، أي قادة التمرد وهم أمراء وحكام المدن الخاضعة ومن حولَهم من جنود ومرتزقة والذين كان ينضم إليهم الخدم والفلاحون في بعض الأحيان.

---

(١) Qiltu على بعد حوالى ٤٥كم إلى الشرق من عسقلان.

(٢) Silu يعتقد أنها مدينة مصرية إلى الشرق من الدلتا.

(٣) Muhrashtu موقعها غير معروف ويعتقد أنها مريشة جات.

(٤) الخابيرو هم جماعات كانت تعيش على هامش المجتمع وتمارس السلب والنهب ومنهم من باعوا أنفسهم كمرتزقة وسوف نعود إليهم بالتفصيل في الفصل السابع.

ويمكن القول منذ الآن إن لا علاقة لتلك الأحداث ببداية عصر الحديد الذي عرف زحف شعوب البحر وزوال ممالك ودويلات عديدة على الساحل الكنعاني، كما أدت الغزوات البرية في الشمال التي عرفتها بلاد الأناضول إلى زوال المملكة الحثية.

على القارئ كذلك ألا يستغرب أن بعض الذين يريدون ترسيخ وجود قديم لهم في فلسطين حاولوا القول إن (الخابيرو) هم (العابيرو): أي العبريون القدماء الذين كانوا بحسب الأسطورة التوراتية مستعبدين في مصر، وسوف نعود إلى ذلك في الفقرة (٧ ـ ٤) من الفصل السابع.

وأمام هذا الغموض والإبهام، وكذلك أمام الأوهام التي أصبحت تتضح أكثر فأكثر، حاول الباحثون تفسير وجود العبريين القدماء في فلسطين (أرض كنعان) مقدمين الاتجاهات التفسيرية التالية:

أ ـ الاستيطان على مدى فترة زمنية طويلة. وقد تبنى مثل هذا الرأي البحّاثان (آلت ونوث)[١].

ب ـ الغزو وفقاً لما ورد في المرويات التوراتية بقيادة يشوع بن نون، وهذا ما تم استبعاده نهائياً اليوم، وقد تبنى هذا الرأي كل من (البرايت، ورايت وبرايت)[٢].

ج ـ أما الاتجاه الثالث فهو الثورة الاجتماعية وفقاً لرأي الباحث (ميندِنهال)[٣].

(٢ ـ ٢) دارسون جدد بدأوا بالتعرف على حقيقة فلسطين:

نعود هنا إلى ما كتبه المؤلّف (طومسون) في كتابه الذي أشرنا إليه في الفقرة (١ ـ ٢) في الفصل الأول.

يقول (طومسون) إن السكان الأصليين في فلسطين لم يتغيروا كثيراً منذ العصر الحجري، وأنه خلال فترة الألف السادس ـ إلى الرابع أصبحت فلسطين موحّدة بالمفهوم اللغوي[٤]. وخلال العصر البرونزي القديم، أقامت نمطاً استيطانياً واقتصادياً

---

(١) Alt, Noth.

(٢) Albright, Right, Bright.

(٣) Mendenhal.

(٤) يستعمل طومسون مِثل غَيْره تعبير «سامية اللغة»، ونفضل الابتعاد عن التصنيف العرقي.

بقي من خصائص المنطقة حتى الحقبة الآشورية على الأقل[١]. ويمكن القول إن مَدَنية فلسطين في العصر النحاسي والعصر البرونزي القديم (٣٢٠٠ ـ ٢٠٠٠)، كانت تضاهي مَدَنية المواقع الكبيرة الحجم في سورية وأولها تل مرديخ (إيبلا)، كما أن شروط المناخ الملائمة للزراعة بين (٣٥٠٠ و٢٣٥٠) ساعدت على توسّع زراعة الزيتون والأشجار المثمرة على الساحل الكنعاني. وبانتهاء تلك الفترة، عرفت المنطقة مرحلة جفاف دامت حتى ١٩٥٠ ق.م. وهي الفترة التي اشتهرت في وجدان شعوب المنطقة بالسنين العجاف ونسجت عليها قصة يوسف في مصر.

وعرفت فترة الجفاف هذه منطقة جبل بِشْري في الشمال الشرقي من سورية الحالية، ما أدى إلى هجرة من تلك المنطقة إلى الشرق، كما حدثت هجرة جزئية لسكان المناطق الغربية إلى شرقي وادي الرافدين.

بعد عودة الفترة الرطبة (١٩٥٠ ـ ١٧٠٠) ق.م، ساعد التواصل اللغوي بين المجموعات الهامشية في الجنوب على استقرار اللهجات العربية القديمة[٢] في سورية ـ فلسطين، وهذا ما نجده في نصوص ايبلا والنصوص الأمورية والكنعانية القديمة والأوغاريتية في الألفين الثالث والثاني ق.م.

وحين تمّ الانتقال من العصر البرونزي الأخير (الحديث) إلى العصر الحديدي الأول (١٣٠٠ ـ ١٠٠٠) كانت هناك استمرارية سكانية على كامل الساحل الكنعاني[٣]، وكانت الممالك ـ المدن العامرة والمكتظّة بالسكان تتابع التقدم والازدهار على الرغم من تأسيس الامبراطوريات حولها، وبالطبع فإن الساحل لم يكن مفتوحاً للاستيطان، مع أن هذه الكلمة كانت كثيراً ما تتردد في المرويات التوراتية وكأن البلاد كانت فارغةً ولا تنتظر سوى الداخلين الجدد الذين اعتبروا أن بإمكانهم اختيار مناطق استيطانهم بحيث نقرأ مستغربين أن فلسطين وزعت بعد الغزو اليشوعي «المزعوم» بين أسباط إسرائيل الاثنتي عشرة.

---

(١) أي الاعتماد في الوقت نفسه على الرعاية والزراعة والاستقرار السكني في قرىً ثابتة، ثم التطور نحو المدينة والتنظيم الاجتماعي الذي أدى إلى ممالك ـ مدن عرفها أيضاً الهلال الخصيب.

(٢) تحاشياً لاستعمال تعبير لهجات أو لغات سامية سوف نعود إلى ذلك في الفقرة (٤) من الفصل ١٥.

(٣) سوف نفسر تسمية الكنعاني في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

وعلى هذا الأساس فإن تاريخ فلسطين على حقيقته يجب أن يدرس منذ بداياته باستعراض جميع المراحل التي عرفتها البلاد، والتي أسست لوجود شعب فلسطين وهويّته وحياته على أرضه لأن تاريخ فلسطين لا يبدأ بأسطورة الغزو التوراتي بل هو موغل في قدمه وبناء شخصيّة شعبه، وهذا ما يقدمه الفصل الثالث عن البدايات في فلسطين وما تلاها.

الفصل الثالث

(٣) البدايات والعصر الحجري القديم

(٣ ـ ١) لمحة عامة عن مراحل ما قبل التاريخ

(٣ ـ ٢) عموميات عن المرحلة النيوليتية في الهلال الخصيب

(٣ ـ ٣) أهم مواقع بداية التمركز

(٣) البدايات والعصر الحجري القديم

(٣ ـ ١) لمحة عامة عن مراحل ما قبل التاريخ:

في زمنٍ لم تكن فيه ممالك قد أُسِّست، ولم تكن فيه مدن ذات معابد شامخة تتطلّع نحو «ما هو فوق»، ولم تكن فيه قصور تفاخر بكبرياء بمن شادها من الملوك «رعاة البشر»، في زمنٍ لم تكن فيه نعجات تمنح بسخاءٍ حليبها وتقدّم إلى البشر صوفها، ولم تكن فيه سبلات شعيرٍ وقمح تُحْصَد لأن إنساناً بَذَرها، . . . . . . في ذلك الزَّمان، كانت هناك شواطئ بحرٍ مأهول بأسماكٍ غزيرة، ومجاري أنهارٍ حفرتها مياه ثلوج ذائبة تنحدر من جبال موازية لتلك الشواطئ، وأمطار تمتلئ بها الوديان، وكانت هناك واحات وأجمات، وثمار أرضٍ ظاهرةٍ ومطمورة جَمعَها البشر غذاءً لهم، وكانت سهولٌ وسهوب وهضاب تجوبها قطعان الأيائل والعَنز البرّي والثيران الوحشية، غذّت لحومها أسود الغابة، كما غذّت الإنسان الذي كان يصطادها.

وكانت دورات فصولٍ في شمس تحمل الدفء، وكانت نجوم تسهر لتحرس الليل، وقمر يبدّل كل يوم وجهه. . . . كل ذلك ساهم في تعليم البشر قراءة السماء من خلال تبدّل وجهها ومراقبة الفصول في تواترها، كما عرفوا الموت، موت الطبيعة وموت البشر وتبنوا معنىً لذلك. . .

من هنا، من هذا الإطار الطبيعي، وبصرف النظر عما سبقه من أزمنة سحيقة، عرفتها بقاع الأرض، في تشكّلها وتحوّلها، وفي إنْبات كل حياة عليها وتطورها البطيء

الذي وصلتنا عنه اليوم، بقايا نشاطات إنسان تعود إلى ٣٠٠٠٠٠ سنة وتمّ استمرارها على الشواطئ الفلسطينية واللبنانية والسورية وفي بعض المواقع الداخلية من الهلال الخصيب، دونما انقطاع، حتى بلوغ الأزمنة التاريخية. ومن المفيد إعلام القارئ أن إنسان فلسطين عرف استعمال النار منذ ٧٩٠٠٠٠ سنة ق.م[١]، في موقع جسر بنات يعقوب.

وقبل صرف النظر عن تلك الحقبة الطويلة التي سبقت ما سمّي بالفترة النطوفية[٢] والتي حُدّدت بدايتها التقريبية بمدى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، نقدّم إلى القارئ بعض المعلومات المكثّفة عن مكتشفات ما سبقها من المراحل والتسميات التي أطلقت عليها، بدلالة المواقع التي عُرِفت بها:

بين ٣٠٠٠٠٠ و٧٥٠٠٠

- لدينا الفترة المسماة «آبوڤيل المشرق»[٣]، التي عرفها موقع العبيدية وفي موقع آخر في حماة (سورية).
- تليها الفترة الأكولية[٤]، حيث عُثر على بقاياها في فلسطين وفي فترات متفاوتة في كلٍ من موقع جسر بنات يعقوب وأم قطفة ـ طابون ومَعيان. كما عثر على بقاياها في لبنان، في كلٍ من بيروت وشكّا، وفي سورية في موقع اللّطامنة.

بين ٧٥٠٠٠ و٥٠٠٠٠

- بدأت الفترة المسمّاة بالموستيرية[٥] يتصدرها اكتشاف رجل الجليل في مغارة الزوتيتينية من فلسطين ورجل يبرود في سورية.
- يلي ذلك مكتشفات طابون (الطبقة E) في فلسطين. ومكتشفات (يبرود ١٥) التي اعتبرت ما قَبْل أورينياسية[٦].

---

(١) عن مقال نشر مؤخراً في مجلة (Sciences et Avenir) في عددها الصادر في حزيران ٢٠٠٤.

(٢) (Natufien) بدأت هذه الفترة في وادي النطوف غربي مدينة القدس

(٣) Abbeville du levant.

(٤) Acheulien du levant.

(٥) Mousterien du levant.

(٦) Pré-Aurignacien.

بين ٥٠٠٠٠ و٣٥٠٠٠

- عَرفت بداية هذه المرحلة اكتشاف رجل الكرمل (فلسطين) في موقع سوخدل ـ قفره، تليها في لبنان مكتشفات كُسار عقيل (A وB).
- الانتقال من هذه المرحلة إلى العصر الحجري القديم (الباليوليتي) الأعلى، تمّ على ما يظهر في الشرق الأدنى، كما في أوروبا حوالى ٣٥٠٠٠ ق.م.

من ٣٥٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠

- عُرفت هذه الحقبة بالثقافة الصوّانية المسماة أورينياسية[١]، وعُثر على مكتشفاتها في كل من عرق الأحمر ووادي كِباره في فلسطين، وفي كُسار عقيل من لبنان (الطبقات ٩ ـ ١٣)، وفي يبرود II (سورية).
- تتوافق نهاية هذه الحقبة (حوالى ١٥٠٠٠ ق.م) مع تسمية الثقافة الكيبارية[٢]، نسبةً إلى موقع كِباره في فلسطين. أما المكتشفات العائدة إليها في المناطق الأخرى فقد عُثر عليها في كُسار عقيل (لبنان) ويبرود III (سورية).

حوالى ١٠٠٠٠ ق.م

- ندخل هنا في المرحلة النطوفية وأهم مواقعها عين الملاّحة[٣] وأورين[٤] في فلسطين، وكذلك ما عرف بموقع رمال بيروت ومغارة جعيتا في لبنان ويبرود في سورية.

اعتباراً من هذ المرحلة، يمكننا التحدث عن بداية الاستقرار والتمركز البشري، إذْ إن الملاّحة وأورين عرفتا أول استقرار سكاني في فلسطين، يعود إلى ٩٠٠٠ ق.م، حيث بنى إنسان هذين الموقعين بيوتاً دائرية الشكل، بلغ قطر أكبرها ٩ أمتار، عُثر فيها على أدوات منزلية من البازلت ومناجل ذات محامل عظمية.

عُثر فيها أيضاً، على منحوتات تمثل بشراً وحيوانات باستعمال الحجر أو العظم،

---

(١) Aurignacien.

(٢) Kébarien.

(٣) (Aïn Al Mallaha) في وادي الأردن الأعلى.

(٤) (Oren) على سفح جبل الكرمل قرب وادي فلاح.

وعثر كذلك على ما يمكن اعتباره أدوات زينة، كما تمّ التعرف على طريقة الدفن الفردي أو الجماعي. وإلى تلك الفترة، يمكن إعادة بداية الاستقرار في كل من أريحا وبيضا[١].

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن تدجين الخروف، عرف بدايته حوالى ٩٠٠٠ ق.م في كل من موقع شانيدار في العراق[٢] وزاوي ـ شيمي[٣] في كردستان.

أما مرحلة أريحا التي توافق طبقة ما قبل الفخار A[٤] حوالى ٧٥٠٠ ق.م، فقد عرفت هي أيضاً في كل من (أريحا) و(أورين)، البيوت الدائرية الشكل وشظايا صوان مزحج (بركاني). ولا يزال وجود سور حماية في أريحا قيد النقاش[٥].

كما أن مرحلة البيوت المستديرة عُثر عليها في قرية مريبط[٦]، وعثر على ما يشير إلى بداية زراعة الحبوب على سفوح جبال زغروس في كل من جرمو وعلي كوش[٧]. ومن المهمّ هنا إضافة اكتشاف بقايا نحاس مطرّق في موقع شايونو تيبيسي[٨] الأناضولي.

حوالى ٧٠٠٠ ق.م

بدأت في البيضا من شرقي الأردن زراعة القمح وتدجين الماعز، وكذلك بناء البيوت المستطيلة الشكل، وكانت أرضية بعضها مغطاة بالجص الملوّن بواسطة طلاء. وإلى هذه الفترة أيضاً يعود اكتشاف الهياكل البشرية العديمة الرأس والجماجم التي يكسوها الجصّ لاستعادة مظهرها الحيّ (متحف عمان).

ومن أريحا كذلك، ضمَّ متحف فلسطين في شرقي القدس المعروف بمتحف

---

(١) (Beidha) على هضبة من الضفة الشرقية للأردن.

(٢) Shanidar.

(٣) Zawi-Chemi.

(٤) Pre-Pottery Neolithic A (P.P.N.A).

(٥) على اعتبار أن المدافعين عن النص التوراتي حول أسطورة سقوط أسوار أريحا أمام أبواق الاحتلال اليشوعي يرفضون الاعتراف بأن أريحا، كانت قد زالت من الوجود، لأسباب طبيعية ٣٠٠ سنة قبل الفترة المزعومة لاحتلالها.

(٦) (Mureybet) على الفرات السوري.

(٧) (Jarmo) و(Ali-Kosh).

(٨) (Çayonü Tepesi).

روكفلّر إلى محتوياته رأس التمثال المشهور المصنوع من الجصّ والعائد إلى مرحلة ما قبل الفخار B [١].

بين الألفين السادس والخامس ق.م

عرفت منطقة الاستقرار الآنفة الذكر، جفافاً نَتَج عنه هجر مواقع بيضا وأريحا ومُنهاتا[٢]، وكذلك جميع مواقع التمركز في المنطقة شبه الجافّة بقصد الاستقرار في منطقة أبو غوش الجبلية وفي المناطق المنخفضة والرطبة مثال عسقلان وبيسامون[٣] حيث بدأ تدجين الثور في حوض بحيرة الحولة في فلسطين.

يوافق هذه المرحلة على الساحل اللبناني ـ السوري موقع رماد[٤] الذي عرف هو أيضاً الجماجم المحملة بالجصّ وأفراناً وأواني منزلية.

أما سورية الداخلية

فقد عرفت في مريبط البيوت المستطيلة الشكل والاستعمال الأول للفخار، الموافقة مرحلة العاموق A [٥].

في بداية الألفين الخامس والرابع يمكن القول إننا نقارب الدخول في المراحل التاريخية.

في بداية الألف الخامس

عرف الساحل اللبناني تأسيس مدينة جبيل (چوبلا العمارنة).

في بداية الألف الرابع

نتعرف على تأثير سورية الشمالية (العاموق، مرحلة D) على الساحل الفلسطيني حيث تبدأ حوالى ٣٥٠٠ ق.م، المرحلة التي أطلق عليها تسمية الغسّول ـ بئر السبع[٦]،

---

(١) Pre-Pottery Neolithic B (P.P.N.B).

(٢) (Munhata): خربة في وادي الأردن الأوسط.

(٣) (Beisamoun) بيت سامون (؟).

(٤) (Ramad).

(٥) ('Amouq).

(٦) Gassoul-Birsabe'.

وهي التي عرفت إدخال تربية الخرفان ومرحلة الرعاية الأولى، وكذلك زراعة القمح الطري وتعدين النحاس.

كما عرف موقع النقب، القرى المطمورة أو المقامة تحت سطح الأرض، كما هو الحال في موقع صفادي[١] قرب بئر السبع، التي كانت تحتوي على أنفاق تصل بين المساكن. وهنا أيضاً تم الكشف على مغاور دفن مصطنعة، أعدّها الإنسان لتلقي البقايا العظمية لأموات السهل الساحلي، كما توافق هذه المرحلة طبقة العاموق D في سورية الشمالية.

في بداية الألف الثالث

عرف الساحل الشرقي لحوض المتوسط تمركزاً جديداً في المنطقة الهضابية من فلسطين، كما عرفت هذه الفترة وجود علاقات مع مصر الفرعونية في كل من مدينتي جات[٢] وآراد[٣].

يعود إلى تلك الفترة أول توسع عمراني في مدينة جبيل، وكذلك انطلاق العلاقات التجارية مع مصر عن طريق البحر، وعرفت تلك الفترة أيضاً إهداء الآنية الرخامية الفرعونية إلى معبد سيّدة جبيل (بعلة جبيل). أما في ما بين النهرين، فقد عرفت بداية الألف الثالث ظهور أولى اللوحات السومرية في أوروك[٤]، حاملة الكتابة التصويرية (البيكتوغرافية).

وفي نهاية الألف الثالث أي خلال الثلث الأخير منه عرفت فلسطين وسورية الساحلية هجرة أمورية، ثمّ يدخل التاريخ آنذاك سرجون الأكادي (سرجون الكبير) مؤسس أول امبراطورية في المنطقة، وسوف نعود إلى هذه المرحلة ونستكملها في ما بعد.

(٣ ـ ٢) عموميات عن المرحلة النيوليتية في الهلال الخصيب:

تقول الأسطورة التوراتية، إن الإنسان الأول وقرينته طردا من الجنة الأرضية التي

---

(١) (Safadi) قرب بئر السبع.
(٢) (Gath) قريبة من الشاطئ بين يافا وغزة.
(٣) (Arad) في الشمال الشرقي قرب بئر السبع.
(٤) (Uruk) مدينة جلجامش.

قد تكون سومر في ما بين النهرين لأنهما خالفا تعليمات الرب وتجاوزا حدودهما، وكان عليهما بعد ذلك، الرجل أن «يكسب معيشته بعرق جبينه»، والمرأة أن تعرف آلام الولادة بنتيجة الحمل.

ومثل هذا الاختصار، فسره أحد باحثي شؤون ما قبل التاريخ، بمرحلة الانتقال من الفترة الباليولوتية (العصر الحجري القديم) إلى الفترة النيوليتية (العصر الحجري الجديد)، حين تمكّن الإنسان من ممارسة الزراعة بتدجين الحبوب وممارسة الرعاية بعد أن تمكّن من تدجين الماشية (ماعز، خرفان، بقر)، وهذا ما شهدناه باختصار شبه جدولي، لدى استعراض مراحل ما قبل التاريخ في الفقرة (٣ ـ ١).

وعلى أساس تعابير الأسطورة التوراتية هذه، نرى أن الزراعة بدأت كما يُعتقد اليوم «بعرق جبين المرأة» حين اكتشفت، إذ كانت مستقرة في مكان سكنها، بانتظار عودة الرجل الذي ذهب إلى الصيد، أن الحبوب التي جمعتها للغذاء كانت تنبت حين تغطيها تربة الأرض، وأن بَذْر الحبوب من موسم إلى آخر يحسِّن خصائصها. ولا يستبعد أن تكون هي أيضاً نجحت في تدجين الحبوب وعملت مع الرجل، على تحديد شكل المأوى الثابت وإقامته ومن ثمّ تحسينه للحماية من شمس صيف محرقة واتقاء أمطار الشتاء وبرده القارس.

تجمّعت البيوت وتقاربت مستفيدة من مورد ماء، أو من موقع تسهل حمايته من الوحوش، وكانت بداية الاستقرار.

وقبل أن نتتبّع أعمال الكشف والتنقيب عن كل ما يرتبط ببداية المرحلة النيولوتية يمكننا القول، إن تلك البداية كانت ثورة لا تُنكر أهميتها، على اعتبار أنه بعد فترة طويلة، وطويلة جداً عرفها الإنسان الباليوليتي في عصره الحجري القديم، نراه ينتقل فجأةً إلى الاستقرار والزراعة وتدجين الدواب، كما انتقل من التجمّعات السكنية الصغيرة، إلى القرية ثم إلى المدينة ذات التنظيم الاجتماعي، فأمكن التعرف في ما بين النهرين على حضارةٍ متقدمة عرفت الكتابة وأقامت الممالك، حضارة لا توازيها في الشرق الأدنى غير حضارة وادي النيل...

وعلى هذا الأساس سَهُلَ الاعتقاد، بأن الثورة التكنولوجية للمرحلة النيوليتية، بدأت في ما بين النهرين في بلاد سومر. إلا ن الاعتقاد اليوم هو أن تلك الثورة بدأت

على الساحل الغربي للهلال الخصيب، على شاطئ المتوسط. ومن هذا الساحل عبْر الممر بين أريحا ودمشق باتجاه الشرق، انتقلت الزراعة إلى سهوب «الجزيرة» السورية، ثم إلى سفوح جبال الأناضول، ومنها وصلت إلى ما بين النهرين.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الحبوب البريّة كانت تنبت بكثرة على كامل منطقة الهلال الخصيب وفي المنطقة الآسيوية والشرق ـ أوسطية.

كما أن التقدم النيوليتي لم يقتصر على الساحل الغربي للهلال الخصيب وحده، إذْ إن مواقع أخرى مثل بلوشستان ووادي الهندوس، وكذلك سهول إيران المرتفعة وغيرها عرفت مرحلة الزراعة ومن ثمّ ولوج مرحلة متقدمة من البناء والتنظيم الاجتماعي، وعرفت بذلك تطوراً موازياً لما عرفته بلاد ما بين النهرين.

ومن جهتنا وعلى الرغم من أن الاتجاه الحالي لتفسير الثورة النيولوتية، زراعةً وتدجيناً، ينسب إلى ساحلنا المتوسطي، لا يمكننا الجزم بأن بلاد سومر لم تعرف فترة مماثلة ومتزامنة، غطّت معالمها أمتار من الطمي الخليجي لدجلة والفرات، ما زاد في صعوبة التنقيبات، التي اهتمت بشكل خاص بالفترات التاريخية، نظراً إلى أهمية مكتشفاتها. ومع ذلك، وقبل الدخول في عرض مكتشفات ساحلنا المتوسطي، نرى أنه من المفيد التعرف على المراحل البطيئة لتطور القرى الأولى في ما بين النهرين بالاعتماد على ما قدّمه الباحث جان ـ لوي هويو[١] بهذا الخصوص، وهو الذي اعتبر العام ١٩٩٤ أن بلاد ما بين النهرين عرفت ما سمّاه بالمرحلة النيوليتية الثانوية التي بدأت في منطقة «الجزيرة العراقية». ومنذ الألف التاسع ق.م أمكن القول إن سكاناً مستقرّين كانوا ينتجون غذاءهم بشكل مؤكد عن طريق الزراعة. ومنذ الألف السابع، عرفت المنطقة التربية الحيوانية.

أما في جنوب بلاد ما بين النهرين، المنطقة المنخفضة، فكان الإنسان يمارس أعمال ريّ بدائية، وظهرت القرى آنذاك. ومنذ بداية الألف السابع فإن صناعة فخارية عرفها الجميع حملت تزيينات مدهونة، اختلفت بحسب المناطق والفترة الزمنية، ولوحظ أن طرق المعيشة التي صُنّفت بثقافة تل حَلَف[٢] حافظت على طرق إنتاج مماثلة للمرحلة

---

(١) Les premiers villages de Mésopotamie, Jean-Louis Huot Editions Arm and Collin 1994.

(٢) نسبة إلى تل حَلَف الواقع إلى الشمال الغربي من مثلث الخابور في سورية الحالية على الحدود التركية.

النيوليتية القديمة ولم تتمكن من التطور إلى أبعد من ذلك، بينما تمكّنت ثقافة أخرى عُرفت بثقافة حسونة[١]، من التطور في اتجاه آخر. كما يمكن متابعة هذا التطور في وسط البلاد وشرقها، وكذلك في العُبَيد[٢] في الجنوب.

تلك القرى الجنوبية، خلافاً لما وصلت إليه القرى الآنفة الذكر، عرفت تطوراً مهمّاً وازدهاراً جديداً. ومنذ نهاية الألف السادس فقط تمكن قرويو الشمال من اللحاق بمستوى الجنوب وكأنّ قرى الشمال تمّ تلقيحها عن طريق ثقافة العبيد الجنوبية.

نتج عن ذلك ابتداع وسائل حياة جديدة ومتقدمة. وهكذا فإن قرى مرحلة العُبَيْد، كانت تدار بواسطة رؤساء محليين أقوياء يسيطرون على المجموعات الاجتماعية التي يتحدرون منها، ومثل هذا النسيج القروي هو الذي توصّل في نهاية الألف الرابع إلى تبني طريقة حياة جديدة، أمكن تسميتها منذ ذلك الوقت بطريقة حياة مدنية أطلق عليها المنقبون تسمية نظام التجمعات الكبيرة التي عرفت أولى إشارات الكتابة في مدينة أوروك. وبالتوازي مع قليل من الفروق الزمنية، عرفت المناطق الشمالية متبعةً وتيرتها الخاصة، مدنها الأولى.

وهكذا يمكننا القول اليوم: منذ الألف التاسع وحتى نهاية الألف الرابع، لا تزال المعلومات غير كافية، فالحفريات نادرة ونتائجها هي إما غير منشورة أو متوقفة بسبب الأوضاع في الشرق الأوسط، بينما توصلت الجهود المتعلقة بكشف المراحل الأولى من الثقافة النيولوتية في سورية وفلسطين إلى نتائج لم يكن من الممكن تصوّرها في بداية السبعينات.

وفي السنوات العشر الأخيرة التي سبقت الحرب العراقية مع إيران، كشفت التنقيات في ما بين النهرين عن القرى الأولى النيوليتية التي أشرنا إليها، واستمر تعطيلها اليوم بسبب حرب الخليج الأولى وسنوات العقوبات، وطبعاً، في ما بعد حرب الخليج الثانية حتى يومنا هذا... وهكذا فإن مناطق شاسعة لها أهميتها التاريخية القديمة انغلقت

---

(١) نسبة إلى تل حسونة على الدجلة قرب الضفة الغربية وإلى الجنوب من نينوى الواقعة على الضفة الشرقية.

(٢) نسبةً إلى تل العبيد، يقع على بعد ٦كلم إلى الغرب من أور في بلاد سومر في منطقة الخليج لما بين النهرين.

وتعذر التنقيب فيها، فلبنان عرف حربه الأهلية واحتلال جنوبه، ورغم استعادته يكاد يكون مغلقاً حتى اليوم.

كما أن إيران والعراق وأفغانستان وما يعادل ثلث تركيا وبعض المناطق الفلسطينية لا تزال مغلقة بالنسبة لتنقيبات تلك المرحلة.

ووفقاً للمعلومات المتوافرة اليوم، يمكن القول إن أقدم تطور نيوليتي رافقته ثورة التمركز والزراعة والتدجين بدأ على الساحل الغربي للهلال الخصيب وصعد من الجنوب إلى الشمال، متجهاً نحو الشرق، مغطياً الهلال الخصيب. وليس من المستبعد أن تنقض مكتشفات أخرى في المناطق التي عدّدناها هذه الحقيقة الحالية.

بعد الإيضاحات التي قدمناها عن وضع القرن الشرقي من الهلال الخصيب بالنسبة لتاريخ ولوج مناطقه مرحلة الثورة النيوليتية، نتطرق إلى مكتشفات الساحل المتوسطي في سورية وفلسطين التي يقول عنها الباحث كوفان[١] منذ العام ١٩٧٨ إنها «أحرزت تقدماً ودرجة من النضج والغنى، لم يتمّ التوصل إليها حتى اليوم» في الاتجاه الشرقي، وهذا ما تمّ عرض أسبابه آنفاً. وسوف ندخل في ما يلي في تفاصيل ما عرضته الفقرات السابقة في تلخيصها لمراحل ما قبل التاريخ وحلول المرحلة النيوليتية.

بعد فترة باليوليتية «حجرية قديمة» طويلة جداً، بدأت كما أوضحنا المرحلة النيوليتية (الحجرية الجديدة)، وتدرجت خلال ٣٠٠٠ سنة بين ١٠٠٠٠ حتى ٧٠٠٠ ق.م، وتمّ اعتبار هذا الحدث محلياً، أي أنه لم يأت من الخارج، وأعيد إلى تطور سكاني (ديموغرافي) وتقني بالنسبة لتطوير السكن وبالنسبة إلى تطورٍ غذائي واجتماعي، وكذلك بالنسبة إلى تطور إيديولوجي. أما السرعة التي عرفها انتشاره وتناقض ذلك مع بطء الأزمنة الباليوليتية، فسوّغ تسميته «بالثورة النيولوتية».

أطلق مؤرخو أزمنة ما قبل التاريخ تسمية الثقافة النطوفة[٢] على الفترة ما بين (١٢٣٠٠ ـ ١٠٠٠٠) ق.م، وهي التي تشمل المراكز التي عرفت أقدم آثار الاستقرار والإقامة في منازل مستديرة ثابتة ونصف مطمورة تمّ كشفها في النقب الفلسطيني وعلى الفرات الأوسط، كما شكلت تلك المساكن أولى القرى الثابتة مثال الملاّحة في وادي

---

(١) (Jean Cauvin).

(٢) (Natuféenne) نسبةً إلى وادي النطوف غربي مدينة القدس.

الأردن وأبو هريرة ومريبط على الفرات الأوسط السوري. وسوف نعود في ما بعد إلى دراسة تفاصيل مكتشفات تلك المواقع.

شَغل هذه القرى صيادو برّ ونهر وبحر وجامعو غذاء عَرفوا بيئات جدّ مختلفة، سواء أكان ذلك في مناطق صحراوية مثال واحة الكوم، قرب تدمر في سورية، أو موقع أزرق في الأردن، أو جُعَيتا في لبنان. مارس هؤلاء صيد الغزلان والعَنز البرّي، كما نصبوا فخاخاً للعصافير، وجمعوا الحبوب البريّة.

تلت المرحلة النطوفية، المرحلة النيوليتية المسماة مرحلة ما قبل الفخار[١] A وB، وأطلقت هذه التسمية من قبل منقبي موقع أريحا الفلسطيني، إلا أن الاتجاه اليوم يفضّل تبني تسميات تعتمد على المواقع التي تمّ التنقيب فيها. وهكذا، منذ بداية الألف العاشر، فإن تطوراً مهماً حدث خلال المرحلة الخِيامية[٢]، على اعتبار أنه بين (١٠٠٠٠ و٩٥٠٠) ق.م ظهرت أولى رؤوس الأسهم الصوانية ذات تعريتين متقابلتين، وهذه الأدوات الجديدة انتقلت إلى الشمال العراقي، كما لوحظ في تلك الفترة، تطور في السكن، إذْ لم تعد البيوت المستديرة نصف مطمورة، بل أُقيمت على سطح الموقع مثال ما اكتشف في موقع أورين[٣] على سفح جبل الكرمل، وفي الوقت نفسه، تم اكتشاف بعض التماثيل الأنثوية الكلسية الصغيرة في وادي الأردن السفلي في موقع الصليبية IX[٤]، وكذلك في المريبط II[٥] على الفرات السوري.

منذ المرحلة الخيامية في مريبط I وفي مريبط II، تمّ العثور على جماجم ثيران وحشية مدفونة بشكل مقصود ضمن مصطبة صلصالية، ومن هنا كان انطلاق تقليد دام طويلاً، إذْ يعتبر الباحث (جان كوڤان)، أن هذين الاكتشافين، أي التماثيل الأنثوية وجماجم الثيران، يحدّدان أولى معالم المعتقدات الدينية النيوليتية في الشرق الأدنى، أي المرأة ـ الأم والثور وهما أول الشواهد على التمثيل الإلٰهي لرمزي الخصوبة الأنثوية

---

(١) (Pre-Pottery Neolithic) A وB.

(٢) (El-Khiam).

(٣) (Oren) قرب وادي فلاح.

(٤) (Salibiya).

(٥) (Muraybet).

والإخصاب الذكوري. يدل ذلك على تبدل مهمّ في النفسية الجماعية، ما أدّى إلى ديناميكية حقيقية في المرحلة النيوليتية في بداية الألف التاسع ق.م.

لم تكن الثقافة الخيامية سوى مرحلة الإعداد لثقافة ما قبل الفخار التي تقسم حالياً إلى ثلاث مراحل مختلفة هي:

- المرحلة السلطانية[١] نسبة إلى تل السلطان في وادي الأردن وهو موقع أريحا النيوليتي.
- المرحلة المريبطية[٢] نسبة إلى موقع مريبط على الفرات السوري الأوسط.
- المرحلة الأسْوَدية[٣] نسبة إلى ما يعرف بواحة دمشق.

تمثل تلك المواقع الجغرافية الثلاثة مرحلة ما قبل الفخار الحقيقية ما بين (٩٥٠٠ و٨٨٠٠) ق.م. خلال تلك الفترة، أهمل السكان القرويون تدريجاً صيد الطريدة الصغيرة وكذلك الصيد النهري للاهتمام بصيد حيوانات أكبر حجماً، ولوحظ في الوقت نفسه وجود آثار تعديل الحبوب بقصد التدجين في المنطقة السورية (أسود ومريبط)، وكذلك في وادي الأردن (أريحا)، فاعتُبر ذلك أولى الخطوات لإنتاج الغذاء التي ظهرت في المساحة المحدودة لما سمّي بالممر المشرقي[٤] الذي يقع بين وادي الأردن والفرات السوري. في ذلك الوقت كان موقع مريبط III، تشغله قرية مساحتها (٢ ـ ٣) هكتارات تجمعت فيها بيوت مستديرة الشكل تضمنت تقسيمات داخلية، وخصّصت في ما بينها مساحات عامة مستعملة جماعياً. ولدينا مثال أول عن بداية التجمعات السكنية الكبيرة وبداية لحظ ساحات عامة تطورت عنها الأغورا[٥] الإغريقية.

فيما يتعلق بالغذاء، يرى الباحثون أنه من الصعب التفريق بين جمع النباتات البرية أو استعمالها في زراعةٍ ينفذها البشر، على اعتبار أن البقايا النباتية هي متشابهة في الحالتين.

---

(١) (Sultanien).

(٢) (Muraybetien).

(٣) (Aswadien).

(٤) (Corridor Levantin) بمعنى أن الممر المشرقي، يقع إلى الشرق بالنسبة لباحث غربي وهو هنا الساحل الشرقي لحوض المتوسط.

(٥) (Aggora).

أما عن التدجين الحقيقي للحبوب، فإنه يتمثّل في تبدّل جيني، لا يمكن التعرف عليه إلا لدى حدوثه. وعن التدخلات البشرية للتطوير والمعالجة، من المحتمل أنها بدأت بإقصاء الحشائش السيئة واختيار العناصر الأكثر ملاءمة لغذاء البشر، كل هذه العمليات لا يمكن واقعياً اكتشاف حدوثها. كما أن تكاثر عدد المناجل، قد يكون للتخلص من الأعشاب السيئة، وكذلك تكاثر فئران الحقول آكلة الحبوب والمولعة بارتياد صوامعها، وحتى أدوات الرحي. كل ذلك لا يكفي لإثبات ممارسة الزراعة.

إلا أنه في موقع أسود (A(I، القريب من دمشق عثر المنقبون المختصون في علم نباتات الأزمنة التاريخية القديمة على حبوب ذات شكل مدجّن، لقمح نشوي في منطقة لا ينبت فيها القمح البريّ... ما يدل على أن ذلك قد يكون ناجماً عن انتقالِ لسكانٍ قدموا إلى الموقع من مكان آخر، أو على نقل حبوب مدجّنة إلى ذلك الموقع.

على الرغم من ذلك، لا تزال بداية المرحلة المؤدية إلى تلك النتيجة مجهولة.

وبصورة عامة، فإن الشروط البيوجغرافية الملائمة لظهور الزراعة تتوزع على جميع أماكن السفوح المحيطة بالهلال الخصيب من النقب إلى إيران. مع الإشارة إلى أن بدء الزراعة لا يظهر دفعةً واحدة في جميع المواقع، بل ظهر تدريجاً، وأن سكان مناطق الممر المشرقي الذي أشرنا إليه آنفاً كانوا أول من أدرك صلاحية هذا الممر للزراعة أكثر من باقي مناطق الهلال الخصيب.

ويمكن القول بشكل عام إن مرحلة ما قبل الفخار النيولوتية على الساحل المتوسطي، عرفت فترة طويلة دامت حوالى ألفي سنة، رمز إليها بالحرف B، وقد وصلتنا عنها شواهد عديدة، ونعرف مراحلها الأولى في سورية في كل من مريبط وأسْوَد بين (٨٧٠٠ و٨٢٠٠) ق.م، تلتها مرحلة عرّفها الباحثون بالكلاسيكية بين (٨٢٠٠ و٧٥٠٠)، تلتها مرحلة ما قبل الفخار الحديثة B، ويمثّلها موقع بوقراص[١] على الفرات السوري قرب التقائه مع الخابور (٧٥٠٠ ـ ٧٠٠٠) ق.م، وكذلك مرحلة ما قبل الفخار الأخيرة (٧٠٠٠ ـ ٦٥٠٠) ق.م.

في بداية مرحلة ما قبل الفخار B كانت هناك تجمّعات سكنية صغيرة لمزارعين

---

(١) (Bouqras) على الضفة الغربية من الفرات عند التقائه بالخابور.

يعيشون على صيد الحيوانات البرية الصغيرة لاستكمال غذائهم. كانت تلك المجموعات تقوم بتأمين معيشتها على ما يظهر وفق الأساليب العملية لمجموعات ما قبل الفخار A، ثم ظهرت في بداية ما قبل الفخار B المتوسط والكلاسيكي أولى تجارب تدجين حيوانات الاستهلاك. وفي نهاية المرحلة الأخيرة فإن الماعز كان قد تم تدجينه في جنوب الساحل المتوسطي في البيضا[١] وأريحا، وكذلك إلى الشمال الشرقي مما بين النهرين في موقعي (داريهْ)[٢] و(علي كوش)[٣].

تبع ذلك مباشرة تدجين الخروف وأولى الحيوانات البقرية خلال مرحلة ما قبل الفخار الحديثة (٧٥٠٠ ـ ٧٠٠٠). ويمكن التأكيد أن بداية تربية الماشية الصغيرة وبعدها الماشية البقرية كان من أهم إنجازات المرحلة النيوليتية.

وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول إن أعمال بناء المساكن تطوّرت في تلك المرحلة، إذْ لوحظ تعديل في حجمها، فأصبحت أكبر من سابقاتها، وتبعت أشكالاً متعددة. وإذا ما كانت المساكن دائرية الشكل خلال فترة ما قبل الفخار A، فإن الفترة التالية B، تميزت بظهور المساكن المستطيلة. لم يكن هذا التطور عاماً، إذْ عثر على مساكن مستديرة في البيضا في فلسطين في بداية مرحلة ما قبل الفخار B، بينما كانت هناك في الوقت نفسه مساكن مستطيلة في أريحا وعين غزال[٤]. وكانت مساكن أريحا مبنية بالطوب المجفف تحت أشعة الشمس، وحداته على شكلٍ أسطواني مغزلي، تمّ تزويدها بأثلام صغيرة مقعرة أُنجِزت طولانياً بواسطة الأصابع وأُعِدّت لتلقي طين البناء الصلصالي.

ظهر بعد ذلك في مختلف المواقع، بنيان عمراني متقدم مستطيل الشكل في معظم الأحيان، رافق تعميمه انتشار استعمال الطوب غير المشوي، أي المجفف تحت أشعة الشمس، وأصبحت كذلك المجالات المستطيلة أو المربعة داخل المسكن، لها وظيفتها في التوزيع الداخلي.

---

(١) (Beidha).

(٢) (Dareh) على سفح زغروس الأوسط.

(٣) (Ali Kosh) على سفح زغروس الأوسط إلى الجنوب من داريهْ.

(٤) (Aïn-Ghazal).

وحين انتقل المسكن الذي كان يرتاده موقتاً صيادون غير مستقرين خلال مرحلة صيد. ليعودوا إليه في مرحلة صيدٍ مقبلة، كان ذلك المسكن لا يتعدى كونه ملجأً موقتاً. وحين استقر هؤلاء الصّيادون وعادوا إليه لِسكنِهِ بشكل مستمر، أصبح «بيتاً»(١) مرتبطاً بساكنه، تمّ توزيعه داخلياً استجابة لمتطلباته.

(٣ ـ ٣) أهم مواقع بداية التمركز:

درجت اللغة العربية على استعمال تعبيري البدو والحضر، الأول للدلالة على سكان الصحراء الدائمي التنقل، والثاني للدلالة على سكان المدن، ولكننا نعلم أن للبدو تقاليدهم ومناقبهم، فالشرف والكرم وعزّة النفس يتحلى بها البدوي. وأما تعبير الحضر، فنودُّ إغناءه هنا بمفهوم «الحضارة» الذي لا يعني سكن المدن فقط، بل يجب أن تعني الحضارة، بناء الحضارة الإنسانية، وهي طبعاً حضارة كل من يحترم قيم الإنسان في معتقداته ونبل مقاصده، ولا تعني الحضارة التقدم التكنولوجي الذي نعرفه اليوم.

وتكنولوجيا اليوم تضعنا أمام تناقض رهيب، عندما يعني التقدّم التكنولوجي تبني همجية «متقدمة» ومتفوقة في هدمها وتدميرها، وهذا ما نشهده اليوم.

بعد هذا التقديم العاجل لما يجب أن يعنيه مفهوم التحضر والاستقرار لبناء الحضارة، نعود إلى استعراض مراحل التمركز التي عرفها إنساننا القديم في مواقع مختلفة، عددناها في فقرات سابقة، وهي التي تمثلها في فلسطين مكتشفات:

(كِبارا) و(أورين) و(شُقبه)، و(عرق الأحمر)، و(وادي الزويتينيّة)، وكذلك المستويات القاعدية في (أريحا) و(بيضا) و(عين الملاّحة)(٢)، وهذه الثقافة هي التي أطلقت عليها تسمية النطوفية نسبةً إلى مغارة كُشفت محتوياتها في وادي النطوف(٣) غربي مدينة القدس.

كما مثلتها في لبنان مكتشفات: مغارة جْعَيْتا، وجبيل

---

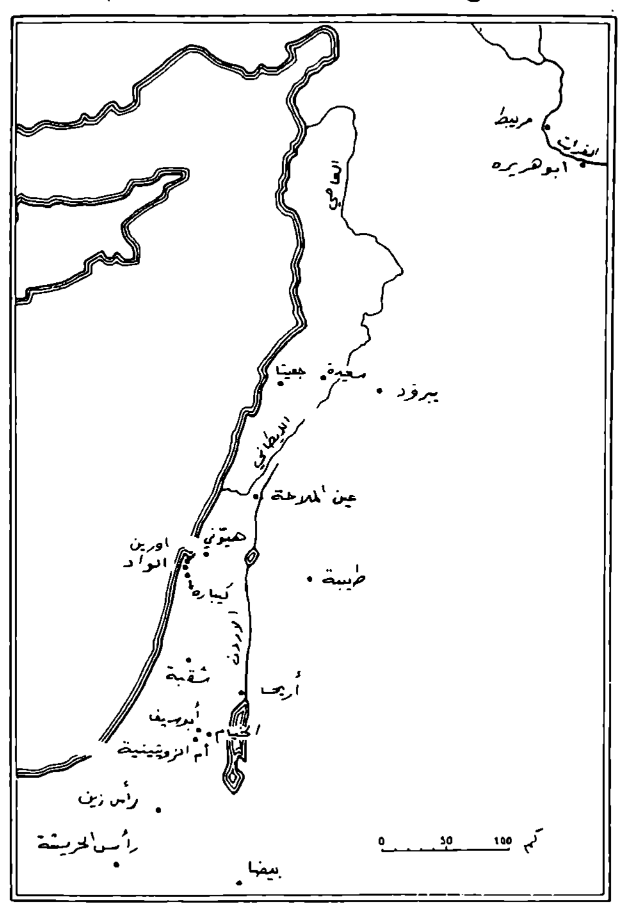
(١) أصبح بيتاً بالمعنى العائلي حيث يجد كل فرد فيه استقراره ويقابل هذا المعنى كلمة «Home» الإنكليزية.

(٢) Kébara, Erq el Ahmar, Oren, Shuqba, Ez Zouweitineh, Jericho, Beid'ha, Mallaha.

(٣) (Natouf).

المراكز النطوفية على الشاطئ الكنعاني

مواقع القرى النطوفية الأولى (١٠٠٠٠ ـ ٧٠٠٠) ق.م



وفي سورية والعراق مكتشفات:

(مريبط)، و(واحة دمشق) و(أسْوَد) و(رماد)، و(بوقراص)، و(تدمر)، و(جرمو)، و(داريه)، و(علي كوش)، و(تل حسّونة)، و(العُبيد).

وسوف نستعرض في ما يلي أهم المواقع الفلسطينية التي تمّ التنقيب فيها وحُدِّدت معالمها ومُكتشفاتها وفترات إشغالها:

أ ـ عين الملاّحة:

تقع على سفح جبال الجليل في الضفة الغربية من الأردن الأعلى وإلى الجنوب من نهر الليطاني. وتعود مكتشفات هذا الموقع إلى الفترة النطوفية، نسبةً إلى مغارة وادي النطوف الواقعة إلى الغرب من القدس، وهي الفترة التي تعود إلى حوالى ١٠٠٠٠ سنة ق.م.

أما مكتشفات هذا الموقع فقد دلّت على بداية الاستقرار في بيوت دائرية الشكل تتراوح أقطارها بين ٤ و٩ أمتار، أرضيتها أدنى من مستوى الأرض المجاورة لها، يحيط بها جزئياً جدار استنادي، مبني بواسطة أحجار كبيرة للمحافظة على جوانب الحفرة. الأرضية مغطاة ببلاطات من حجر كلسي، وتحتوي على موقد مركزي مربع أو مستطيل الشكل تحيط به أحجار حماية.

كما اشتملت أرضية المسكن على أحواض وحفر ذات جوانب مكسوّة في بعض الأحيان بطين أبيض.

كانت مساكن الملاّحة مغطاة دون شك بسقوف خفيفة مؤلفة من الأغصان، ولم يبق منها سوى أماكن ارتكاز قوائمها الحاملة.

أما تجمع الملاحة السكني، فكان يحتوي على حوالى ٢٥ إلى ٥٠ مسكناً من هذا الطراز يجعله صالحاً لإيواء حوالى ١٠٠ إلى ٢٠٠ نسمة في قرية نطوفية كهذه.

إلى جانب الأدوات الصوانية التقليدية، تمّ العثور على أجران هرس ومهارس صغيرة وكبيرة ومدقّات ومكاسر وأدوات صقل مصنوعة جميعها من حجر البازلت المنقور والمصقول.

كانت الأدوات العظمية ضئيلة العدد في الفترات السابقة، ثم بدأت أعدادها تتكاثر

وفقاً لأشكال متعددة، منها المخارز والإبر المثقوبة والصنانير والملاوق والأمشاط ذات الأسنان القصيرة والمزينة بواسطة ثقوب وتحزيزات، وعثر على ما يشبه هذا المشط في موقع كبارا النطوفي في منطقة الكرمل.

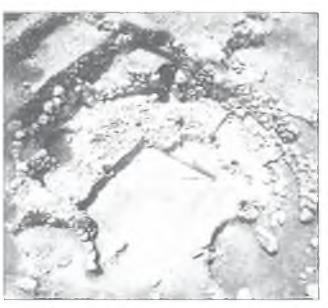
ولحوامل المناجل التي تم اكتشافها في قرية الملاّحة أهميتها لأنها تحتوي على الشقوق المعدّة لحشر الشفرات الصوانية المقدودة بشكل خاص، وكانت مقابض بعض هذه الحوامل مزينة بواسطة تحديب على شكل حيوان. ولا بد من الإشارة إلى أن الميل نحو تزيين الأشياء مهما كانت الأسباب العميقة له، اتضح في العديد من المكتشفات:

مثال العقد الذي عثر عليه في موقع الواد[1] النطوفي في الكرمل والمؤلف من الأصداف وأجزاء عظمية، وكذلك رأس من العظم يمثل حيواناً عثر عليه في مغارة كبارا، يعود هو أيضاً إلى الفترة النطوفية (الألف العاشر ق.م).

ومن الواد في الكرمل وصلنا ما يمثل رأساً بشرياً صغيراً نحت بواسطة تحزيزات على كتلة كلسية، حيث تسيطر العينان على حجم الوجه. كما عثر على رأس صغير مماثل في عين الملاحة، الموقع الذي قدّم لنا كذلك حوضاً من البازلت، تمّ تزيينه بواسطة تجاعيد منحوتة تمثل أشكالاً التفافية محدّبة نصف أسطوانية. وأخيراً تمّ العثور



عقد من العظم والأصداف من الواد (الألف العاشر)



بقايا مسكن دائري كبير قطره ٩م، وتظهر في أرضيته آثار حفر الركائز الحاملة للسقف من موقع الملاحة (الألف العاشر)

(١) (El Ouad).





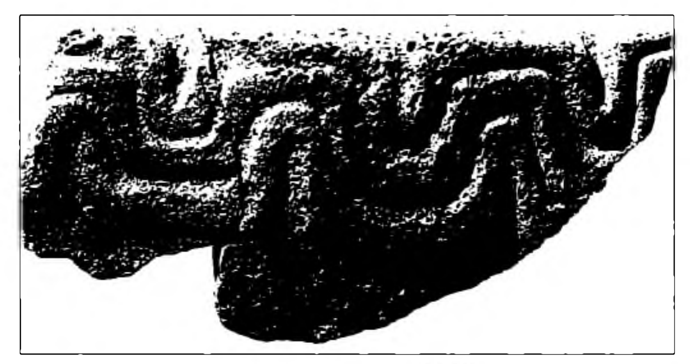


١ ـ قطعة من العظم مشغولة على شكل مشط من كبارا (الألف العاشر)

٢ ـ رأس بشري صغير على زلطة من الواد في الكرمل (الألف العاشر)

٣ ـ مقبض لمنجل من العظم من مغارة كبارا (الألف العاشر)

٤ ـ شكل بشري على زلطة من الملاحة (الألف العاشر)



٥ ـ طرف حوض بازلت مزين من الملاّحة (الألف العاشر)

في الصحراء الموازية للبحر الميت إلى الغرب منه، على زلط منحوت يمثل رجلاً وامرأة في وضعية جماع جلوساً ووجهاً إلى وجه. كما عُثرَ أيضاً على تمثال صغير آخر يمثل وعلاً رابضاً، ويتميز التمثالان الأخيران باحترام النسب في توزيع أبعادهما، ما يدل على مقدرة فنية متقدمة وأكيدة كما يمكن القول إننا أمام أقدم تعبير فني في الشرق الأدنى.

أما عن ملامح إنسان الألف العاشر، فقد تمّ التعرف عليها، لدى اكتشاف هيكل عظمي كامل في موقع الملاّحة، مدفون في وضعية الجنين، وقد أمكن دراسة مواصفات

سكان تلك المرحلة وكانوا على ما يظهر متوسطي القامة، أو ذوي قامة كبيرة، وساقين أكثر نمواً من الذراعين، وكانت جماجمهم مستطيلة الشكل وذات حجم واضح وجبين عالٍ ووجه عريض وعينين متباعدتين وفك سفلي قوي. ووفقاً لبعض الآراء يمكن اعتبار هذه الملامح، تمثل أسلافاً يشبهون الجنس الأورو ـ أفريقي لأسلافٍ عاشوا في فلسطين والأناضول والعراق وإيران في الأزمنة التاريخية الأولى.

من المفيد أيضاً التعرف على طرق الدفن التي تشير إلى ما يمكن اعتباره معتقدات ما وراء الطبيعة. كانت طرق الدفن متعددة ومعقَّدة، إذْ تم العثور على هياكل كاملة مدفونة في جميع الأوضاع: الوضع الجنيني أو التمديد الكامل، وبعض المدفونين كانوا مزودين بزينة رأس أو بعقد أو بربطة ساق من الصَدَف. وكان الدفن أحياناً يتمّ بوضع عدة جثث في الحفرة الواحدة، كما أن هناك مدافن جماعية، حيث كانت تودع بعض عظام الأموات وليس جميعها.

ففي عرق الأحمر، عُثِر بقرب سبع جماجم احتوتها حفرة الدفن على سن حمار وحشي، كما عثر في مدفنٍ في عين الملاحة على وتد تثبيت عظمي لقرون غزلان كانت ترافق الدفن. وبصورة عامة كان الأثاث المرافق للدفن نادراً، إلا أنه كان هناك اعتناء في الدلالة على موضع القبر بواسطة حجر قائم أو بواسطة تبليطٍ دائري منفّذ بشكل معتنى به.

في محاولة للتعرف على بداية الاستقرار في عين الملاّحة تدارس الباحثون وجود مساكن حفرت في أرضيتها عينات للتخزين، كما أن وجود أدوات حجرية ثقيلة، وكذلك مقابر مجاورة ذات أهمّية عددية، كان كل ذلك يشير إلى نوعٍ من الاستقرار، ويعنى ذلك أننا أمام سكان يتمكنون خلال جميع الفصول من تأمين معيشتهم دونما حاجة إلى هجر مساكنهم.

ولم تكن التجمعات السكنية هذه موسمية الاستعمال بحيث يعودون إليها في فصل معين، مع أن مثل هذه الطريقة السكنية عُرفت في فترة لاحقة بسبب تبدلات المناخ العام في المنطقة.

ساد الاعتقاد سابقاً بأن الاستقرار تمّ بسبب التقدم في مجالين رئيسيين، الزراعة والتدجين. إلا أن الوضع في الشرق الأوسط يبدو مختلفاً، إذْ أن تلك المنطقة عرفت ما بين فترة ٢٠٠٠٠ و١٥٠٠٠ ق.م مناخاً جافاً نوعاً ما وفقاً لما دلّت عليه التحاليل البولّينية

(الطلعية)، وتطورت الشروط المناخية اعتباراً من الألف الرابع عشر بحيث أصبحت أكثر ملاءمة لإقامة البشر وتوزعهم في السهوب الفلسطينية حتى التخوم الصحراوية.

واعتباراً من ٦٥٠٠ عادت الشروط المناخية إلى التدهور من جديد. إلا أنه بصورة عامة، فإن الشروط المناخية ما بين الألفين العاشر والثامن كانت على ما يظهر ملائمة إجمالاً، ما أدى إلى بداية الاستقرار بالاعتماد غذائياً على غنى المنطقة وتوافر إمكانيات الصيد فيها بالنسبة للغزلان والأيائل والعَنز البري، مع الإشارة إلى أن الخنزير والخروف والعَنز والثيران البرية التي كان بالإمكان تدجينها، جميعها لا تمثل في عين الملاحة أكثر من ٢٠٪ من الحيوانات المستهلكة، ما يدل على عدم تدجينها.

كما لوحظ بالنسبة للبقايا الغذائية في عين الملاحة أنها اشتملت على عظام عصافير وبقايا سمكية وبقايا سلاحف وسرطانات وأصداف على أنواعها، على اعتبار أن منطقة الحولة وبحيرتها ومستنقعاتها والهضاب القريبة المحيطة بها كانت تقدم إلى البشر كل تلك الإمكانيات الغذائية، ولم يكن الإنسان آنذاك مضطراً إلى التنقل وفقاً لتبدل الفصول أو لمتابعة حيوانات معيّنة تبدل مراعيها، على اعتبار أنه كان يجد حوله كل ما يسهِّل معيشته. وإلى تلك الإمكانيات الغذائية يمكننا إضافة الحبوب البرية (القمح والشعير) والنباتات الخضرية والبندق البري وغير ذلك من الثمار البرية التي يعتقد أنها أدّت دوراً مهماً في غذاء البشر في مرحلة ما قبل التاريخ.

أما المناجل التي عثر عليها في عين الملاحة، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، فإنها لا تدل كما يعتقد على بداية الزراعة، بل هي دليل على أن حصاد نباتات الحبوب البرية يعني توافرها بكثرة في جميع أنحاء منطقة الهلال الخصيب. كما دلت البحوث التي أجريت في الأراضي البازلتية المجاورة لبحيرة طبريا، على نمو القمح والشعير بكثرة في تلك الفترة، إذْ كانا يقدّمان إلى غذاء البشر حبوباً نامية ومليئة. ومثل هذه الكثرة حالت حتماً دون محاولة البشر اللجوء إلى زراعة ما كان يحيط بهم بوفرة وكان في متناول مناجلهم.

وفي حال حدوث تبدل مناخي ينجم عنه تناقص في توفر الحبوب البرية، كان ذلك من شأنه أن يجعل الإنسان يبذر الحبوب بنفسه للتعويض عن النقص.

ولتفسير بداية الزراعة في سورية وفلسطين، يعتبر الباحث جان پيرّو[١] بأننا يمكن أن

---

(١) (Jean Perrot) Syrie - Palestine I, collection Archeologia Mundi, Editions Nagel 1978.

نتصور مجموعة بشرية مُعتادة على استعمال الحبوب كغذاء لها اضطرت لسبب أو لآخر إلى أن تنتقل ببطء خارج المنطقة الطبيعية لنمو الحبوب البرية، وبقيت على حدود تلك المنطقة، ما يجعلها تسعى إلى التفتيش عن تدجين نبتةٍ كانت تعتبرها مفيدة لغذائها. وهذا ما لوحظ في موقع البيضا، في ما يتعلق بزراعة القمح في بداية الألف السابع.

كما يمكن الاعتبار أن استعمال المناجل من أجل حصاد الحبوب يعني بحد ذاته تقدماً تكنولوجياً وكذلك اختراع الصنّارة ورمح صيد السمك. كما يمكن أيضاً إعادة اختراع المهارس ورحى الطحن، حين كان الأمر يتعلق بطحن الحبوب، إلى التقدم التكنولوجي في مجال الاستهلاك.

ولكن يمكن القول إن موقع عين الملاّحة، لم يتوصل في أي مرحلة من مراحله إلى مستوى إنتاج الغذاء. مع الإشارة إلى أن التمركز والاستقرار لعددٍ كبيرٍ من السكان أصبح ممكناً إلى الغرب من الفرات الأوسط، نظراً إلى توافر الإمكانيات الغذائية الطبيعية بكثرة. واعتباراً من نهاية الألف الثامن، يمكن القول إن المنطقة عرفت تقدماً استثنائياً لافتاً للنظر.

ب ــ أريحا:

اشتهرت بالنسبة لمرحلة العصر الحجري القديم (الباليوليتي) بسبب حفريات كاتلين كينيون[١] بين عامي ١٩٥١ و١٩٥٦، كما اشتهرت المنقِّبة المشرفة على تلك الحفريات بالنسبة لأهمية المكتشفات التي حصلت عليها.

تقع أريحا في وادي الأردن الأدنى، إلى الشمال الشرقي من القدس. وقد دلّت مكتشفات الطبقة السفلية المعاصرة لفترة عين الملاّحة، على مجموعة طبقات متتالية تميّزها المساكن المستديرة التي تذكّر بمساكن بحيرة الحولة ولكنها بنيت بواسطة لبنات من الصلصال غير المشوي. ومنسوب أرضيات هذه المساكن هو أقل من منسوب الأرض المحيطة بالمسكن، ويمكن الوصول إليها بواسطة درجات عدّة أو بواسطة مهبط قصير.

وفي الأرضيات أيضاً كما في الجدران، تمّ الكشف عن ثقوب كانت معدّة لتلقي قوائم وعوارض حمل السقف المؤلف من الأغصان. وما جعل لتلك المساكن أهميتها،

(١) (Katlyn Kenyon).

هو أنها كانت تشكل تجمّعاً سكّانياً يغطّي هكتارات عدّة، وبحسب ما اعتقدته المنقبة (كينيون) فإن ذلك التجمع السكني كان يمكن أن يتسع لحوالى ألف نسمة. ومن الأهمية أيضاً أنه خلال تلك الفترة التي أطْلَقَت عليها المنقّبة المذكورة تسمية «الفترة النيولوتية لما قبل الفخار A»[١]، هو العثور على برج مبني باستعمال الحجر، ارتفاعه ثمانية أمتار ونصف، ويُمكّن من مستواه العلوي الولوج عبر ممر أفقي ودرج داخلي مؤلف من ٢٢ درجة. يستند هذا البرج على الجبهة الداخلية إلى جدار ضخم ارتفاعه أربعة أمتار، وإلى قاعدة بعرض ثلاثة أمتار. اعتماداً على جميع هذه الأوصاف، رأى المنقّبون في ذلك البرج وجداره الاستنادي بقايا نظام دفاعي، كما اعتقدوا أن سور حماية كان يحيط بالتجمع السكني، معتبرين ذلك أقدم سور دفاعي في التاريخ لمدينة بذلك الحجم وذلك القدم، تعود إلى بداية الألف التاسع ق.م.

ولا بد من التذكير بهذه المناسبة أن الاتجاه لتبني وجود سور حماية، أساسه توراتي على اعتبار أن الأسطورة التوراتية اعتبرت أن أسوار أريحا سقطت تلقائياً، بمجرد نفخ محاربي الإله يهوه في أبواقهم حول أسوار أريحا لاحتلالها بقيادة يشوع بن نون، مع العلم أن المدينة بكاملها لم تكن موجودة في الفترة التي تمّ افتراضها لوقوع الغزو التوراتي، وكان مَضَى أكثر من ٣٠٠ سنة على هجر الموقع.



شكل حيوان من منهاتا تربة مصلّدة الألف السابع ق.م

---

(١) (Pre-Pottery Neolithic A) (P.P.N.A).



البرج والجدار الضخم في أريحا فترة ما قبل الفخار A (PPNA) الألف الثامن ق.م



سبر عميق في مستويات أريحا (حفريات كاتلين كينيون)

ومن المفيد الإيضاح هنا، أن النص التوراتي الذي يروي ذلك الاحتلال الأسطوري تم تلفيقه قبل نهاية القرن السابع قبل الميلاد وبعده.

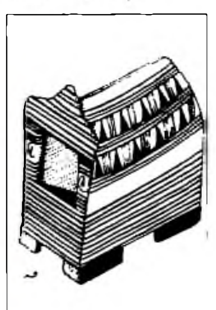
وبغية عدم تكذيب الأسطورة التوراتية تلك، احتدم نقاش خلال فترة طويلة بين المنقبين والباحثين والمدافعين عن المرويات التوراتية حول تأويل وجود البرج والجدار الاستنادي الذي أشرنا إليه آنفاً، ونرجح أنه لم يعد أحد اليوم يتبنّى مثل هذا الدفاع على اعتبار أن الغزو بكامله أصبح مجال شك ومن ضمنه أريحا ومدن أخرى.

ويعتبر (جان بيرّو)، الذي أشرنا إلى كتابه في الفقرة السابقة، أن المنقبة (كينيون)، عندما تعرّفت على أهمية أريحا القديمة التي كشفتها في بداية الخمسينيات، والتي كانت قائمة في منطقة هي اليوم جافة وخارج الواحات وضفاف الأردن، تصورت أن فلسطين في ذلك الوقت، كانت قد توصلت إلى مرحلة متقدمة من الإنتاج الزراعي، كما تصورت أن هناك وسيلة للريّ قد بلغت هي أيضاً مرحلةً متقدمة، ما يستوجب إقامة نظام

مركزي وقوانين وتنظيم متقدم كان على أريحا تبنّيه، وهذا ما جعل كينيون تتحدث عن مدينة حقيقية!

ولم تسمح التنقيبات في السنين الأخيرة بتبني مثل هذا التصور لأنه كان يعتمد على معلومات جزئية وغير كافية، مع الإشارة إلى أن سفوح تل أريحا، تم سبرها في العمق من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب، بواسطة أسبار ثلاثة بعرض عشرة أمتار وحتى قاعدة التل، ولم يكشف عن أي مسكنٍ كامل في الطبقة القاعدية. كما أن السور الذي لا نعرف من امتداده سوى أمتار عدة، قد يكون جدار إحاطة لمساحةٍ غير متسعة. أما إطلاق صفة الدفاع والحماية على البرج فذلك ينقصه الإثبات. مع الإشارة إلى أن البرج أقيم داخل الجدار الاستنادي وليس خارجه، وكل ذلك يساعد على الشك بالنسبة لوجود نظام دفاع وحماية في أريحا القديمة.

وليس بالأمر الأساسيّ، كما يعتقد الباحث (پيرّو) بأن يكون لأريحا نظام حماية أم لا، وقد يكون لها ذلك، على اعتبار أن أولى قرى التمركز كان عليها تأمين حمايتها، مع العلم أن تنفيذ مثل هذه الحماية يتطلب، حتماً مساهمة جماعية منظّمة. وعندما نجد أنفسنا أمام إثباتات أركيولوجية لوجود ما يشير إلى تنفيذ أعمال ذات فائدة عامة دفاعية أو غير ذلك، فمن حقنا الاعتبار أن مستوى معيشة مجموعة السكان من صيادين وجامعي غذاء قد تم تجاوزه. ولكننا بعيدون جداً عما يمكن تسميته بالمدينة.



منظمة: حاوية عظام موتى على شكل بيت من حاصور (٣٥٠٠ ق.م)



نحيتة من العظم على شكل رأس حيوان من كبارا (الألف العاشر)



جمجمة محملة بالجص من أريحا فترة ما قبل الفخار B (الألف السابع)

كان على التطور البطيء الذي يؤدي إلى إقامة المدن الأولى، المرور بمرحلة إنتاج الغذاء. ومثل هذه الخطوة من التطور الاقتصادي هي مرحلة يمر بها قرويون يعيشون في مجتمع صغير ولهم اقتصاد يولي النشاط الإنتاجي أهميته ويعني ذلك، الزراعة والتربية الحيوانية. وفي ذلك ما يكمّل جمع الغذاء بأشكاله المتعددة. ووحده إنتاج الغذاء وما تتطلّبه الحاجات الملحة والضغوط الضرورية هي التي تؤدي إلى التخصص وإنماء قطاع خدماتي ذي تطور اجتماعي يتعدى البساطة وهو التطور الذي تعرفه المدن.

إذن في ما يتعلق بالوضع الاقتصادي، فإن أريحا الألف الثامن، لم تصل حتى إلى مرحلة القرية. وكما كان يتم ذلك في الفترات السابقة فإن سكان أريحا، كانوا يعيشون بشكل حصري على الصيد وعلى جمع الغذاء والقطاف، ولم تكن هناك حيوانات مدجّنة. والجدير بالذكر، أنهم كانوا يستهلكون الشعير البري الذي ينبت بكثرة حتى اليوم على تل أريحا. كما أن الأدوات الصوانية والحجرية والعظمية، كانت مماثلة للأدوات التي استعملت في سورية وبقية أنحاء فلسطين، في مركز (أورين)[١] من الكرمل، وفي تل المريبط في وادي الفرات الأوسط، ففي هذين المركزين، نجد أيضاً بقايا المساكن الدائرية وجميع عناصر المعيشة بالاعتماد على جمع الغذاء والصيد.

وبالطبع، فإن لأريحا مركزها الطبيعي بالنسبة لمستقبل التطور التكنولوجي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي كما في سورية وفلسطين، وقد أثبتت ذلك تنقيبات السنوات الأخيرة.

إن ما تميّزت به أريحا له أهمية كبرى وبشكل خاص، عندما نعتبر أن تجمعاً سكانياً عاش على الصيد والقطاف تمكن من اتقان البناء على الشكل المتقدم الذي كشفته التنقيبات الأثرية. وليست تقنية البناء هي وحدها في أريحا التي يمكن إبرازها، ولكن التعرف على مكتشفات هذا المركز العائدة إلى الفترة النيوليتية لما قبل الفخار B من شأنها إبراز تفوق أريحا في مجالات عديدة. ويمكننا في هذا المجال، ذكر رأس التمثال الجصّي المحفوظ حالياً في متحف فلسطين في شرقي القدس والمعروف بمتحف روكفلر.

وكذلك الجمجمة المحمّلة بالجصّ لاستعادة معالم الوجه، ما يدل على معتقدات

---

(١) (Oren) قرب وادي فلاح.

دينية تستحق الدراسة. ولم تقتصر أريحا على مثل تلك المعالجة، إذْ تمّ اكتشاف ما يماثلها في موقع بيت سامون في وادي الأردن الأعلى إلى الشمال من عين الملاحة، وصنّف هذا الاكتشاف بأنه يعود إلى «حضارة أريحا».

كما يمكن ذكر القناع الحجري الذي تم كشفه بجوار مدينة الخليل الحالية، ويعود كذلك إلى الألف السابع لما قبل الميلاد، وهو موجود حالياً في المتحف التوراتي في مدينة باريس، وهو أيضاً من تصنيف حضارة أريحا. ولا نَنْسَى قناعاً حجرياً مشابهاً، تم كشفه في الموقع نفسه بعد حرب ١٩٦٧ وهو اليوم موجود ضمن المجموعة الخاصّة لموشي دايان، الذي حصل عليه بنتيجة حفريات غير مرخصة أمر بإجرائها.

ج ـ موقع البيضا:

في هذا الموقع القريب من البتراء في شرقي الأردن، العائد إلى النصف الأول من الألف السابع لما قبل الميلاد، ظهرت أولى بوادر تدجين الحبوب والحيوانات، إذْ دلّت المكتشفات على أن الحبوب عرفت في تلك المنطقة، على يد السكان نوعاً من التعديل الجيني، على اعتبار أن القمح النشوي الذي لا ينبت بشكل طبيعي (برّي) في السهل الجنوبي لشرقي الأردن، بدأ بالظهور، بينما الشعير الذي كان موجوداً هنا، في منطقة نموه الطبيعي، لم يظهر عليه مثل هذا التعديل.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن تدجين الماعز، بدأ يتّخذ أهمية في موقع البيضا، وكان الأمر كذلك في مختلف مواقع تلك الفترة في كل من سورية وفلسطين، حيث عرفت تلك المواقع تزايداً في نسبة الحيوانات المدجّنة، من دون أن يعني ذلك تدجيناً كاملاً، مع أنه يمكن التحدث عن بداية تربية حيوانية أولية.

عُرفت هذه المرحلة في أريحا، بالمرحلة النيوليتية لما قبل الفخار **B**، وهي التي ظهرت معالمها أيضاً في وادي الأردن الأوسط على بعد ١٥كلم من بحيرة طبريا حيث شُغِلَ موقع منهاتا[١] خلال معظم الألف السابع، وكان الأمر كذلك بالنسبة لموقع مريبط على الفرات السوري. بينما تمّ التمركز في رماد[٢] بين دمشق والقنيطرة وفي رأس

---

(١) (Munhata).

(٢) (Ramad).

الشمرة على الساحل السوري الشمالي في منتصف الألف السابع. وفي كامل المنطقة الممتدة بين غربي الفرات والجنوب الفلسطيني حتى السهل الأناضولي، نجد تشابهاً في كل من السكن والأدوات المستعملة وعادات الدفن وتنظيم الاقتصاد البدائي.

في تلك الفترة أيضاً حلت المساكن المستطيلة الشكل محل المساكن الدائرية، وأصبحت أكثر اتساعاً، كما كانت جدرانها مكسوّة بطبقة من الجصّ يتم تجديدها كلما اقتضى الأمر. كانت أرضيات المساكن مصقولة أيضاً ومطلية أحياناً بمادة حمراء.

ظهرت كذلك في موقع رماد أفران لشيّ الحبوب وتخليصها من أغلفتها، ومثل هذه الأفران لم يكن معروفاً في موقع البيضا.

في تلك الفترة أيضاً، حصل تقدّم تقني في قدّ الأدوات الصوانية وصقلها، وظهرت في فلسطين أعداد من رؤوس الرماح ورؤوس السهام، وأصبح استعمال القوس أمراً مألوفاً كما كانت هناك رسوم جدارية في موقع (شطل هويوك)[١] على السهل الأناضولي.

تمّ أيضاً استعمال شفرات مستطيلة وناعمة التسنين لحصد الحبوب، واستُعملت أيضاً رحى طحن أفقية من البازلت استمر استعمالها حتى اليوم.

لم يتبدل دفن الأموات عما سبق، أي في وضعية جانبية وشبه محنية دونما توجيه خاص للمدفون. وكان يدفن الرأس في معظم الأحيان على حِدة كما في أريحا وفي رماد، بغية استعماله في ما بعد كحاملٍ لإكسائه بالجصّ بقصد استعادة شكل وجه المتوفى، وكانت العينان تُشكّلان بواسطة أصداف.

عثر في أريحا على سبع جماجم محمّلة بالجصّ تحت أرضية احتوت على هياكل عظمية غير كاملة في أغلب الأحيان ومن دون ترتيب، قدرت بحوالى أربعين جثة.

أما التماثيل البشرية الصغيرة التي عثر عليها في (مُنهاتا III) فهي عبارة عن فتائل من الصلصال تمّ ضغطها عمودياً لتشكيل قاعدة لها، تسمح بإعطائها وضعاً عمودياً، كما تم قرصها في الطرف الآخر لتشكيل رأس مسطّح ومثلّث الشكل. أما معالم الوجه

---

(١) (Çatal-Hüyuk).

فكانت تمثلها تحزيزات أو أقراص صغيرة مضافة، وكان الجنس واضحاً في تلك التماثيل.

كما أنه في معظم مواقع تلك الفترة (الألف السابع) تمّ العثور على أشكال صغيرة صلصالية، تمثل حيواناً في أكثر الأحيان ذا قرنين كبيرين. كما عُثر أيضاً على أشكال صغيرة اعتبر البعض أنها أحجار ألعاب. يدل ذلك على سهولة استعمال التشكيل الصلصالي في وقت لم تكن فيه الأدوات الفخارية معروفة بعد.

ولا بد هنا من الإشارة إلى بوادر تدلّ على بداية قادت في ما بعد إلى الحضارات الزراعية والرعوية، مع أن نشاط الإنتاج في تلك الفترة كان ضعيفاً، وكذلك أثره في اقتصاد الجماعة، لأن الصيد وجمع الغذاء بقيا أساساً للاقتصاد. ولكن خطوة مهمّة وأساسية كانت قد حُقّقت، تجعلنا ندخل هنا في بداية عهد جديد. وإذا ما كان علينا أن نشير إلى بداية التحوّل، من الفترة الطويلة لما قبل التاريخ، إلى بداية الحضارة المدنية فهذه المرحلة هي التي تمثل هذه البداية.



١ ـ بيت مستطيل الشكل مكسوّة أرضيته بالحصى مع غرفة ملحقة من بيت سامون (الألف السابع)



٢ ـ بقايا بيت يسبق البيت الأول وفيه قبر وفرن من بيت سامون (الألف السابع)



قناع حجري من الخليل فترة ما قبل الفخار B (الألف السابع)



مقبض منجل عظمي من الواد (الألف العاشر)

رأس تمثال من الجص تم كشفه في أريحا فترة ما قبل الفخار B (الألف السابع)

لم يكن هذا التحول فجائياً على الصعيد الثقافي، بل كان تدريجاً، ففي البيضا مثلاً، يتم الانتقال من المساكن الدائرية إلى المساكن المستطيلة تدريجاً، وبصورة عامة، ففي فلسطين، لم يكن التجديد وليد تطور محلّي، بل كان بتأثير خارجي، أتى من محيط أبعد، فالعثور على بقايا صخر بركاني مزجّج[1]، يدل على تواصل مباشر أو غير مباشر مع منطقة بعيدة، تقع على السهل الأناضولي المرتفع، وكانت هناك حتماً تأثيرات خارجية شملت الهلال الخصيب. كما أن تقدم الحفريات السورية في السنوات الأخيرة أضاف وسوف يضيف إلى هذا الملف معلومات جديدة.

وهناك أسباب تجعل الباحثين يفكرون بأن الساحل السوري أدّى دوراً مهمّاً في الحضارة التي كشفتها التنقيبات في فلسطين خلال الألف السابع لما قبل الميلاد.

وقد يمكن التصور، أن تدجين الحيوان قد بدأ في المنطقة السورية ـ الفلسطينية بشكل مستقل، ويمكن التصوّر أن زراعة القمح، قد بدأت على محيط منطقة الجليل ـ الجولان وجبل الدروز، ومثل هذا التصوّر أكّدته مكتشفات موقع البيضا. ويمكن التصور أيضاً أن التقدم التقني أتى كلّياً أو جزئياً من وراء الفرات، من سفوح جبال زغروس، حيث كانت الزراعة والتدجين قائمين مبكراً.

(١) (obsidienne).

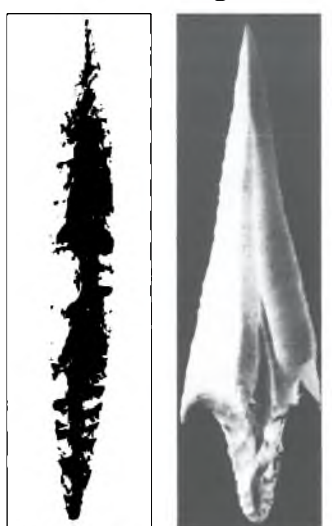
يسود الاعتقاد اليوم بأن الشروط المناخية في تلك الفترة من الألف السابع كانت أكثر ملاءمة في سورية الشمالية وكيليكيا، حيث قامت في سهول العاموق المنخفضة، التي لم تكن مستنقعية آنذاك، مجموعة من مواقع التمركز السكاني، وكذلك من جهة شرقي الساحل الشمالي حيث تمتد سهول واسعة حتى سفوح طوروس، ما جعل التواصل مع شمال ما بين النهرين إلى الشرق مستمراً. وقد كانت المناطق الشرقية أكثر تقدماً في ما يتعلق بالتدجين والزراعة. ومن هنا وعن هذه الطريق تمّ انتشار التقنيّات الزراعية في الهضبة الأناضولية ومنها في أوروبا. واستفادت سورية الشمالية وكيليكيا من هذا التيار المحضّر. أما تتمة الشاطئ السوري ولبنان وفلسطين فقد بقيت موقتاً خارج هذا التيار إلى أن حان وقت انتشار لاحق بدلالة أن بيبلوس لم تعرف الفخار إلا بنهاية الألف السادس، وعرفته فلسطين اعتباراً من منتصف الألف الخامس، بينما استعملت منطقة سورية ـ كيليكيا الفخار الداكن اللون منذ الألف السابع.



أدوات عظمية من أريحا فترة ما قبل الفخار B (PPNB) الألف السابع



المنظر العام لموقع منهاتا (خربة منها) في وادي الأردن الأوسط (الألف السابع)



١ ـ رأس صواني مزدوج الأوجه من موقع منهاتا (خربة منها) الألف لسابع ق.م

٢ ـ رأس حربة صواني من منهاتا (خربة منها) الألف السابع ق.م

د ـ رَمَادْ:

أشرنا في الفقرات السابقة إلى أن تباطؤاً حصل في التدجين والزراعة بين سورية الشمالية ـ كيليكيا وبقية الشاطئ السوري ـ اللبناني ـ الفلسطيني. ويرجع الباحثون هذا الحدث الذي بدأ في منتصف الألف السابع لما قبل الميلاد إلى تبدّل الحرارة والرطوبة الذي حصل في بداية تلك المرحلة، والذي لم يكن بمدىً يجعلُ معه النباتات تتأثر في مناطق الشرق الأدنى ذات النباتات المتوسطية. وأبعد ما يمكن حدوثه هو انزلاق عمودي بسيط للمناطق الممطرة وللسكن الطبيعي. كما لم يكن الأمر كذلك بين منطقة ساحل المتوسط والمنطقة شبه الصحراوية في الشريط ذي النباتات الإيرانية ـ الطورانية، حيث إن تضاؤلاً بسيطاً في كمية الأمطار من شأنه أن يصبح كارثة بالنسبة للحيوانات والبشر.

فسورية الغربية إلى الشرق من جبل حرمون وفلسطين وشرق الأردن وكذلك وادي الأردن هي منطقة ذات حساسية كبيرة للجفاف، حيث يتضاءل توزّع الشعير البري ولذلك تصبح المساكن الدائمة غير ملائمة. فمنذ النصف الثاني للألف السابع، تمّ هجر موقع بيضا على السهل الواقع شرقي الأردن، قرب البتراء، وكذلك قرية بيت سامون الكبيرة الواقعة في وادي بحيرة الحولة على الضفة الغربية لهذه البحيرة، وكانت تلك القرية أكثر اتساعاً من أريحا وفي شروطٍ أكثر هشاشة وتضرّراً، لذلك هي أيضاً، تمّ هجرها. وخلال كامل فترة الألف السادس، لم تعرف المنطقة على ما يظهر استقراراً دائماً، واستمر الأمر كذلك إلى أن عادت الشروط المناخية، فأصبحت أكثر ملاءمة في بداية الألف الخامس.

خلال الفترة السابقة، لجأ التمركز البشري إلى جبال القدس والسامرة والجليل الأعلى واستقر على سفوح سلسلة جبال لبنان. أما موقع رماد الذي كان قائماً على ارتفاع ٨٠٠م فلم يتم هجره. كما ظهرت مراكز جديدة في السهول الساحلية قرب عسقلان، وتصادف هذه المرحلة تأسيس مدينة چوبلا (جبيل). أما في سورية ـ كيليكيا، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، فبقي التواصل مستمراً مع منطقة ما بين النهرين العليا والمناطق الشرقية التي كانت أكثر تقدماً. ومن هنا، كما أوضحنا انتقلت التقنيات الزراعية نحو السهل المرتفع الأناضولي واستفادت المنطقة السورية ـ الكيليكية من ذلك التيّار الحضاري الذي اجتازها وأحياها، وبقيت تتمّة الساحل السوري ولبنان وفلسطين خارج ذلك التقدّم، وقد أشرنا إلى ذلك أيضاً.

أما الفروق التي يمكن عرضها بالنسبة للمنطقتين، فإنها تظهر بشكل خاصّ في توزّع الآنية الفخارية. فهذه الأخيرة ظهرت خلال الثلث الأخير من الألف السابع حيث تمّ استبدال الأواني المصنوعة من الجلود أو القصب أو الحجر، وبشكل تدريجي، بآنية فخارية مشوية. ويمكن تفسير انتشار الآنية الفخارية هذه بسبب تكاثر السكان والدخول في مرحلة أكثر تعقيداً وأكثر تقدماً تقنياً. ومع أن أيّاً من تلك العناصر كان وحده وراء هذا التقدّم، على اعتبار أن خصائص الصلصال كانت معروفة منذ زمن بعيد وكذلك صنع الكلس، الذي عُرف منذ الألف التاسع، كل ذلك يمثل تقدماً تقنياً يفوق ما أتى به الصلصال المشوي.

ومن المفيد التذكير بأن موقع رماد وكل سورية الوسطى في منطقة دمشق ـ تدمر، عرفا استعمال الكلس وكذلك الجصّ من أجل صنع أولى الأواني البيضاء السهلة التداول: وهكذا فإن فناً قديماً، عاد فوجَدَ له تطبيقاً جديداً.

وعرفت سورية ـ كيليكيا صنع فخارٍ ذي لونٍ داكن وسطح أسمر اللون، بقي مستمراً في تلك المنطقة خلال آلاف السنين. فالفخار الأسمر هذا والآنية البيضاء تلك في دمشق ـ تدمر، كل فئة اختص بها مركز إنتاج مستقل. ثم ما فتأت أن انتشرت وتزامن وجودها في مختلف تجمعات سورية الشمالية والوسطى، كما ظهرت بعد ذلك أنواع أخرى. أما لبنان، فلم يتم فيه الحصول على شواهد لوجود الآنية الفخارية إلا مع تأسيس جبيل في نهاية الألف السادس. كما أن استعمالها في فلسطين، لم يتم قبل منتصف الألف الخامس.

هـ ـ دور الرعاة ـ المزارعين بين الألفين الخامس والرابع:

بعد انقضاء فترة مناخية سيئة أخّرت التقدم الحضاري الطبيعي، استعاد الشرق الأدنى شروطاً مناخية ملائمة في الألف الخامس ق.م، حيث عرفت المنطقة مناخاً أكثر رطوبة، كما أن البادية السورية ـ الفلسطينية التي كانت عبارة عن ممرٍ ضيّق يؤدي إلى الشرق من سلسلة جبال لبنان، تمّ توسعها، وانتشرت فيها الحيوانات الصغيرة المجترّة من جديد، وتبع ذلك تكاثر في عدد السكان وانتشارهم.

كما أن موقعي أريحا ومنهاتا أعيد إشغالهما، كما تم تأسيس قرى أخرى. وبواسطة طرق السهوب الشمالية الشرقية تمّ اتصال فلسطين مع منطقة ما بين النهرين العليا والسهول المرتفعة المحيطة بها التي كان تأثيرها ضئيلاً خلال النصف الأخير من الألف الخامس، ولكن هذا التأثير أصبح واضحاً اعتباراً من الألف الرابع، واتجه بعد

ذلك إلى حركة انتقالٍ سكانية حيث دخلت مجموعات من الرعاة ـ المزارعين تدريجاً إلى فلسطين، وكان هؤلاء يحملون معهم حضارة متقدمة، هي التي أدّت في ما بعد إلى الحضارة الغسّولية[١] وحضارة بئر السبع.



حبّات عقد من الحجر الطري صفادي (٣٥٠٠) ق.م



رأس تمثال صغير من العاج من صفادي قرب بئر السبع (٣٥٠٠) ق.م



جزء من زينة عاجية مخرّمة من صفادي (٣٠٠٠ ق.م)

لوحظ منذ نهاية الألف السادس تزايد الاهتمام بالحيوانات القابلة للتدجين وبشكل خاص في ما يتعلق بالثور. ففي حوض الحولة الضيّق حيث كان تنقّل القطعان محدوداً تمكّن الإنسان من أن يعيش إلى جانب الحيوان في تقاربٍ سهّل عليه الانتقاء. ومع ذلك، لا يمكن الحديث في تلك الفترة عن تدجين حقيقي، على اعتبار أنه لم تكن هناك مراقبة للتكاثر. وعندما كان يتعلق الأمر بالحيوانات الصغيرة بقي السكان مرتبطين بتنقلاتها الموسمية، في تلك الفترة كانت المساكن في أريحا ومُنهاتا عبارة عن ملاجئ بسيطة نصف مطمورة بالنسبة للأرض المحيطة بها.

وفي الفترة نفسها، كان السكان يستعملون الأواني الفخارية البدائية الصنع وذات تزيينات محزّزة على شكل عدة خطوط منكسرة متوازية، أو على شكل عظام سمكية. ويعني ذلك أننا بعيدون جداً عن الآنية الفخارية المتقنة الصنع التي عرفتها بلاد ما بين النهرين أو السهل الإيراني المرتفع. أما الصلة الأكثر وضوحاً مع تلك المناطق، فهي العثور على تماثيل صغيرة أنثوية ترتبط بموضوع المرأة الجالسة، أي رمز الخصوبة أو الإلٰهة الأم. ففي منهاتا، فإن هذه المرأة تسند ثدييها بساعدها الأيسر ويدها اليمنى إلى فخذها الأيمن، وقد أشير إلى العينين بواسطة قرصين مستطيلين ومشقوقين مثل حبّة البن أُلصقا على الوجه بشكل مائل.

كما نجد أيضاً في تلك الفترة في فلسطين زلطاً أُعطي له شكل بشري بواسطة تحزيزات حفرت عليه، وكذلك نجد عدداً كبيراً من التماثيل الصغيرة التي تمثل حيوانات صُنعت من الفخار، ويمثل بعضها ثوراً ذا سنام.

عند حلول الألف الرابع ق.م، امتدت الحضارة الأكثر تقدماً التي عرفتها سورية الشمالية نحو الجنوب، ودخلت فلسطين التي خرجت أخيراً من عزلتها.




آنية فخارية من تل جديدة (حوض العاموق) تعود إلى الألف الخامس ق.م



تمثال أنثوي للخصب من منهاتا (خربة منها) لُقب بفينوس منهاتا من قبل المنقبين (الألف الخامس ق.م)

فمن كركميش على الفرات إلى جديدة في حوض العاموق، ومن رأس شمرا (موقع أوغاريت)، إلى جبيل وإلى حاصور على سفح جبل الكرمل، ومن منهاتا إلى أريحا في وادي الأردن وحتى أواخر السهل الساحلي إلى الجنوب من يافا، يعثر المنقبون على آنية فخارية مماثلة، ذات مساحة مصقولة وملمّعة سوداء أو حمراء، وجرار صغيرة ذات عنق موسّع، وطاسات وصحون ذات أطراف عريضة ومقلوبة.

حلّت آنذاك بيوت مستطيلة متسعة محل الملاجئ التي أشرنا إليها آنفاً، أقيمت على أساس حجري احتوت على غرفتين أو ثلاث غرف متتالية وذات أرضية من تراب مدكوك فوق طبقة من الزلط.

أما استثمار الموارد الطبيعية المتوافرة فقد كان وحده المسيطر، مرافقاً لإنتاج بقي مستواه ضعيفاً خصوصاً إذا ما قورن بالاقتصاد الإنتاجي الذي سوف يحمله إلى فلسطين المزارعون ـ الرعاة الذين سوف يؤسسون الغسّول وبئر السبع.

تلك كانت المرحلة التي عرفتها فلسطين بين الألفين الخامس والرابع حين بدأت تدخل إلى فلسطين تدريجاً مجموعات جديدة من السكان الذين كانوا في الوقت نفسه رعاة ومزارعين، وهم الذين سوف نتابع الإشارة إليهم في عرضنا لدور بئر السبع.

و ـ بئر السبع وبداية التعدين في فلسطين:

منذ النصف الأول للألف الرابع قبل الميلاد، عرفت السهوب السورية وسهوب ما وراء الأردن قدوم مجموعات سكانية جديدة تنقلت في المنطقة الجنوبية من البحر

الميت، مفضّلة الأراضي الترسبية المنخفضة على التلال التي شُغلَت سابقاً قبل مجيئهم بسبب تطورات مناخية أشرنا إليها آنفاً. بنى هؤلاء السكان لأنفسهم، قرىً توزّعت على طول الوديان وعلى أطراف الأراضي المسطّحة من ضفاف نهر الأردن، وعلى طول كثبان سهل الساحل الجنوبي.

كشفت الحفريات بالقرب من بئر السبع في موقع صفادي[١] عن إحدى قراهم ذات البيوت المستطيلة المطمورة التي تتصل في ما بينها بواسطة أنفاق.

أما أسلوب حياتهم، فقد حمل جديداً إلى المنطقة، إذْ قدموا ترافقهم قطعانهم من الخراف والماعز، واعتمد اقتصادهم على تربية الماشية الصغيرة وتربية الخنزير في الأماكن الساحلية الرطبة، كما أُدخِل الثور في ما بعد. والجدير بالذكر، أن موارد تربية الحيوان استكملت بموارد زراعية، أهمها الحبوب وخصوصاً القمح على أنواع عدة حيث أُدخلت زراعته إلى فلسطين. ولأول مرة تمكن إنسان تلك الفترة، حوالى ٣٥٠٠ ق.م، من إنتاج الموادّ الغذائية كافةً، وأصبحت موارد الصيد (صيد الغزلان) وقطاف الثمار البرية تمثل جزءاً ضئيلاً من الموارد المستعملة.



أدوات عظمية من صفادي، حضارة بئر السبع (٣٥٠٠ ق.م)



متدلية من العاج من موقع أبو مطر (٣٥٠٠ ق.م)، حضارة بئر السبع

---

(١) (Safadi).

ولما كانت السهوب الفلسطينية المستثمرة، تقدّم بسخاءٍ إنتاجها، فقد تزايد ورود السكان الجدد وتكاثرهم، وذلك بفضل قدرتهم على التأقلم في المنطقة وتقدمهم التكنولوجي. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن فلسطين عرفت بواسطتهم فن التعدين في منطقة بئر السبع. ونحن نعلم أن التعدين، ولد في الشرق الأدنى حيث كانت توجد فلذات النحاس في مناجم جبال زغروس وعلى هضاب الأناضول الشرقية منذ الألف الخامس ق.م، تشهد على ذلك بقايا المعدن المصبوب في تلك المواقع واستعمال قوالب صبّ.

أما شغل النحاس والرصاص والفضة والقصدير والذهب، فقد عرفته بلاد ما بين النهرين خلال فترة تل العبيد[1] (أي حوالى ٦٥٠٠ ـ ٣٧٠٠ق.م)، ولم تعرفْ سورية وفلسطين ذلك. كما يمكن اعتبار دخول المعدن النحاسي إلى بئر السبع بدءاً بحوالى ٣٥٠٠ ق.م كأول مركز للنشاط التعديني في فلسطين، حيث كانت تعالج فلذات المعدن المتوافر في شرقي الأردن.

كما أن العثور على فلذات المعدن وسندانات ومواقد إذابة وبوتقات صبّ وأفران تنقية في قرية أبو مطر[2] بالقرب من بئر السبع، يثبت أن شغل المعدن ومعالجته كانت تتم محلياً، وذلك بالنسبة لمادة النحاس، بينما اعتبر اكتشاف قطع نحاسية أخرى تمّ الحصول عليها بواسطة قوالب تستعمل الشمع المذاب مستوردة من بلاد ما بين النهرين حيث كان التواصل مع فلسطين مستمراً.

ز ـ مكتشفات مواقع مختلفة:

نتابع هنا مكتشفات المواقع المجاورة (لبئر السبع)، ملخصين ما يميّز كلاً منها. إذْ لوحظ أن سكان قرية (صفادي) برعوا في نحت الصخور القاسية مثال حجر الدم والبازلت، وكذلك استعمال المنشار، ما يجعل عملهم شبه ميكانيكي، نظراً إلى استعمال أدوات كهذه. كما أن سكان (صفادي) نحتوا العاج، تشهد على ذلك التماثيل الصغيرة العاجية أو رؤوس تماثيل لشخوصٍ أنثوية. وكذلك العثور على متدلية من العاج في (أبو مطر) ورأس دبوس من العظم يمثل طير اللقلق.

---

(١) تل العبيد (Obeid) قرب أور ما بين النهرين إلى الغرب منها.

(٢) (Abou Matar).



أوانٍ فخارية (حضارة بئر السبع) ٣٥٠٠ ق.م



أوانٍ بازلتية من موقع (أبو مطر) ٣٥٠٠ ق.م، متحف اللوفر باريس



معظمة: حاوية عظام الموتى، على شكل بيت من (حاصور) ٣٥٠٠ ق.م

أما الدبوس المصنوع من العظم الذي تمّ كشفه في (صفادي)، فهو يمثل رأس امرأة، ومن القرية نفسها عثر على عقد حبّاته من الحجر الطري.

وفي موقع (أبو مطر) عُثر على وعاء من البازلت وعلى حوضٍ كبير من البازلت، كما عثر على زلطٍ تمّ تلوينه ورُتّب على شكل هلال فوق أرضية أحد المساكن.

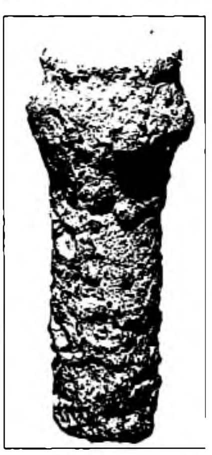
أما موقع (حاصور) الواقع إلى الشمال من بحيرة طبريا بالقرب من ضفة الأردن الغربية فقد قدّم لنا حاويات فخارية معدّة لحفظ عظام الموتى، على شكل بيوت أو على شكل حيوان، كما قدّم إلينا حاويات مختلفة عثر عليها في مغارات اصطناعية أعدت لهذه الغاية.

وفي (تليلات الغسّول) كشفت الحفريات عن تماثيل صغيرة تمثل بشراً، كما عُثر على متدليات.

نعود إلى (صفادي) لنستعرض اكتشاف كتلة سلاح من النحاس، وكذلك بلاطتين نحاسيتين وقطّاعة وكتلة سلاح من حجر الدم.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن فخار تلك الفترة المستعمل لتشكيل الأوعية المختلفة، وخصوصاً الطاسات الفخارية، كانت بدائية الصنع وغير مكتملة الشواء ولهذا السبب كانت سهلة الانكسار على اعتبار أن الصلصال المستعمل في صنعها يدوياً والمنفّذ قبل اختراع دولاب الفخّار كان يحتوي على نسبة من الكلس تحول دون شيّ الأوعية بشكل كافٍ تحاشياً لتشققها.

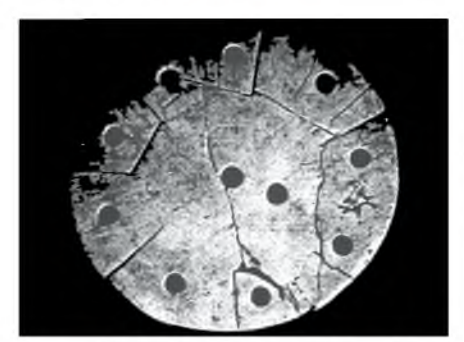
لم يكن التقدم التقني والاقتصادي وحدهما يميّزان ما سمي بحضارة بئر السبع والغسّول في تلك الفترة، بل كانت الاعتبارات الجمالية هي أيضاً من مشاغل السكان، بدلالة اكتشاف العديد من أدوات الزينة كالعقود والمتدليات التي أُشير إليها آنفاً وخصوصاً القطع العاجية المشغولة، ومعظمها صَدَر عن مصنع مختص تم كشفه في (صفادي)، وكذلك التماثيل التي تمثل رجالاً ونساءً في وضعية الوقوف وسواعدهم على امتداد الجسم وأيديهم على خصورهم. وهذه التماثيل تذكر ظاهرياً ببعض تماثيل مصر العليا ولكنها قد تختلف عنها في الغاية من تمثيلها.



رأس صولجان من النحاس حضارة بئر السبع (٣٥٠٠ ق.م)



طبعة ختم من جديدة (الألف الرابع ق.م)



قرص من العاج من صفادي حضارة بئر السبع (٣٥٠٠ ق.م)

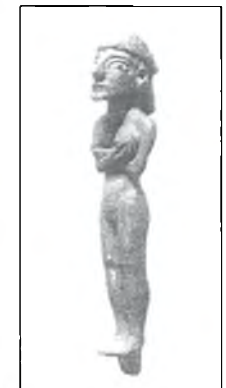


رأس دبوس عظمي من (أبو مطر) يمثل طائراً (٣٥٠٠ ق.م)



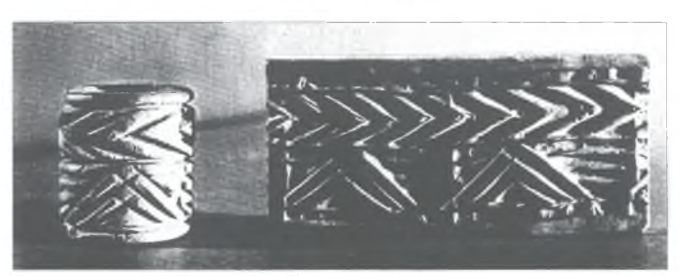
طبعة ختم أسطواني من جديدة (الألف الرابع ق.م)

أما جدران البيوت السكنية في تليلات الغسّول من وادي الأردن إلى الشمال الشرقي من البحر الميت، فكانت مزيّنة برسوم هندسية أو رسوم تمثّل أشخاصاً، وكانت تزيينات مماثلة تغطّي سطوح الحاويات العظمية التي كشفتها الحفريات في المدافن التي كانت عبارة عن مغارات اصطناعية محفورة في الصخور الرملية أو الكلسية الطبشورية، ويتم الولوج إليها من جهتها العلوية، وقد أُعدّت بداخلها مصطبة حجرية توضع عليها حاويات العظام، محتوية على جمجمة المتوفى والعظام الطويلة، وقد تحتوي على عظام أكثر من متوفٍ واحد.





رؤوس دبابيس من صفادي (٣٥٠٠ ق.م)



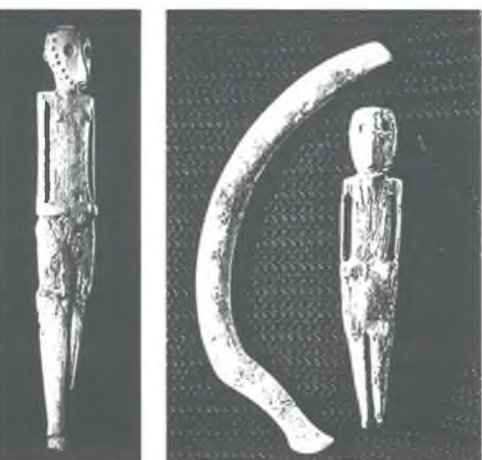
ختم أسطواني من جبيل نهاية الألف الرابع ق.م

وفي مغارة دفن أخرى عُثِر على سبع جماجم رُتِّبت بجانبها العظام العائدة لهياكلها وفق تدرُّج أبعادها. وقد استمر استعمال هذه العادة في الدفن في ما بعد من قبل البدو في المنطقة، إذْ كانت كل قبيلة أو مجموعة عائلية تدفن موتاها في مغارات من هذا الشكل، والعظام المشار إليها كانت حاويات مصنوعة من فخار سهل الانكسار للأسباب التي أشرنا إليها آنفاً وكانت هذه الحاويات تمثل بيوتاً أو حيوانات أو كانت عبارة عن جرّة عادية أو صومعة.

ويمكّن الاستنتاج من طرق الدفن هذه، وما يرافقها من تزيينات بارزة، تمثل قرون عنز بري أو تمثل حيّات، من تحسّس وجود معتقدات خاصة للسكان من الصعب تحديدها، يدعم ذلك وجود تماثيل صغيرة بشرية وحيوانية في المدافن، كما تمّ العثور فوق أرضيات بعض مساكن بئر السبع على مجموعات من الزلط بأعداد هي عبارة عن مضاريب العدد ٧ تحمل تزيينات رُسمت بالتربة الحمراء وتمثل بقعاً أو خطوطاً أو إشارات مصلّبة.

تلخيصاً لما استعرضناه آنفاً، يمكن القول إن مجتمع تلك الفترة تميّز بمعرفة رعوية وزراعية كانت بدأت بالتخصص منذ منتصف الألف الرابع ق.م.، إذ أن تجمّع (صفادي) السكاني تميز باحتوائه في مختلف مستوياته على بيتٍ أو قاعةٍ سفلية أكثر اتساعاً، تختلف في استعمالها عن المساكن الاعتيادية.

وفي موقع (عين جدي) على ضفّة البحر الميت، عثر على مجموعة من الأبنية كانت، على ما يظهر، معدّة لأن تكون مركز احتفالات أو طقوس؟ أما بالنسبة للتطور الاجتماعي، فإن المجموعة المعروفة بمجموعة القرى المجاورة لبئر السبع فإنها تميزت، كل واحدة بتخصصٍ ونشاطٍ صناعي معين، إذْ غلَب نشاط التعدين على موقع (أبو مطر) وغلَب شغل العَاج في (صفادي)، ونبدأ هنا بتجاوز مفهوم القرية البسيطة، لنتّجه نحو شكلٍ من التنظيم أكثر تطوراً وتخصصاً.

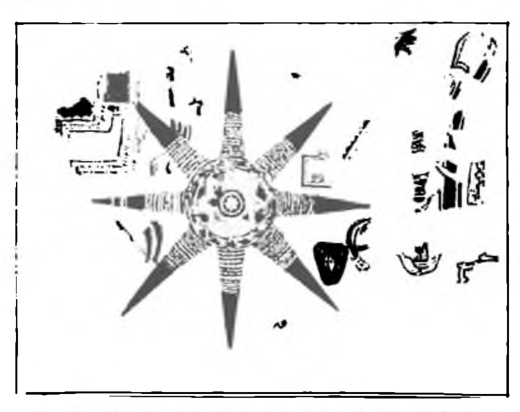


تمثال صغير من العاج ونحيتة عاجية على شكل منجل من صفادي (٣٥٠٠ ق.م)



تمثال من العاج ٣٣سم من صفادي، حضارة بئر السبع (٣٥٠٠ ق.م)

تمثال صغير لأمومة من العاج، صفادي، حضارة بئر السبع (٣٥٠٠ ق.م)



نجمة ثمانية متعددة الألوان تزين جدار مسكن من تليلات الغسول (٤٠٠٠ ق.م)

ومع الأسف، فإن بداية هذا التطور الواعدة تمَّ الإخلال بها بسبب بدء تدخَل الجيوش المصرية في الجنوب من فلسطين، والذي كان أحد مسوغاته هو منع القبائل البدوية من ارتياد المراعي الواقعة بين شمال العريش ومنطقة الدلتا. ومن المفيد أيضاً أن لا نستبعد الغزوات البدوية لمنطقة سيناء حيث كان العمال المصريون منشغلين في استثمار مناجم هذه المنطقة، ومع الأسف أيضاً أنه لم تقف الأمور عند هذا الحدّ، وسوف نخصص فصلاً خاصاً لعلاقة مصر بفلسطين والساحل المتوسطي[١].

ممرات تحت الأرض تصل بين مساكن قرية صفادي قرب بئر السبع (٣٥٠٠ ق.م)

ويمكن القول، إن التغييرات التي أحدثها تدخل مصر على الساحل الفلسطيني اضطر السكان إلى العودة نحو إشغال المناطق المرتفعة وهجر سكن الأراضي المنخفضة التي كانت سهلة الإرواء. وعلى هذا الأساس عرفت فلسطين التجمعات السكانية التي أُقيمَت حول سفُوح المناطق المرتفعة بجوار موارد المياه التي يسهل الدفاع عنها، والتي لم تعد لها علاقة مع التجمعات السابقة التي أقامها الرعاة ـ المزارعون.

كما يمكننا القول بهذه المناسبة، إنه منذ نهاية الألف الرابع، لم تعرف فلسطين على الرغم من التقدم التكنولوجي الذي وصلت إليه، التناسب الكامل، بين قدرات

---

(١) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

الإنسان ومعارفه وبين ما تقدِّمُهُ إليه الطبيعة من إمكانات استثمار لكامل طاقاته. مع أن ذلك حصل بتفوق في ما بين النهرين، كما حصل في مصر.

بدأت فلسطين بعد ذلك تدخل في مرحلة بناء المدن الأولى، لكي تجد لنفسها دوراً جديداً يلائمها ويلائم انفتاحها نحو الشمال ونحو الشرق وكذلك نحو علاقات مميزة مع مصر.

نقف هنا عند عتبة الألف الثالث، لندخل في فصل رابع من هذا الكتاب يحاول التعرف على فلسطين من ضمن ما عرفه الساحل الشرقي لحوض المتوسط أو الشاطئ الغربي للهلال الخصيب.



المنظر العام لقرية صفادي التي هي تحت مستوى الأرض المجاورة وهي قرب بئر السبع (٣٥٠٠ ق.م)

الفصل الرابع

(٤) التسمية والإتنيات على الشاطئ الشرقي لحوض المتوسط

(٤ ـ ١) التسمية في الوثائق القديمة

(٤ ـ ٢) الإتنيات التي عرفها الساحل الشرقي والهلال الخصيب

(٤) التسمية والإتنيات على الشاطئ الشرقي لحوض المتوسط

(٤ ـ ١) التسمية في الوثائق القديمة:

أول تساؤلٍ خطر لي لدى بدء التفكير بإعداد هذا الكتاب، حول الشاطئ الشرقي لحوض المتوسط أو الساحل الغربي للهلال الخصيب، هو، ما هي التسمية التي يمكن أن نطلقها على هذا الساحل بالاعتماد على شواهد تاريخية حقيقية لا علاقة لها بما درجت عليه المرويات التوراتية التي أرادت أن تظهر وكأنها تكتب تاريخ البشرية، وذلك بتبني إعادة مجموعات سكان العالم القديم إلى مسمَيات أجداد وسلاسل بشرية وفق النظام القبلي، كما صَنّفت مختلف شعوب المنطقة اعتباراً من آدم ونوح، مروراً بِسام وَحام ويافث وأرخفشاد... الخ... وقُدِّمت اللوائح المذكورة وكأنَّ كَتَبة تلك النصوص كانوا يقرأون في مجلة أنساب توفرت لديهم وحدهم، أو كانوا يرجعون إلى سجلاتهم الخاصة، التي لا يملكها غيرهم عن تسلسل البشر منذ آدم....! كل ذلك كانت الغاية منه تبرير وجودهم واستبعاد من أرادوا استبعاده، أو كانت تخصصه بصفاتٍ مكروهة، وذلك حين كانوا يقرّرون بالنسبة لأخوةٍ ثلاثة أنّ أحدَهم استحق لعنة أبيه و«سيكون عبداً لأخيه» وتنطبق اللعنة طبعاً على ذريته. وليس صدفة أن تكون هذه الذرية هي التي تملك الأرض التي «وهبها يهوه لعباده!»[1].

---

(١) يتعلق الأمر هنا بمن سمّي حام (جد المصريين) بحسب المرويات، الذي لعنه والده نوح هو =

ونحن بالطبع، لا يمكننا تبنّي مثل تلك الأوهام الأسطورية التي دُبِّجت في نهاية القرن السابع لما قبل الميلاد وبعده، وسوف نروي في ما بعد تفاصيل ذلك، وتلك الأسطورة، لم تكن تعني سوى الانحياز السياسي والمعاداة، وتخدم مطامع الذين كتَبُوا واختلقوا، وإذا ما أردنا التعرّف على التسميات الحقيقية لمختلف مناطق بلادنا، لا بدّ لنا إذن، من العودة إلى النصوص القديمة ذات التواريخ الثابتة، التي تقدم إلينا أسماء تلك المناطق كما عرفها بها أهلها، وكما نقلتها إلينا الشواهد الموثوقة، بحيث لا يمكننا القول عند ذلك إن السومريين هم أبناء جدّ اسمه سومر، وهكذا بالنسبة لأبناء آكاد، أو أن الأشوريين الذين شكّلوا في ما بين النهرين مملكة بابل ومنهم حمورابي، وانتشروا أيضاً في مختلف أنحاء الساحل السوري واللبناني والفلسطيني، هؤلاء لا يمكن القول إنهم أبناء «أمور» جدّهم، وهم الذين يقول عنهم يهوه على لسان عاموس نبيّه: «لقد أبدت الأموري أمامهم». ويكفي أن نقرأ في المرويات التوراتية ما كتبه عاموس حول الأمم والشعوب المجاورة لنتعرف على حقد عاموس وكراهيته لدمشق وملوكها الآراميين، ولغزّة والفلسطينيين، ولصور وفينيقيا، ولإيدوم وعمون ومؤاب، وللسامرة ونسائها...[1].

كل ذلك يعني وجوب إهمال ما دبّجته الأساطير التوراتية، وقد ثبت انحيازها في غير مناسبة، والرجوع إلى ما قدمته إلينا المكتشفات الأكيدة، مثبتةً على لوحة فخارية أو منقوشة على نصب تذكاري، أو على جدار معبد وبقيت لتروي لنا من دون تعديل أو تحوير، وتبلغنا ما أراد إبلاغنا إياه صاحب اللوحة أو النقش.

علينا إذن العودة إلى الشاطئ المتوسطي الذي يهمّنا، واستعراض ما توفّر لدينا من معلومات سبقت القرن السابع لما قبل الميلاد، حين ابتدعت بنهاية هذا القرن أسطورة المملكة الموحدة بين الشمال والجنوب من فلسطين، وأسطورة الجد الواحد والملك الواحد، داود، صاحب امبراطورية مزعومة والذي يحق لذرّيته، تبوّء الملكية التي أرادها إله خاص، لشعبه الخاص بشكل خاص.

= وذريته، وهكذا تصيب اللعنة كنعان من أبناء حام صاحب الأرض موضوع الوعد الذي سيكون عبداً لأخيه سام.

(١) تعتبر المرويات أن عاموس عاش حوالى منتصف القرن الثامن ق.م، ولكننا نعتقد أن ما كتبه يعود إلى ما بعد السبي بسبب تصور آمال سيانية تُنْقِذُ من الانحرافات التعبدية.

على أساس ما أشرنا إليه أعلاه، سنزور شاطئنا لنقفَ على ما عرفه به أهله الأصليون وغزاته الذين كانت لهم معه أحياناً علاقات متعددة الرجوه.

عرف الساحل الشرقي للهلال الخصيب، من أوغاريت إلى عسقلان ورفح عدداً كبيراً من المدن والممالك، كانت لها مع العالم القديم، وبشكل خاص مع الامبراطوريات المحيطة بها في مصر وفي ما بين النهرين وفي الأناضول وكذلك مع العالم الأيجي، علاقات تجارةٍ أو تحالف أو تبعية.

منذ الألف الثالث لما قبل الميلاد كانت السفن المصرية ترسو في ميناء جيبالا (چوبلا) [جبيل] حاملة شحنات ورق البردي من مصر وعائدة بأخشاب غابات لبنان وخصوصاً خشب الأرز، لصنع توابيت الفراعنة وأثاث مرافقتهم في مدافنهم وكذلك بناء سفنهم المعدّة لإقامة طقوس أوزيريس ورَعْ وكذلك سفنهم التجارية.

وسوف نعود إلى تلك العلاقة المميزة مع جبيل في ما بعد، مع الإشارة إلى أننا لا نملك حول هذه الحقبة نصوصاً تشير إلى ما كان يعرف به ساحل جبيل في تسميته الفرعونية.

أ ـ اللعنات المصرية:

كُشفَ في مصر، عدد كبير من الكِسَر الفخارية العائدة إلى بداية الألف الثاني ق.م، والتي تحمل كتابات أمكن قراءتها بعد إعادة تشكيل آنيتها الأساسية، وكان الأمر يتعلق بطقوسٍ سحرية تقضي بكتابة أسماء ملوك وأمراء المناطق التي تقع تحت نفوذ مصر، وكذلك أسماء أعْداء مصر، على آنية فخارية ثمّ تحطيمها ودفن كسرها لكي تحمل بسحرها هذا الرعب إلى قلوب الأعداء وتجميدهم بحيث لا يتمكنون من الإتيان بأي عمل مضادٍ للمصالح المصرية. عُرِفَتْ تلك الآنية، بحاملة اللعنات المصرية. وما يهمنا في مجال هذا البحث، هو تعداد الملوك والأمراء وأصحاب النفوذ المحيطين بهم، مع أسماء مدن هؤلاء، وفي ذلك صورة حقيقية لما كانت عليه ممالك الساحل في بداية الألف الثاني. وسوف نستفيد من هذه المعلومات في ما بعد في فصل مستقل (الفصل السادس).

ب ـ من مملكة ماري:

في رسالة إلى نائب ملك ماري[١] (يسمح ـ أدّو)[٢] الذي حكم بين عامي (١٨١٠ و١٧٨١) ق.م، وجهها إليه أحد ضباطه الذي كان يقوم بعملية مراقبة عسكرية في منطقة يصعب تحديدها نظراً إلى سوء حالة اللوحة الحاملة للرسالة. يكتب الضابط، بعد الإشارة إلى أنه ومرافقيه يتمركزون أمام راهيشوم[٣] مضيفاً في الأسطر (٩ ـ ١٣):

«لصوص و(كيناهنو) هم متمركزون في راهيشوم بالذات، نحن وهم نراقب بعضنا البعض. وضع الجنود جيّد، وعلى قلب سيّدي ألاّ يقلق من أجل جنوده».

ويعني ذلك أن الكيناهنو وهم الكنعانيون كانوا يحاربون في موقع راهيشوم وإلى جانبهم يقف من أطلقت عليهم تسمية لصوص، فهل يترقّبون الفرصة للسلب إذا ما وقعت المعركة؟ أم هم من المرتزقة، ويصعب فهم مهمة هؤلاء، مع أن مؤلّفَي المصدر اللذين أوردا هذا الخبر[٤] يعتبران أن الكيناهنو هنا هم الكنعانيون، ويمكننا الإشارة إلى أن مملكة ماري هي التي تغلب عليها حمورابي الأموري (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠) ق.م. تثبيتاً لملكه في بابل، ونعلم أيضاً أن مملكة ماري لم تحارب على الساحل، ويمكن التساؤل عما يفعله الكنعانيون المحاربون مقابل جنود مملكة ماري التي كانت آنذاك على عداء مع آشور، فهل هم كنعانيون من قادش أو من سيميرا (صومور) (تل مرديخ)، كانوا مكلفين من قبل آشور بمراقبة تحركات ماري؟ ولا يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك في تساؤلنا، وقد يكون هناك تماثل بين الكنعانيين والأموريين الذين شغلوا هم أيضاً الساحل بين طرطوس وبيبلوس (جبيل)، وكانت عاصمتهم سيميرا، التي كان لها دورها في فترة العمارنة، كما سيرد ذلك في ما بعد.

ج ـ من نقش إيدريمي:

أما إيدريمي[٥] ملك موكيش[٦]، فقد ترك لنا نقشاً يروي فيه قصة عائلته وقصة

---

(١) (Mari) المدينة السورية القديمة القائمة على الفرات مقابل بلدة البوكمال.

(٢) (Iasmah-Addu).

(٣) (Rahiçum) موقع لم يتم تحديده.

(٤) المؤلفان: جاك بْريان وماري جوزيف سوكس (Jacques Briend & M.J. Seux).

(٥) (Idrimi) (١٥٥٠ ـ ١٥٠٠).

(٦) مملكة موكيش (Mukish) وعاصمتها ألالاخ الواقعة على حلقة نهر العاصي إلى الشمال الشرقي من أنطاكية.

هربه بسبب أحداث تآمرية لم يوضحها، ولجوئه إلى مدينة إيمار (وهي حالياً مسكنة على الفرات) في سورية الشمالية، ثمّ تمركزه وأقامته في بلاد كنعان في أمّيا[١]. . . كما يروي قصة عودته واستعادته لملكه. وفي ما يلي نقدم بعض المقتطفات من نقش إيدريمي:

«أنا إيدريمي بن إيليم إيليمّا، خادم الإله تيشوب والإلهة هيبات وعشتار سيّدة ألالاخ وسيدتي.

[. . .] شوؤم حدث في حلب مقرّي العائلي وهربنا.

حكام إيمار كانوا أقرباء والدتي وذهبنا للإقامة في إيمار أنا وأخوتي الذين هم أكبر سناً منّي، سكنوا معي، ولكن لا أحد منهم كان يفكر بالقضايا التي كنت أفكر بها.

كنت أقول لنفسي: الذي له مقر عائلي [. . .]، ولكن الذي [. . .] في نظر سكان إيمار هو عبد.

أخذت حصاني وعربتي وخادمي، وذهبت إلى السوتيين[٢]، قضيت الليل مع خادمي في العربة [. . .] وفي اليوم التالي ذهبت إلى بلد كينعانوم[٣]، وفي بلد كينعانوم تقع مدينة أمّيًا، وفي مدينة أمّيًا كان يوجد مواطنون من حلب ومن موكيش ومواطنون من بلد نيئ[٤] وأشخاص من بلد آمائي[٥]. وعندما علموا أنني ابن سيدهم انضمّوا إليّ [. . .]».

نتابع نص نقش إيدريمي في مناسبة تالية لدى عرض استرجاعه لمملكته. وما يهمنا هنا هو أن أميون المجاورة لمدينة طرابلس الساحلية، هي بلد الكنعانيين أو بلد (كينعانوم)، ولدينا هنا التسمية المعمول بها في العام ١٥٥٠ ق.م.

هـ ـ من مراسلات العمارنة:

تبادلت مصر مع ممالك الساحل الشرقي لحوض المتوسط خلال فترة حكم كل من أمينوفيس الثالث (١٣٨٦ ـ ١٣٤٩) وأمينوفيس الرابع (أخناتون) (١٣٥٠ ـ ١٣٣٤)

---

(١) (Ammia) هي أميون الحالية وتقع على بعد حوالى ١٥كم إلى الجنوب الشرقي من طرابلس لبنان.

(٢) (Sutéens) قبائل كان جبل البشري إلى الشمال من تدمر موقع تجمعهم.

(٣) (Kin'anum) جمع كنعانو ولا ندري إذا كان المقصود هنا هو البلد أم السكان.

(٤) (Ni') مملكة صغيرة على الضفة الشرقية من نهر العاصي.

(٥) (Amaé) مملكة صغيرة مجاورة لنيئ.

عدداً من الرسائل التي عرفت بمراسلات تل العمارنة حيث أقام أخناتون عاصمته الجديدة. ونستدلّ من تلك المراسلات، التي سنعود إليها مراراً في الفصول القادمة، على تسمية الساحل الذي كان تحت النفوذ المصري في تلك الفترة.

بلغ العدد الإجمالي لرسائل تل العمارنة ٣٥٠ رسالة، صُنّفت تحت الأرقام: العمارنة EA (١ ـ ٣٥٠) والعدد الأكبر منها، أي الرسائل (٤٥ ـ ٣٥٠) هي الرسائل التي تم تبادلها مع مختلف أمراء وملوك فلسطين ولبنان وسورية الحالية.

ورد في الرسالة (EA 137) الموجهة من ملك چوبلا (جبيل) إلى أمينوفيس الرابع طالباً منه نجدته وهو يحذره في الوقت نفسه موضحاً: «إذا كان الملك (أي الفرعون) لا يعير اهتمامه بمدينته، فلن تبقى له أي مدينة في (كيناهنو)»[١]، أي في كنعان.

وفي الرسالة (EA 367)، يطلب الفرعون من رجل (حاكم) مدينة أكشاف[٢] أن يكون حذراً وأن يسهر، كما يعلمه بأنه أوفد إليه رئيس اصطبلات الملك في بلد (كيناهو)[٣]، طالباً منه الاستماع إليه وتقديم الطعام والخمر إلى جنود الملك.

و ـ الاستنتاج:

نستفيد من المعلومات المقدّمة أعلاه التي تغطي فترات تتراوح بين ١٨٠٠ ق.م (ماري) و١٥٥٠ (إيدريمي) وحوالى ١٣٥٠ ق.م (العمارنة)، في التعرف على تسميات الساحل الشرقي، التي هي على التوالي:

- كيناهنو (رسالة إلى ملك ماري).
- كنعانوم (إيدريمي في منطقة طرابلس ـ أميون).
- كيناهنو ـ كيناهو رسائل تل العمارنة (EA)[٤] ونضيف:
- كِناخِي تسمية حورية تعني اللون الأرجواني الذي اشتهر به الساحل إلى الجنوب من المملكة الحورية (الميتانية)، أي تتمّة الساحل الشرقي لحوض المتوسط[٥].

---

(١) (Kinahnu).

(٢) (Akshap).

(٣) (Kinahhu).

(٤) (El-Amarna) (EA).

(٥) عن مقال باللغة الإنكليزية للصديق الفنان ناصر سومي وهو قيد النشر تحت عنوان «الكنعانيون» «The Canaanites».



الشاطئ الكنعاني

ويضاف إلى كل ذلك مملكة مدينة أوغاريت، وأوج ازدهارها كان في القرن الرابع عشر ق.م، وهي المدينة التي ابتدعت الأبجدية المسمارية المعروفة، وتقع إلى أقصى الشمال على الساحل الشرقي لحوض المتوسط، يشرف عليها جبل صافون (الجبل الأقرع) مقرّ الإله بعل الأوغاريتي، وبعل إله العواصف والأمطار الذي يرافق بعثة عودة الربيع، هو إله رئيسي كنعاني إلى جانب الإله إيل، أب الآلهة والبشر.

وليس وحدهُ الجبل الأقرع السوري إلى الشمال من اللاذقية، كان يعتبر مقرّاً للإله بعل الأوغاريتي، بل كانت مختلف مرتفعات الساحل تعتبر أماكن لإقامة الإله بعل الكنعاني. وبالإضافة إلى بعل حرمون الذي يشرف عن بعد على شواطئ جبيل وصيدون، يمكن تعداد مرتفعات ساحلية وداخلية ارتبط بها اسم بعل مثال: (بامات ـ بعل) في شرقي الأردن مقابل الطرف الشمالي للبحر الميت. و(بعل ـ معين) في شرقي الأردن، ورد ذكره في نقش ميشا العام ٨٥٠ ق.م و(بعل ـ فاعور) وهو مرتفع في الضفة الشرقية إلى الشمال من بامات بعل، و(بعل ـ جاد) موقع لبناني قرب حاصبيا، و(بعل ـ حاصور) على جبل حاصور (١٠١٦م)، و(بعل ـ شكيم) إلى الشمال من بيت إيل، و(جبل بعلا) وهو مرتفع يشرف على الساحل إلى الجنوب من يافا.

تدعم الأمثلة المقدمة أعلاه عن وجود بعل الكنعاني في مختلف مناطق الساحل وعلى الضفّة الشرقية من الأردن إطلاق تسمية الكنعاني على الشاطئ الشرقي لحوض المتوسط على الرغم من التوضيح بأن كنعان في العرف المصري الفرعوني كان يعني بصورة عامة الساحل الفلسطيني الحالي.

وبالطبع نحن لا ننسى أن القسم الجنوبي من هذا الساحل، يوم استقر عليه الفلسطينيون (الفلست) منذ بداية القرن الثاني عشر ق.م (١٢٠٠) أصبح يعرف حتى اليوم بالساحل الفلسطيني. وهو الساحل الذي استقروا فيه ودافعوا عنه، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن مدينتين فقط على كامل الساحل الكنعاني حاولتا ردّ أو رفض فتح الاسكندر المقدوني، بينما انفتحت أمامه من دون مقاومة جميع مدن الساحل، والمدينتان المقاومتان هما صور، وغزّة.

حين دخلت علاقات تاريخية قديمة جداً للعالم الأبجي، عالَم الأسطورة اليونانية اعترافاً من اليونان بتلك العلاقات، حملت إلينا أخباراً أشارت إلى علاقة تأسيسية لبلاد

اليونان من قبل ممالك سبقتها وهي مصر وليبيا وكيليكيا والساحل المتوسطي لآسيا الصغرى شمالاً، وكذلك الساحل الشرقي لحوض المتوسط، الذي أصبح في تلك الأسطورة يعني موطن أوروبا وقدموس وأخيه فينيق[١] (فونيكس). ونحن نعلم من جهة أخرى أن لقدموس وفينيق، وفق الأسطورة اليونانية، علاقة وثيقة بصيدون حيث قام الإلٰه زيوس باختطاف ابنتها الجميلة أوروبا من على شواطئها، وهي شقيقة البطلين، وحين أبحر قدموس إلى بلاد اليونان لاسترجاع شقيقته أوروبا، يعرف الجميع أنه علّم اليونانيين الأبجدية.

وفي مفهوم الأسطورة اليونانية، فإن ما عُرف في ما بعد بفينيقيا[٢] في الفترة الكلاسيكية (القرن الخامس ق.م)، لم يكن محصوراً بالشاطئ الممتد من أرواد إلى الجنوب من عكا، بل كان يمتد على كامل الشاطئ الشرقي للمتوسط، ويشمل أيضاً الشواطئ الآسيوية وجزر بحر إيجه، ومثل هذا الامتداد الشامل للمفهوم الفينيقي يفسّر كيف أنه منذ الألف الثالث ق.م. كانت هناك حضارة متقدمة ومزدهرة على كامل الشاطئ الشرقي، وكانت جزيرة كريت مشمولة بذلك العالم البحري الذي تابع إشعاعه الحضاري في كامل حوض المتوسط[٣].

أما بالنسبة للساحل الشرقي، فإن الباحث (ريمون ڤيل)، الذي أشرنا إلى كتابه في الحاشية (٣)، يستعرض تسميات الساحل السوري ـ الفلسطيني كلياً أو جزئياً، خلال الألف الثالث لما قبل الميلاد وقبل منتصفه وخلال الألف الثاني عن وثائق مصرية وبابلية كما يلي:

منذ الألف الثالث والألف الثاني عُرفت منطقة سورية الشمالية تحت تسمية (أمورو)، التي تعني المنطقة الغربية (بالنسبة للهلال الخصيب)، ومنها اشتقت تسمية الأموريين الذين انتشروا على كامل الساحل.

أما المنطقة الواقعة إلى الجنوب من (أمورو)، فكانت تعرف خلال الألف الثاني لما قبل الميلاد (بكنعان)، وهذا ما استعرضنا وثائقه آنفاً. وتشمل التسمية وفق المؤرخ (ڤيل) الساحل والداخل، أي الساحل الكنعاني وسورية الداخلية.

---

(١) (Phoenix).

(٢) Phenicie.

(٣) Raymond Weil, «La Phénicie et l'Asie occidentale Editions Armand collin 1939, PP(8-10).

(٤ ـ ٢) الإتنيات التي عرفها الساحل الشرقي والهلال الخصيب:

عديدة هي الإتنيات التي عرفها الهلال الخصيب، ويمكن رسم صورة مختصرة عنها كما يلي:

نحن نعرف تداخل إتنيتين في الجنوب العراقي ووسطه في سومر وآكاد وذلك منذ بدايات بلاد ما بين النهرين، كما أن شمال الهلال الخصيب كان مقرّاً للحوريين، وهم الذين عرفوا في ما بعد بميتانيي الفرات. وقد ثُبت وجودهم في آسيا الصغرى وعلى الساحل السوري الفلسطيني. وهؤلاء الشماليون الشوباريون[1] الحوريون يعتقد اليوم أنّهم شغلوا بلاد الرافدين قبل السومريين خلال الألف الرابع لما قبل الميلاد. أما بالنسبة لنوع آخر من التداخل السكاني، فيمكن ذكر المحاولات لإقامة امبراطوريات عن طريق التوسع. وأولى الامبراطوريات التي عرفها الهلال الخصيب كانت على يد الملك السومري لوچال ـ زاچيزي[2] حين وصلت هذه الامبراطورية إلى المتوسط ولكنها لم تدمْ إلا فترة قصيرة. تلتها امبراطورية سرجون الأكادي، سرجون الكبير (٢٣٣٤ ق.م)، التي دامت ما يقارب ١٨٠ سنة.

بعد ذلك، نعرف أن قبائل أمورية نزلت من المناطق الجبلية في الشمال خلال ٢١٠٠ ق.م لتشغل المنطقة الوسطى البابلية. وبعد ذلك أمكن الحديث عن بابل وعن تأسيس امبراطورية بابلية أشهر ملوكها حمورابي. والأموريون الذين تشتق تسميتهم أكادياً من (أمورو) بمعنى غرب، انتشروا بالحقيقة في جميع الاتجاهات، في الجنوب في ما بين النهرين، كما في الوسط البابلي، وكذلك على ساحل سورية الشمالية. وقد عرفت مملكة ماري علاقات مع قبائل أخرى عُرفت ببني ـ شمأل (الشمال)، وبني ـ يمين (اليمين)، وزالت مملكة ماري كما نعلم على يد حمورابي.

ثم بعد ثلاثة قرون حوالى ١٨٠٠ اجتاح الحثيون بلاد بابل ووضعوا حدّاً لحكم سلالة بابل الأولى. وبسبب انحسار اللغة السومرية وانحصارها في أداء الطقوس الدينية عرفت اللغة الأكادية انتشارها وساعدت على تفاعل اتنيات الهلال الخصيب وامتزاجها.

أما آشوريو دجلة الأعلى، فيمكن القول إنهم امتزجوا منذ فترة قديمة بالسكان

---

(١) (Subaréens) نسبة إلى شوبارتو بمعنى الشمال.

(٢) (Lugal-Zaguesi) (٢٣٤٠ ـ ٢٣١٦) ق.م

الأصليين الذين هم الحوريون (الميتانيون)، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. وفي بداية الألف الثاني ظهرت قبائل (الكاشو) الكوشيين[١] الذي يعتقد أنهم نزلوا من جبال زغروس واحتلوا الوادي، ثم أسسوا حوالى ١٧٥٠ ق.م الأسرة البابلية الثالثة بعد أن كانت بابل، كما أوضحنا أعلاه، قد تمّ اجتياحها من قبل الحثيّين. يعتقد اليوم أن الكوشيين هم هندو ـ أوروبيون، شكّلوا باختلاطهم مع السكان الأصليين ما عرف بالأسيويانيين[٢] ومن بينهم العائلة الحثية. كما أن هجرات أخرى مكمّلة شغلت في الوقت نفسه الفرات الأوسط والغرب من سورية الوسطى، توجهت نحو جنوب الساحل ووصلت إلى فلسطين، حيث نجد حوالى ١٥٠٠ ق.م خليطاً من الحوريين والأموريين والهندو ـ أوروبيين.

تلك هي صورة تفاعل الإتنيات المختلفة التي عرفها الهلال الخصيب والساحل الكنعاني، وإلى كل ذلك يجب إضافة الأثر المصري الذي ارتاد الساحل الكنعاني وخصوصاً مملكة جبيل (چوبلا)، وذلك منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وكذلك الحملات العسكرية التي كانت تنظّم ضد الآسيويين خارج مضيق السويس. كما أن المصريين ثبّتوا وجودهم في شبه جزيرة سيناء بسبب مناجم النحاس واللازورد وذلك في وادي المغارة الذي استُثمر من قبل الفراعنة خلال ألف سنة. وسوف نعود إلى عرض علاقة مصر مع الساحل الكنعاني في فصل مستقل (الفصل الخامس).

الهجرات التي قمنا باستعراضها كانت بصورة عامة عبارة عن هجرات داخلية ضمن منطقة الهلال الخصيب، أو على أطرافه الجبلية، وهي هجرات داخلية أو قريبة عرفنا من بينها اتنيات هندو ـ أوروبية (حورية وكاشية). كما كان هناك أثر مصري على الساحل الكنعاني يقابله بالتوازي أثر حثي، من الشمال، لم يؤدّ طبعاً إلى ما يمكن تسميته بالهجرات.

أما في ما يتعلق بهجرات هندو ـ أوروبية أمّت الساحل الكنعاني من شماله إلى جنوبه فيمكننا ذكر إتنيات مختلفة أتت من أقصى الشمال، أي شمال البحر الأسود وبحر قزوين وفق موجات متوازية، وذلك انطلاقاً من مجال جغرافي، يقع بين خطيّ طول الهند وشبه الجزيرة البلقانية. توزعت تلك الموجات كما يُعتقد، اعتباراً من طرفها الغربي حيث البحر الأسود وفق تفرّعات عدة. ومثل هذه الهجرات دامت قروناً،

---

(١) (Kassites, Kasséens).

(٢) (Asianiques).

وعَرفتْ وصول السيلتيين إلى فرنسا، والإيطاليين إلى إيطاليا، والهِللّين إلى اليونان، ويمكن اعتبار وصول الأكيين إلى الجزر اليونانية حوالى ١٤٠٠ ق.م.

أدّى اختلاط هندو ـ أوروبيي آسيا الصغرى والسكان الأصليين إلى تكوّن ما عرف بالحثيين، وتمّ ذلك بين ١٩٥٠ و١٩٠٠ ق.م. وكما أسلفنا فإن الكاشيين نزلوا إلى سهول بلاد الرافدين وبعد فترة تأقلمهم احتلوا بابل العام ١٧٥٠ وأصبحوا بابليين وتابعوا حضارة بابل. أما الذين أتوا إلى المنطقة الوسطى من الفرات وشغلوا حلقة النهر الكبرى، حيث عرف هذا المجال الفراتي في النصوص المصرية تحت تسمية نهارين (أي بلاد الأنهار) فهم الميتانيون/الحوريون. ويمثل العنصر الميتاني، الفئة الأرستقراطية التي سيطرت على المنطقة وتقارب مع الهندو ـ أوروبيين الحثيين بالنسبة للغة والمعتقدات.

وفقاً لهذه الحركة نفسها وفي بدايتها، يمكن تحديد وصول الهندو ـ أوروبيين إلى سورية ـ فلسطين، وتعلمنا الوثائق المصرية للقرن الرابع عشر، أنهم وصلوا نحو الجنوب واستقروا فيه.

تكررت تلك الهجرات ودامت قروناً عدة، مجتاحة الشاطئ الكنعاني من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه، وشكّلت بالتالي ضغطاً سكانياً، هو الذي حدا بكنعانيي الجنوب من حضرٍ وبدو، إلى دخول مصر بأعداد كبيرة وتأسيس مملكة في منطقة الدلتا دامت ثلاثة قرون (١٨٠٠ ـ ١٥٠٠) ق.م، وهم الذين عرفوا بالهكسوس، وحكموا خلال متابعة الأسر (XVI - XIII) حكمها في مصر العليا، حتى بدء حكم أموزيس حوالى العام ١٥٨٠ مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الذي تخلص من وجود الهكسوس في مصر وأعاد نفوذها على فلسطين، وسوف نعود إلى تفاصيل ذلك في الفصل الخامس.

تابع تحتمس الأول الاحتلال العام ١٥٢٥ ق.م، ووصل إلى الفرات من دون أن يستقر. إلا أن تحتمس الثالث (١٥٠١ ـ ١٤٤٧) نظم الامبراطورية المصرية في آسيا شاملة كامل فلسطين ولبنان وسورية حتى حدود الميتاني على الفرات، وحدود الامبراطورية الحثية في الشمال. وسوف نرى في ما بعد، خلال حكم كل من أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع (أخناتون) في مصر، كيف حاولت ممالك الساحل الكنعاني التخلّص من نفوذ مصر والتمرّد على سلطتها. وسوف يرد ذلك بشكل خاص في الفصل السابع من هذا الكتاب، وذلك عبر مراسلات العمارنة التي ترسم صورة واضحة عن ممالك الساحل الكنعاني في القرن الرابع عشر ق.م.

الفصل الخامس

(٥) مصر والساحل الكنعاني

(٥ ـ ١) المراحل الأولى

(٥ ـ ٢) حكم الهكسوس في مصر

(٥ ـ ٣) ما بعد أخناتون

(٥) مصر والساحل الكنعاني

(٥ ـ ١) المراحل الأولى:

دَرَج ملوك بلاد ما بين النهرين على ممارسة رياضة محبّبة إلى قلوبهم، تُعْتبر إثباتاً لشجاعتهم ولرجولتهم وهي الذهاب إلى صيد الحيوانات المفترسة، وكانوا طبعاً محاطين بحاشية حماية.

أما فراعنة مصر الأُول، خلال حكم الأسر الأولى، فإنهم مارسوا رياضةً غريبة يمكن القول إنها لا تليق بالملوك وهي ما سمّي بحملات «السطو الملكية»، إذْ كان الفرعون أو الأمير الملكي، ترافقه فرقة مجنّدة لهذه الغاية، يجوب سهوب أو صحراء ليبيا أو سيناء أو ساحل الجنوب الفلسطيني للسطو من دون التعرض لأي مقاومة تُذكر والعودة بغنائم كثيرة.

وفي مرات أخرى كانت تتم الحملات عن طريق البحر من دون معرفة نقاط الهجوم على الساحل الفلسطيني، لتعود بغنائم عبيد ودواب ومواد شبه ثمينة.

وبالطبع، لم تقتصر العلاقة مع مصر على حملات السطو، بل كانت هناك مبادلات تجارية عن طريق البحر مع المرافىء الكنعانية ذات الحضارة المتقدمة. أما المواد المرغوبة منذ ذلك الوقت، فكانت الأخشاب القاسية التي تفتقر إليها مصر، وكذلك خشب التيريبانت ذا الألياف الملتوية والمقاومة التي تصلح لبناء السفن، وأخشاب

الصواري، ويمكن القول إن أخشاب لبنان بقيت ذات شهرة حتى القرن العاشر قبل الميلاد.

ومن الأحداث التجارية التي سجلتها الوثائق المصرية، يمكن ذكر صفقة تجارية استحقت اهتمام المؤرخين، تمّت خلال حكم الفرعون سينفرو، أوّل ملوك الأسرة الرابعة (حوالى ٢٧٠٠ ق.م)، والتي تشير إلى وصول أربعين سفينة محملة بأخشاب الصنوبر إلى مصر، واعتُبر ذلك حادثاً فريداً استوجب التسجيل.

من المفيد التذكير أنّ توجُّهَ المصريين نحو الشمال الشرقي بدأ لسببين رئيسيين: الأول كان لملاحقة البدو الذين كانوا يتوغّلون في مناطق شرقي الدلتا وفي سيناء ليس للرعاية فقط، بل للغزو والسطو ومهاجمة القوافل التجارية أو الاستيلاء على مؤن ووسائل النقل المخصصة لأعمال مناجم سيناء لاستخراج النحاس وأحجار اللازورد. فمناجم النحاس كانت إذن السبب الثاني، إذ إن مصر استثمرت تلك المناجم في وادي المغارة خلال أكثر من ألف عام، تاركةً على الصخور الحمراء نقوشاً تذكّر بتلك المهمّات مع بيان اسم الفرعون الحاكم والإلٰه المشرف على الأعمال.

(٥ ـ ٢) حكم الهكسوس في مصر وقصة تاسيس جيش مصري نظامي:

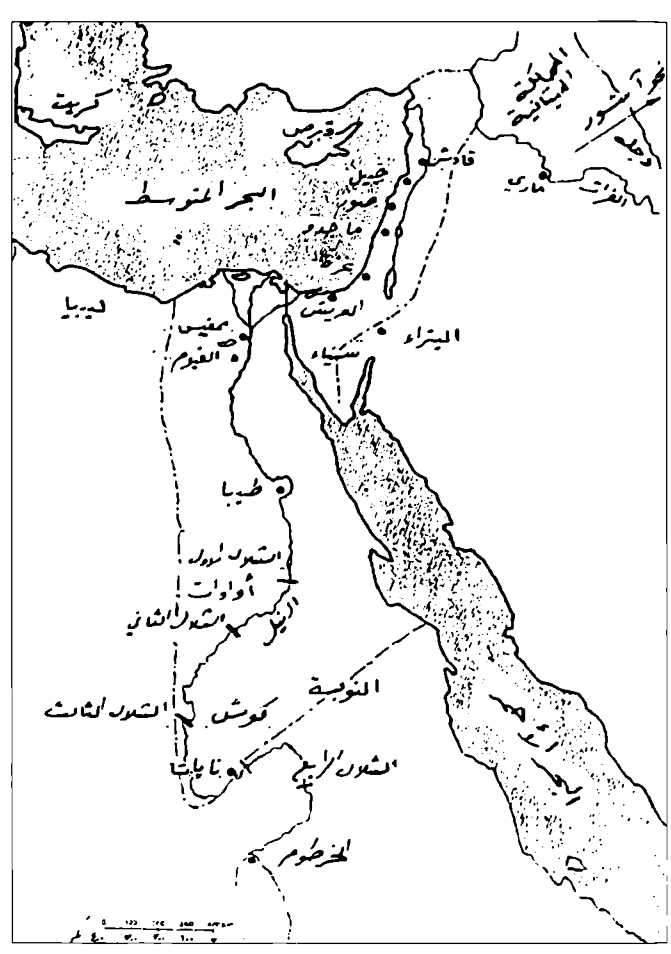
اعتباراً من العام ١٧٨٦ ق.م عرفت مصر مرحلة وسيطة ثانية دامت حتى العام ١٥٥٢، حكمت مصر خلالها الأسر (١٣ ـ ١٦)، ومن بينها الأسرتان ١٥ و١٦ لحكم الملوك الأجانب عن مصر في الشمال، وهم الذين عرفوا بالملوك الرعاة (الهكسوس)، كما عرف الجنوب حكم الأسرة ١٧ في طيبا.

وحول الهكسوس، وصَلَنا عن المؤلّف المصري مانيتون[١] الذي عاش في القرن الثالث ق.م في منطقة الدلتا، شذرات غير مباشرة عما كتبه. وحول هذا الموضوع يمكن إيراد الجملة التالية:

«أنا أجهل لأيّ سبب، تلقّينا ضربة إلٰهية؟»

---

(١) (Manethon).



مصر والساحل الكنعاني

ويعني بذلك الأسرتين (١٥ و١٦) اللتين حكمتا مصر الشمالية والوسطى منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن السادس عشر حوالى (١٧٥٠ ـ ١٥٥٢) ق.م. كما أن تسمية المحتلين بالملوك الرعاة تمّت نسبتها إلى مانيتون وفق تفسير خاطئ من قبله، وهو يعني في الحقيقة في اللغة المصرية «أمراء البلاد الأجنبية» وقد بدأ الاحتلال بتسلّلٍ بدوي إلى منطقة الدلتا، كما كان يحدث ذلك كلما ضعف الحكم المركزي في مصر وضعفت معه حماية الحدود الشرقية للبلاد. وفي هذه المرة، فقد ترافق ضعف حماية الحدود مع ضغط الهجرات الجديدة إلى الساحل الكنعاني وإلى فلسطين، وفي ذلك إجابة على تساؤل مانيتون عن الأسباب التي جعلت مصر تتلقى تلك «الضربة الإلٰهية»، وقد أشرنا إلى تلك الهجرة في نهاية الفقرة (٤ ـ ٢) من الفصل السابق.

جعل الهكسوس من أفاريس[١] عاصمةً لهم إبان حكمهم الجزئي في مصر، بينما قامت بالتزامن معهم الأسرة السابعة عشرة التي حكمت في الجنوب بدءاً من مدينة طيبا.

وقد نتج عن هذا الاحتلال تفاعل إيجابي بين الشعبين، مع تبنّي الملوك الهكسوس أسماء فرعونية وتبنّي كهنة مصر آلهة كنعانية مثال عناة وبعل وعشتروت، أما الإلٰه سيت المصري فقد اعتبره الهكسوس مماثلاً للإلٰه بعل أو بعل نفسه عندما يستسلم للموت أمام الإلٰه موت إلٰه الجفاف وينزل إلى بطن الأرض ليبعث من جديد في خضرة الربيع واستفاقة الطبيعة[٢].

وما أن استفاق المصريون من كبوتهم تلك حتى بدأت المقاومة تظهر وتتنظّم لطرد المحتل، إلى أن نجحت في النهاية بعد فترة من الأخذ والرد على يد الفرعون أحموزيس[٣] الذي انتصر على الآسيويين الهكسوس وعلى حليفهم في النوبة.

يعود أول نصب تذكاري مصري في وادي المغارة، إلى فترة حكم آخر ملوك الأسرة الأولى (حوالى ٣٠٠٠ ق.م)، كما يعود نصب ثانٍ إلى فترة حكم الملك الشهير زوسر (حوالى ٢٧٠٠ ـ ٢٦٠٠) ق.م. يلي ذلك فترة حكم الأسرة الرابعة التي تركت

---

(١) (Avaris).

(٢) من المغالطات التاريخية المخيفة، هي احتواء شبكة «الانترنت» المعلوماتية أخطاء جسيمة في ما تنشره، ما يقتضي دوماً التشكيك في صحة المعلومات المقدمة، والمثال على ذلك، هو اعتبار أن الهكسوس كانوا من الأتروسكيين الإيطاليين الذين لم يظهروا تاريخياً إلا بعد ألف عام.

(٣) إحمس (Ahmosis).

في المغارة نقوش سنيفرو وخوفو. ولم تشذّ الأسرة الخامسة (قبل ٢٤٠٠) عن ذلك التقليد، وكذلك الأسرة السادسة حوالى ٢٣٠٠ إذْ تركت أنصاباً تذكارية عدة من قبل كل من بيبي الأول ثم بيبي الثاني الذي كان آخر فراعنة الدولة القديمة.

وبعد مرور ما عرف بالمرحلة الوسيطة الأولى التي عرفت أول ثورة اجتماعية، عادت النشاطات في سيناء خلال حكم الدولة الوسطى اعتباراً من (٢٠٠٠ ق.م).

نلاحظ مما سبق عرضه أن سياسة مصر لم تكن توسّعية في بدايتها، بل عمدت إلى حماية طرق القوافل ومنتجات مناجم سيناء، وكذلك صدّ البدو الذين يرتادون الدلتا من وقت إلى آخر. ويجمع المؤرخون لمصر الفرعونية على أنها لم تلجأ إلى تأسيس جيش نظامي دائم، إلا في فترة يمكن اعتبارها متأخرة، بالنسبة لتاريخ مصر الموغل في القدم.

إذ إنه خلال حكم الأسرتين الأولى والثانية، لم يتعدَّ ما يمكن تسميته بجيش الفرعون، مهمّة حراسة القصر ودور فرقة صدّ التسلل البدوي وطرده سعياً وراء موارد مائية وكَلَئية شحّت في المناطق الشرقية من حدود مصر. أما فرقة السطو التي أشرنا إليها آنفاً فلا يمكن تسميتها بالجيش مع أنها في خدمة الدولة وكانت تمارس السطو وراء الحدود الليبية وفي النوبة وعلى الساحل الفلسطيني بغية الحصول على مواد نادرة تزيينية تحتاج إليها في الطقوس الدينية، ولا ننسى طبعاً نشر «رَهْبة الفرعون» في البلاد الأجنبية. لذلك خلال كامل فترة حكم الدولة القديمة، حافظت فرق «جيش» تلك المرحلة على طابع متأخر، مع أنها تميّزت بتنظيم لا بأس به ونظامية سمحت لها بإدارة فرق العمّال التي كانت مكلّفة بقطع الأحجار في المقالع ومعالجتها ونقلها من أجل إقامة الأبنية والمنشآت الضخمة التي عرفتها مصر. وكان هؤلاء الجنود نظاميين لدرجة أن نصاً قديماً وصفهم كما يلي: «لا يقوم أحد بينهم بضرب رفيق له، أو الاستيلاء على خبز أو صنادل المارّة، أو كان يسرق ألبسة، في أية قرية أو عنزة في أي مكان».

أما ما استجدّ من أحداث خلال «الثورة الاجتماعية» التي سميت بالفترة الوسيطة الأولى (٢٢٨٠ ـ ٢٠٦٠ق.م)، فيسمح بالحديث عن استقلال رؤساء المناطق من السلطة المركزية وتحررهم ولجوئهم إلى تأسيس فرق جنود حماية لحسابهم هم.

وعلى هذا الأساس، فإنهم عمدوا إلى تدريب شبّان المنطقة على استعمال

السلاح، ولم يولّد ذلك أي اصطدام بين المناطق المختلفة التي سارت في ذلك الاتجاه. وبعد انتهاء الفترة الوسيطة وبداية حكم الدولة المتوسطة على كامل مصر، كان الجيش الفرعوني الذي أسسته الدولة عبارة عن تجميع فرق المناطق المتعددة في جيش موحد. وخلال تلك الفترة فقط، يمكن الحديث عن جيش نظامي مُمْتهِن. وخلال تلك الفترة أيضاً كانت الفرق تلك بإمرة كبار الضباط في المناطق، وبإمرة المندوبين الملكيين في البلاد الأجنبية.

بدأت سياسة مصر تتبدل اعتباراً من حكم الأسرة الثانية عشرة. ومن أهم فراعنة تلك الفترة سيستوريس الأول (١٩٧١ ـ ١٩٢٨ق.م) الذي ساهم في الحكم بالاشتراك مع والده خلال عشر سنوات، وكانت مهمته عسكرية بالدرجة الأولى، تقضي بتطويع البلاد الأجنبية. وخلال حملة منصّرة على ليبيا وصله خبر اغتيال والده الفرعون الحاكم، فعاد لتوّه سراً إلى مصر[١] متحاشياً بذلك حرباً أهلية واستلم الحكم متبنّياً سياسة توسّع لم تعرفها مصر قبله. إذْ تعدّت الجيوش المصرية الشلال الثاني، وأسس مركز تمثيلٍ تجاري فيما هو أبعد من الشلال الثالث، وهكذا فإنّ ذَهَبَ السودان ومواده الأولية أغنت العاصمة الفرعونية.

أما في آسيا، فقد تبنى سياسة نشطة، وسّعت من نفوذ مصر في المنطقة، كما أن استثمار المناجم في سيناء والمقالع بلغ أوجه. فانتشرت في وادي النيل المنشآت التي تشيد بمجد الآلهة، كما احتفلت النقوش بعظمة الفرعون ومناقبه، ووصفه نقش بأنه «بطل مقدام يعتمد على بأس ذراعه، إنه رجل فاعل لا مثيل له».

تنتهي الدولة الوسطى بحكم سيستوريس الثالث (١٨٧٨ ـ ١٨٤٣ق.م) وهو الذي بلغت مصر في زمنه أوج مجدها، إذ قاد هذا الفرعون شخصياً أوسع حملة عسكرية نعرفها إلى الشمال من مصر، حيث احتل مدينة شكيم[٢]، ما ضاعف نفوذ مصر على الساحل الكنعاني. كما دعّم احتلال النوبة المنخفضة وضمّها إلى المملكة المصرية، وجعل من سيمينة[٣]، الواقعة إلى الجنوب من الشلاّل الثاني، حدودَ المملكة، وبنى بين ذلك الموقع وإليفانتين، مجموعة من القلاع لحماية طرق المواصلات.

---

(١) هذه الحادثة هي التي أوحت بكتابة قصة سنوهي وهربه من حدود ليبيا إلى فلسطين ولبنان.

(٢) انظر الفقرة (٨ ـ ٣).

(٣) (Semeneh).

وقبل حملاته التوسعية تلك قام بإلغاء سلطة النبلاء في المناطق بشكل نهائي وجعلها خاضعة لحكمه المركزي، وزاد كل ذلك من قوة مصر واستقرارها واتساع نفوذها الخارجي، ويفسّر كل ذلك أيضاً دخوله عالم الأسطورة. وهو الذي أسس الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٢ ـ ١٣٠٦ق.م)، التي ظهرت معها بداية الدولة الجديدة. وأصبحت مصر آنذاك قوة منظمة، تحكم مستعمرات في النوبة، وتفرض حمايتها على جزء من الساحل الكنعاني.

هنا يمكن القول إن مصر تبنّت سياسة جديدة بدأتها الأسرة الثامنة عشرة خلال حكم فراعنتها تحت أسماء تحتمس وأمينوفيس، وهي السيطرة على المجال الدولي بواسطة الحرب، بالإضافة إلى الدبلوماسية. وعلى هذا الأساس، استرجع تحتمس الأول سيطرته حتى الشلال الرابع، وفي الشمال وصل إلى الحدود السورية العراقية. وللحفاظ على كل ذلك، عمدت مصر إلى تقوية الجيش النظامي. وقد تميزت تلك الفترة بالثراء والتنعّم ولكنّها عرفت مع ديانة أمينوفيس الرابع (أخناتون) الإهمال الدنيوي الذي نتج عن الاهتمام بنشر الدين الجديد في العمارنة عاصمته الجديدة، ما أدى إلى تعميم الفوضى ومحاولات التحرر على الساحل الكنعاني. وسوف تتضح لنا هذه الصورة من خلال الفصل السابع.

(٥ ـ ٣) ما بعد أخناتون:

بعد فترة حكم العمارنة والفراغ الذي تلاها حتى استعادة ديانة آمون بدأ في مصر حكم السلالة التاسعة عشرة (١٣٠٦ ـ ١١٨٦ق.م.) واشتهر من بين فراعنتها سيتي الأول (١٣٠٤ ـ ١٢٩٠ق.م.) وهو ابن رعمسيس الأول، الجنرال الذي أزال بقايا الحكم الديني الذي أطلقه أخناتون، وكان متقدماً في السن عندما صار ملكاً من (١٣٠٦ ـ ١٣٠٤ق.م.)، فتنازل عن الملك لمصلحة ابنه سيتي الأول.

أشرك سيتي الأول معه في حكمه ابنه رعمسيس الثاني، وأعاد سلطة مصر على فلسطين وبقية الساحل الكنعاني، كما قاوم بنجاح تقدّم الحثيين وعقد معهم معاهدة صلح، كما أقام نصباً تذكارياً يمثل انتصاراته على البدو والليبيين والأموريين في قادش وعلى الحثيين.

أما رعمسيس الثاني وهو أشهر الرعامسة، فقد حكم مدة ٦٧ سنة (١٢٩٠ ـ

١٢٢٤ق.م.)، وعرف ست زوجات رئيسيات، وخلّف أكثر من مائة ابن ملكي. وهو الذي اشترك في معركة قادش مع الحثيين، ومع أنها لم تكن نصراً بالنسبة للجهتين المصرية والحثية، لكنها حافظت على نوع من التوازن بالإبقاء على وضع ما قبل المعركة الذي دام ستة عشر عاماً.

خلف رعمسيس الثاني ابنه مينفتاح (١٢٢٤ ـ ١٢١٤ق.م.)، وهو الذي طرد القبائل الليبية من الدلتا بعد معركة عنيفة ساعد الليبيين فيها أمراء متوسطيون. ومينفتاح هو الذي ترك لنا عام ١٢٢٠ق.م. نصباً تذكارياً، يشير إلى هذا النصر، ويذكّر بإخضاع الساحل الفلسطيني، ويذْكر أن «إسرائيل» أُبيدَ نسله، وسوف نعود في ما بعد إلى مناقشة هذه الصيغة [انظر الفقرة (٧ ـ ٤)].

تولى الحكم بعد ذلك رعمسيس الثالث (١١٨٤ ـ ١١٥٣ق.م.)، من الأسرة العشرين وهو أيضاً، كما رعمسيس الثاني، حارب هنا وهناك لحماية نفوذ مصر الخارجي الذي بدأ يضعف ويتهدّده الخطر.

وتمكّن خلال حكمه من إنقاذ مصر من هجومين: هجوم ليبي، وكذلك غزو «شعوب البحر» الذين خرجوا من المناطق الإيجية ودمّروا عدداً كبيراً من الممالك الساحلية ومن بينها أوغاريت.

قضى رعمسيس الثالث اغتيالاً نتيجة مؤامرة حريمية في قصره.

أما بقية الرعامسة من الأسرة العشرين وحتى رعمسيس الحادي عشر (١١٥٣ ـ ١٠٧٠ق.م.)، فإنهم لم يحققوا أعمالاً ذات أهمية وخصوصاً خارج الحدود المصرية، إذْ ضعفت مصر خلال حكمهم وعرفت إدارتها الفضائح والصراعات الداخلية، حيث تمّ وضع يد الجيش على ممتلكات الإله آمون، وعمّت الفوضى، ونُبشت كنوز المدافن الملكية الطيبية، ونتج عن ذلك تخلّي الرعامسة عن الحكم، لمصلحة من عُرِفوا بالملوك الكهنة، وبذلك دخلت مصر فترة وسيطة ثالثة (١٠٧٠ ـ ٧١١ق.م.) عرفت خلالها الأسرة الحادية والعشرين في تانيس في الشمال والملوك الكهنة في الجنوب، تلتها الأسر (٢٢ ـ ٢٤) المعروفة بالفترة الليبية.

كفّت مصر إذن عن تأدية دورها الدولي كما في السابق، واختفت الامبراطورية الحثية، وصعد نجم آشور وبابل، وسوف يتضح ذلك في الفصول القادمة.



مسارات غزوات شعوب البحر

الفصل السادس

(٦) اللعنات المصرية وبنيات الشاطئ الكنعاني

(٦ ـ ١) قصة الاكتشاف

(٦ ـ ٢) محتوى نصوص اللعنات

(٦) اللعنات المصرية وبنيات الساحل الكنعاني

(٦ ـ ١) قصة الاكتشاف:

اعتاد المصريون بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م، كتابة أسماء من يعتبرونهم أعداءً لهم أو معارضين لمصالحهم، على آنيةٍ فخارية أو تماثيل صغيرة، ثمّ تحطيمها في نوع من الطقس السحري ودفن الكِسَر الناتجة، وذلك لإدخال الرهبة إلى قلوب الأعداء وإبعاد شرورهم. أما الأعداء الذين شملتهم اللعنات، فهم جماعة النوبة وليبيا وآسيا، أي كنعان وسورية. ولم تنسَ اللعنات المصريين المعارضين أنفسهم، بالإضافة إلى استعمال هذا النوع من السحر لإبعاد الأشياء السيئة بالنسبة للمعتقدات المصرية.

وما يهمنا هنا، هو التعرف على ملوك وأمراء الشاطئ الكنعاني في تلك الفترة من القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد.

أما قصة الاكتشاف فيمكن تلخيصها كما يلي:

العام ١٩٢٥، اشترى متحف برلين من أحد التّجار في الأقصر مجموعة كبيرة من الكسر الفخارية التي تمّ كشفها قرب طيبا التي كانت تحمل كتابة هيراطيقية مبسّطة[١]. ولدى إعادة تشكيل الأواني التي نتجت عنها الكسر، أمكن قراءة ما كتب عليها، وتم نشر النص الذي تحمله الأواني العام ١٩٢٦.

(١) (hieratique) هي الكتابة المقدسة الناتجة عن تبسيط الرموز الهيروغليفية.

ثمّ كشفت بعد ذلك الحفريات في صقّارة، تماثيل صغيرة من الفخار، تمّ تدبيجها بشكل بدائي، تمثل سجناء أياديهم مكبّلة إلى ظهورهم، تحمل كتابة هيراطيقية، وعددها ٢٤ تمثالاً، موزعة اليوم بين متحفي بروكسل والقاهرة.

عرف العام ١٩٦٣ اكتشاف ٣٦٠٠ كسرة فخارية في موقع مرج عيسى، تمثل ١٧٥ إناءً من الفخار بدائية الصنع، حملت، كما في كسر متحف برلين، النص المتعلق باللعنات. وفي الموقع نفسه تمّ اكتشاف ثلاثة تماثيل مشابهة تماماً للتماثيل المكتشفة في صقارة.

نكتفي هنا باستعراض نصوص اللعنات المتعلقة بالشاطئ الكنعاني، وكما أوضحنا آنفاً، فإن اللعنة، كان من شأنها: «نقل الخوف إلى قلوب البشر المعنيين»، بالإضافة إلى «وضع أراضي وغرباء جميع البلاد الأجنبية تحت قدميّ الملك»، وهكذا كان يكبّل بالسحر أعداء مصر المحتملون.

النص على الأواني المحفوظة في متحف برلين هو أقدم من النصّ المكتوب على التماثيل. كما أن النص المكتشف على أواني مرج عيسى، لا يمثل فروقاً كبيرة مع نص متحف برلين الذي لم يكن قد نشر العام ١٩٧٧، وهو تاريخ المصدر الذي بين أيدينا. أما التواريخ القصوى التي أمكن تحديدها، بالنسبة للنصوص، فقد اعتُبر أنها تقع بين ١٩٠٠ و١٨٠٠ ـ ١٧٥٠ ق.م.

(٦ ـ ٢) محتوى نصوص اللعنات:

نقدّم في ما يلي محتوى القسم الآسيوي من نصوص متحف برلين:

المدينة أو المنطقة	عدد المشمولين	الأمير أو الأمراء المشمولون
ياعاناق	٣	أبي ـ يمينو؛ إيروم؛ أكيروم
شوتو	٣	أيابوم؛ كوشار؛ زابولانو
ياموعارو	١	هالو ـ بليه
قَهرمو	٣	حمّو ـ ياتار؛ حماسانو؛ حمّو ـ ياكين
راحاب	٢	أباروحق ـ يامانومو
آمانو	٣	أنوتان ياكوشار، أوصوسينو، مارولامو
أنهار	٤	ملكي إيليم، كومي ـ رام، راقاهوم، يافانو

المدينة أو المنطقة	عدد المشمولين	الأمير أو الأمراء المشمولون
راقا ها	٢	باقيرسامو، شمشو إيلوما
أرقاتوم(*) (شمال شرقي طرابلس)	١	إيلومي قوتي
عسقلانو(*)	٢	هالوياكيم، هيكيانو
موتير	١	مانسوم
أوروسالم(*)	٢	باقيرهامو، سازانو
أرهنو	١	يامو ـ إيلو
ياسانا	ـ	جميع الأمراء
جوبلا (جبيل) (+)، أولآزا (+)		جميع العامو (أي الشعب)
ياعاناق، شوتو		
يامورو، قهلامو		
راحاب، يرموتا (+)		
أنهار، رقاها		
أرقاتا (تل عرقا)(*) يرموت (+)		
أسانو، عسقلانو(*)		
ديميتيو، موتير		
أوروسالم(*)، أهموت		
أرَهنو، ياسافا		

(+) مدن لبنانية أو سورية

(*) مدن فلسطينية استمر وجودها في القرن الرابع عشر ق.م (فترة العمارنة)

أما القسم الآسيوي من اللعنات المحفوظة في متحف بروكسل فهي كما يلي:

المدينة أو المنطقة	عدد المشمولين	الأمير أو الأمراء المشمولون
حوريم	١	آتامارابي
عسقلانو(*)	١	موري
آشانو	١	نقمعفا
حارام	١	ياتين هدَو
مجدل (+)	١	أبي ـ رافي
شكيم(*)	١	أبيش ـ هدَو
قانا (+)	١	آساف ـ هدَو
پيلاَ	١	أفرو آنو

المدينة أو المنطقة	عدد المشمولين	الأمير أو الأمراء المشمولون
آفق	١	يانكا إيلو
أكشاف(*)	١	يافير آنو
أسافا	١	أفرو آسافو
ميشال	١	يارولو
راحاب	١	يكميش ـ عامّو
حاصور(*)	١	جيتي
[. . . .]	١	زابيلو ـ هدّو
طافوم	١	حورون ـ آبوم
أيّون	١	كيشا هارابي
سيريم	١	يانشوم ـ هدّو
ياقاتوم	١	سَمرَهار
آري	١	لويلا ـ هدّو
شَزماري	١	عاموتيلو
مارا شاكي الجنوب	ـ	[. . .]
مارا شاكي الشمال	١	راتّا
عشتروت (+)	ـ	[. . . .]
بوصرانو (+)	١	يامورو
[. . .]	١	أفارانيا
ماشا	١	ساقرا
شيريانو	١	[. . .]
روبيا	١	[. . .]
قانيا	١	[. . .]
آفوم الجنوب	ـ	[. . .]
آفوم الشمال	١	أحو كاكابو
صور (+)	١	[. . .]
ياعاناق	ـ	[. . .]
ماجدّو(*)	ـ	[. . .]
[. . . ريانو]	ـ	[. . .]
قهرَمو الشمال	١	ياساركونا

المدينة أو المنطقة	عدد المشمولين	الأمير أو الأمراء المشمولون
قهرَمو الجنوب	١	هامْيا
سورودنو	١	هامَو ــ لوبو
أوفرا	١	عامَو [. . .]
يبريا	١	شمشو آفيليم
راياتا	١	[. . .]
أورسالم(*)	١	[. . .]
[. . .]	١	[. . .] هنّو
أبولام	١	[. . .]
أسنوس	١	تاهيرّاس
عكّو(*) (عكا)	١	تار ــ عمّو
كوشو	١	رئيس القبائل
كوشو	١	رئيس القبائل
شوتو الأعلى	١	شومو آبو
شوتو المنخفض	١	[. . .]
أرقاتوم (+)	١	[. . .]
شوموآنو	١	أبوراهنا
قرقار (+)	١	[. . .]
شوسو	١	يكميس ــ عامَو
عقرون(*)	١	يارفيلو
لبيش (لخيش) (؟)(*)	١	حورون ــ آبو
بوتيشو	١	يطفارو
أرقاتا(*)	ــ	قبائل أرقاتا
ماجدّو(*)	ــ	الرؤساء
جبيل (جوبلا) (+)	ــ	قبائل جوبلا
باعاناق	ــ	جميع الأمراء
باعاناق	ــ	جميع المضروبين الذي هم معهم
أولآزا (+)، ريمتا، رقاها، ديميتو، حاسوم، ألميتو في آسيا	ــ	جميع العامو

ملاحظات عامة:

١ ـ تابعت في الجدول أعلاه وضع إشارة (*) مقابل المدن والمواقع الفلسطينية المعروفة وإشارة (+) مقابل المدن والمواقع اللبنانية السورية.

٢ ـ تشير اللعنات المصرية بطريقة غير مباشرة إلى عمران فلسطين المتقدم والنامي في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م، وتعلمنا بمثل هذا العدد الكبير من الممالك[١] والإمارات والمدن وحتى القبائل على الساحل الكنعاني وأسماء المسؤولين المشمولين باللعنات.

٣ ـ يتضح من معظم أسماء الأمراء المشمولين باللعنات أنهم كانوا من الكنعانيين والأموريين والحوريين/الميتانيين الهندو ـ أوروبيين.

كما تتضح من الأسماء الإلهية التركيب المعتقدات التي كان يمارسها سكان الساحل الكنعاني في ذلك الوقت، وفي استعراض تلك الأسماء نتعرف على أسماء الآلهة مثال:

- إيل: أب الآلهة الكنعاني.
- هدد أو حدد: وهو إله العواصف والأمطار الأموري وإله العواصف في الشمال السوري، الذي يرد اسمه مراراً.
- حورون: إله الطاعون الأوغاريتي (الكنعاني).
- شمش: إله العدالة البابلي. مع الملاحظة بأن شفش هي إلهة الشمس الأوغاريتية الملقبة بنارة الآلهة ورسولتهم.
- آنو: إله السماء البابلي.

وهناك أسماء لصفات إلهية مثل (أبي ـ رافي) بمعنى الإله الشافي واسم له علاقة بالكوكب (أخ الكوكب = أحو ـ كاكابو).

٤ ـ أما مدينة أورسالم (القدس)، فقد ورد اسمها في ثلاث مناسبات: مناسبتان في نصوص متحف برلين حيث كان اسم أمير المدينة (ياقير هامّو) ثم (سازانو).

---

(١) النصوص المصرية لا تستعمل تسمية ملك إلا للفرعون، ومسؤولو الممالك المدن هم إذاً أمراء.

وفي المناسبة الثالثة في نصوص متحف بروكسل حيث فُقد فيها اسم أمير المدينة. وطبعاً لم نكن نأمل العثور على اسم (ملكيصادق) اسم ملك أورشليم في المرويات التوراتية لأن ذلك من المستحيلات على اعتبار أن وجود ملكيصادق الملك قد ابتُدِعَ بنهاية القرن السابع قبل الميلاد لدعم قصّة أبرام التوراة المبتدعة هي أيضاً، وهذا ما يعترف به اليوم الباحثون الجدد من اليهود، كما أوضحنا ذلك في بداية هذا البحث.

٥ ـ ومن حسن حَظّ فلسطين التاريخية، أن لعنات مصر، قدّمت إلينا صورة واضحة عن عمران فلسطين منذ ذلك التاريخ، أي القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد.

الفصل السابع

(٧) الخابيرو في مراسلات العمارنة

(٧ ـ ١) حول السياسة المصرية على الساحل الكنعاني

(٧ ـ ٢) استعراض محتوى الرسائل

(٧ ـ ٣) الاستنتاج وآراء الباحثين وخابيرو فترات مختلفة

(٧ ـ ٤) الأسباب التي جعلتنا ندرس مجموعة الخابيرو

(٧) الخابيرو في مراسلات العمارنة

(٧ ـ ١) حول السياسة المصرية على الساحل الكنعاني:

لكي نتمكن من فهم مدلول تسمية الخابيرو على الشاطئ الكنعاني التي وردت في ٥٣ رسالة من رسائل العمارنة وغير مرة في بعض الرسائل، نرى أنّه لا بدّ لنا من استعراض جميع تلك الرسائل التي تفيدنا في الوقت نفسه للتعرف على دور تلك المجموعات البشرية في تاريخ منطقتنا الساحلية وبعض المناطق الداخلية إبان حكم كل من فرعوني مصر أمينوفيس الثالث (١٣٩٠ ـ ١٣٥٢ق.م.) وأمينوفيس الرابع (أخناتون) (١٣٥٠ ـ ١٣٣٤ق.م.) بشكل خاص.

يعتبر جميع الباحثين أنّه من الصعب إيجاد تصنيف تسلسلي بين مجموعة رسائل العمارنة وعددها ٣٥٠ رسالة. ولكن دراستها تمكننا من التعرف على مراحل عدة يمكن اعتمادها بدلالة حكم الملك المصري صاحب النفوذ في المنطقة التي تهمّنا، وبدلالة وضع الملوك المحليين (الأمراء أو الحكام) الذين كانوا كلّما ضعف نوعاً ما الضغط الفرعوني عليهم، يحاولون التخلص من ذلك النفوذ والاستقلال في المدن ـ الممالك التي كانوا يحكمونها، أو التوسع بالاستيلاء على مدن مجاورة وضمّها إليها. ونحن لا نغفل بالطبع موضوع التخلص من دفع الجزية وعدم الاضطرار إلى تقديم الهدايا سنوياً إلى الفرعون.

بالنسبة لمحاولات التحرر من النفوذ المصري، يمكن القول منذ الآن، إن الذين

تزعموا الحركات التحررية، هم بشكل خاص أموريو الساحل الممتد بين أوغاريت وصور، مشتملاً إلى الشرق على منطقتي العاصي والليطاني. أشهر الملوك المحليين الذين أطلقوا الحركة التحررية هم: عبدي ـ عشيرتا[1] وأبناؤه من بعده، وأشهرهم عزيرو أو أزيرو[2]، وباستعراضنا محتوى الـ٥٣ رسالة التي أشارت إلى الخابيرو كمجموعة بشرية، يمكننا الاستفادة من مناسبة نادرة للتعرف على تاريخ المنطقة الحيّ في تلك الفترة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واقتراح مراحل لانتقال حركات التمرد.

أما عن السياسة المصرية على الساحل والطريقة المتّبعة من قبل مصر للمحافظة على النفوذ، فقد كان يتم عن طريق ترك الحرية للملوك المحليين الذين كانوا يُعتبرون كحكام لمدنهم، كما كانت مصر تعتمد في الوقت نفسه على انتداب ممثلين لها موزعين في مناطق متعددة، يمكن الرجوع إليهم كلما دعت الحاجة، وكذلك على موظفين كبار يوفدون من مصر بين وقتٍ وآخر.

المدن ـ الممالك العديدة التي كانت منتشرة على كامل الساحل الكنعاني وفي داخله، كانت بالطبع تناسب الحكم الفرعوني، بحيث لم تكن هناك قوة موحّدة يمكنها المجابهة، بالإضافة إلى الخلافات والنزاعات الدائمة بين تلك الممالك التي لم تكن بحاجة إلى تشجيع مصري.

وحين كانت تتشكل الأحلاف بين الممالك الصغيرة ضد نفوذ الفرعون، كان هذا الأخير يجرّد حملة تأديبية، تفرّق وتعيد الأمور إلى ما كانت عليه.

تلك كانت سياسة «الامبراطورية» المصرية حين كانت تحكم من دون منافسة، وحين لم تكن القِوى الحثيّة في الشمال الأناضولي قد تشكلت بعد، بل كانت هناك قوة شمالية شرقية لا تخيف مصر كثيراً، عُرفت بالمملكة الميتانية أو الحورية التي امتدّ نفوذها في منطقة الخابور والبليخ والفرات الأوسط حتى المتوسط غرباً، وكان لها أثر في مملكة أوغاريت جنوباً. وبسبب امتداد النفوذ الميتاني إلى الشمال السوري، تأزّمت الحالة بين المملكتين المصرية والميتانية منعاً لمتابعة الامتداد. لذلك منذ بداية حكم الأسْرة الثامنة عشرة، توغل تحتمس الأول (١٥٠٦ ـ ١٤٩٤ق.م.)، والد حتشبسوت،

---

(١) (Abdi-Ashirta).

(٢) (Aziru).

شمالاً حتى الفرات، وعرض حمايته على البلاد المجتازة مقابل جزية سنوية، وكان عليه إعادة الكرّة من وقتٍ إلى آخر بالنسبة لموزاييك المدن ـ الممالك التي تغطي الممر السوري ـ الفلسطيني، وكان عليه أيضاً أخذ المملكة الميتانية بالاعتبار، وبناء سياسته في الشمال على هذا الأساس.

أما خلفه تحتمس الثاني، زوج حتشبسوت، فقد اكتفى بتأديب البدو الذين كانوا يسطون على المحميات الفلسطينية، ولم يحكم سوى ست سنوات تقريباً بسبب وفاته، وكان يجب أن يخلفه من سيصبح تحتمس الثالث، إلا أن صغر سنه جعل والدته حتشبسوت تحكم حتى مماتها عام ١٤٨٣ق.م، وكان ملك المستقبل تحتمس الثالث، خلال ذلك الوقت، يتمرَّن على المعارك، حتى أن المؤرخين لقّبوه بنابليون مصر.

حكم تحتمس الثالث بين عامي (١٥٠٤ و١٤٥٠ق.م.)، وجرّد خلال سني حكمه ١٧ حملة عسكرية، وانتصر في ماجدّو، كما انتصر في الميتاني، وهو الذي حارب الحلف الذي شكّله أمير قادش ضد مصر، واحتل ماجدّو بعد حصار دام سبعة أشهر. وماجدّو وقادش هما البلدان اللذان يشكلان المدخل الاستراتيجي بالنسبة لبلاد كنعان وسورية، حيث شن ١٥ حملة سنوية متتالية. وفي «البلد حيث الأنهر تسيل بالاتجاه المعاكس» وصل إلى شواطئ الفرات، وأحرق ما أحرق، وصعد دجلة حتى نينوى وهو الفرعون الوحيد الذي تمكن من التوغل في آسيا، كما فعل تحتمس الثالث.

أما ابنه أمينوفيس الثاني، فيمكن اعتباره من أشد الفراعنة قساوة ودموية، إذْ إنه في حملةٍ على المنطقة بين العاصي والليطاني، أعدم بنفسه سبعة أمراء مغلوبين وربط جثثهم في مؤخرة سفينته وصعد بها النيل حتى طيبا ثم علّق الجثث فوق جدران طيبا، ووصل بها حتى نَبَاتا[١] في النوبة لتخويف تابعيه من سطوته.

لم يرث تحتمس الرابع قساوة والده ولقب بالدبلوماسي، ولم يحكم سوى تسع سنوات، إذ توفي عن عمر ٣٠ سنة. ومع أنه قام بشن حملة في بلاد النوبة إلا أنه فضَّل التفاوض مع مملكة الميتاني وعقد مع ملكها معاهدة صلح، ثبّتها بزواجه أميرة ميتانية، وأطلق بذلك هذه العادة التي استمرت في ما بعد لأكثر من زواج.

---

(١) (Napata) أو نباتا.

نصِلُ هنا إلى حكم أمينوفيس الثالث (١٣٩٠ ـ ١٣٥٢ق.م.)، وهو الذي تلقى جزءاً من الرسائل التي عثر عليها في تل العمارنة، إلى جانب الرسائل التي تلقّاها ابنه أمينوفيس الرابع (أخناتون). ويعتقد أن هذا الأخير هو الذي نقل الرسائل التي تلقاها والده حين انتقل إلى عاصمته الجديدة في العمارنة، لممارسة ديانته التوحيدية الجديدة.

وَرِثَ أمينوفيس الثالث حكم امبراطورية تمتد من النوبة جنوباً حتى الفرات شمالاً، وحكم مدة ٤٠ عاماً، كما أن زوجته تيي[١] شاركته في الحكم، وكانت ذات شخصية قوية، ولدت له ابنين وأربع بنات. ثمّ متّن الفرعون علاقته الودّية مع أقوى الممالك الآسيوية في ذلك الحين، بزواجه من جيلوبيك[٢] ابنة الملك الميتاني وذلك قبل أن يستقبل في حرمه شقيقة ملك بابل. لكن تلك التحالفات الزواجية لم تكن كافية، إذْ إن قوة جديدة بدأت تظهر في الأناضول وفي خَاتي، مكّنَت من قيام تحالف بين بعض المدن ـ الممالك للتخلص من النفوذ المصري، ما كان يضطر مصر إلى إرسال جنودها، وخصوصاً فرقة النشّابة التي كانت ذات رهبة، إلى إعادة الأمن إلى المناطق المتمردة. بدأ ذلك خلال حكم أمينوفيس الثالث، وهذا ما سوف تشير إليه رسائل العمارنة التي سنستعرضها. وتضاعفت المحاولات في فترة حكم أمينوفيس الرابع (أخناتون) خصوصاً وأنه كان مهتمّاً في عاصمته الجديدة بتمجيد إلٰهه الواحد آتون ونشر معتقداته الجديدة، ما أدّى إلى إهمال السهر على المحميات المصرية في كنعان ـ وسورية.

(٧ ـ ٢) استعراض محتوى الرسائل:

قلنا آنفاً، إن ما وصلنا من رسائل العمارنة التي أشارت إلى المجموعة البشرية المسماة (خابيرو)، بلغ عددها ٥٣ رسالة، وهذه المجموعة، أدّت دوراً في حركات التحرر لكونها مجموعة من المرتزقة تحارب لصالح من يدفع لها الثمن، وهذا ما يتضح من تفاصيل المراسلات التي نستعرضها، والتي تتضمن في الوقت نفسه، كما أوضحنا آنفاً، تاريخاً حيّاً للمنطقة بين عامي (١٣٩٠ و١٣٣٠ق.م.) من المفيد جداً التعرف عليه.

يمكننا القول لدى دراسة مجموعة الرسائل المشار إليها، إنه يمكن توزيعها على

---

(١) (Tyy).

(٢) (Giloupek).

خمس مراحل بدلالة المناطق الجغرافية التي وقعت فيها الأحداث، ونقترح بهذا الصدد تبني هذه المراحل كما يلي:

أ ـ المرحلة الأولى:

حدثت في الشمال بين جبيل (چوبلا) وصومور (سيميرا)، وصومور هي المدينة التي اختارها الأموري (عبدي ـ عشيرتا)[١] لإطلاق التمرد على النفوذ المصري وليجعل منها عاصمته. أعلمتنا ذلك رسائل حاكم جبيل (ريب ـ هدّا)[٢] حين أبلغ الفرعون في رسالته (EA 68) معتبراً مدينته، هي أيضاً مهدّدة، مع أنها كما يقول: «لم تمس، ومع ذلك، فإن الحرب التي تشنّها ضدي فرق (الخابيرو) هي بالغة الشدّة، وعلى سيدي الملك، ألاّ يهمل صومور التي لم تسقط بفضل وجود مندوب الملك فيها، وهو يعْرف الصعوبات التي تجتازها چوبلا للحصول على المؤن.

وفي رسالة تالية (EA 71)، موجهة إلى الوزير المصري (هايا)[٣]، يعاتبه فيها حاكم چوبلا، لأنه لم يطلب من الملك على ما يظهر، إرسال جنود وفرقة نشابة[٤] لاسترجاع صومور. وهذا يعني أن المدينة تمّ احتلالها من قبل (عبدي ـ عشيرتا) الأموري، الذي استولى على «مدينة الملك» وأصبح قوياً بواسطة (الخابيرو) (أي المرتزقة الذين اشتراهم عبدي ـ عشيرتا للمحاربة إلى جانبه)، كما أن حاكم چوبلا يطلب إعلام الملك أن مدينتي (شيغاتا)[٥] و(أمفي)[٦] هما مهدّدتان.

الرسالة (EA 73) الموجهة من قبل حاكم چوبلا، تُعلم الفرعون أن عبدي ـ عشيرتا يحاول تشجيع كل بلد أمورو على التمرّد، وقد كتب إلى أهالي (أمّيا)[٧] لِقتل حاكمهم والانضمام إلى (الخابيرو)[٨]، موضحاً أن البلد ليس مع (عبدي ـ عشيرتا)، وفي «حال وصول فرقة النشابة، فإنّهم سوف يتجهون نحو الأقوى».

---

(١) (Abdi-Ashirta).

(٢) (Rib-Hadda).

(٣) (Haya).

(٤) هي الفرقة التي كان يرهبها المتمردون.

(٥) (Sigata) = شكّا الحالية.

(٦) (Ampi)، وهي أنفه في لبنان.

(٧) أمّيا (Ammia) هي أميون الحالية في منطقة طرابلس ـ لبنان.

(٨) المقصود هنا هم جميع المتمردين بمن فيهم المرتزقة (الخابيرو).

حاكم چوبلا أيضاً، يعلم الملك في (EA 74) أن (شيغاتا) (شكا) سقطت، وأمّيا في خطر. كما أن اجتماعاً يعقده عبدي ـ عشيرتا، في معبد نينورتا[١] سينتج عنه مهاجمة چوبلا. ويضيف في الرسالة نفسها، أن الحرب التي يشنها (الخابيرو) قاسية، وإنهم قتلوا (آدونا)[٢] حاكم (إرقاتا)[٣]، وأن حاكم (آراشني)[٤]، كما يوضح ذلك في (EA 75)، استولى على (أرداتا)[٥]، ورجال أمّيا (أميون) قتلوا حاكمهم.

أمّا بصدد السياسة الدولية، فإن حاكم چوبلا يعلم الفرعون أن ملك بلاد خاتي[٦]، استولى على جميع المدن التي كانت خاضعة لميتاني. وفي مرحلة تالية، تحاول خاتي مدّ سلطتها إلى المحميات المصرية في الشمال، وتتأرجح بعد ذلك مملكة أوغاريت وسيانو وأمورو بين النفوذين المصري والحثّي.

وفي عودة إلى حاكم چوبلا للاطلاع على تطور الحركة التمردية بل التحررية التي أطلقها عبدي ـ عشيرتا، نرى أنه في (EA 76) يطالب الفرعون بإرسال ٤٠٠ رجل لحماية المنطقة بعد سقوط أمفي وشكّا. ويعتقد في (EA 81) (EA 79) أن مدينته ومدينة بترونا، هما المتبقيتان له، ويطالب بإرسال فرقة النشابة، معلناً أنه تعرَّض لمحاولة اغتيال.

في (EA 77) يكتب حاكم چوبلا للوزير الفرعوني مطالباً بإرسال فرقة النشابة بقيادته هو، لمحاربة (الخابيرو)، ويخشى أن يقتل من قبل فلاحيه، كما فعل فلاحو أميون (أمّيا).

وفي محاولة اغتيال ثانية دبّرها عبدي ـ عشيرتا، يُعلم حاكم (چوبلا) الوزير المصري في (EA 82) بأن فرقة النشابة، إذا لم تصل خلال شهرين، فإنه سيغادر المدينة لإنقاذ حياته، وأن كل البلاد تنتظر قدوم فرقة النشابة ليل نهار. أوفد حاكم چوبلا رسولاً إلى الفرعون بناء على طلب الوزير المصري، ليعودَ ترافقه فرقة الإنقاذ ولكن الرسول عاد من دون أي مساعدة عسكرية. وحين علم بذلك عبدي ـ عشيرتا، انضمّت إليه مدينة البترون ومَرْكَزَ عرباته على بوابة چوبلا.

---

(١) (Ninurta) إله الحرب السومري والأكادي.
(٢) (Aduna) حاكم أرقاتا.
(٣) (Irqata) = تل عرقا.
(٤) (Arašni) موقع غير معروف.
(٥) (Ardata) = أردِه حوالى ٢٠كلم شمال غربي طرابلس.
(٦) (Hati) بلاد الحثيين.

تذكُر رسالة حاكم چوبلا الفرعون، بأنه كتب إليه يوم سقطت شيغاتا (شكا) ولم يفعل شيئاً، وكتب حين سقطت مدينة البترون والملك لم يفعل شيئاً، مضيفاً: «جميع الحكام هم مع عبدي ـ عشيرتا وقد سُرقت حاصلاتي»، ويطالب بأن تصل فرقة النشّابة لاستعادة بلد أمورو، كما يعلن بأنه خائف على حياته.

يكرّر حاكم چوبلا في رسالته (EA 91) إلى الملك، قوله: «وإذا لم تفعل شيئاً، فإن بلد أمورو يعتبر ضائعاً».

ليست لدينا معلومات مباشرة عن تحرك جنود مصر في النهاية ترافقهم فرقة النشابة التي كثيراً ما طالب حاكم چوبلا بقدومها لإنقاذ الموقف، ولكننا نعلم من أكثر من رسالة وجهها في ما بعد، الحاكم نفسه إلى أخناتون (١٣٥٢ ـ ١٣٣٦ق.م)، الذي خلف والده أمينوفيس الثالث مذكراً إيّاه بأن والده أوفد جنوده في الماضي وتمّ توقيف (عبدي ـ عشيرتا) زعيم التمرد وصودرت أمواله، كما ورد ذلك في (EA 117)، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه على ما يظهر. إلا أن حكم أخناتون عرف كما أسلفنا، إهمالاً بالنسبة لمحميات مصر في فلسطين وبقيّة الساحل، ولم تتوقف إذن محاولات التحرر من النفوذ المصري، كما يتضح ذلك من المرحلة الثانية التي يتابعها لنا من جديد حاكم چوبلا.

ب ـ المرحلة الثانية:

في هذه المرحلة التي تبدأ من جديد في أمورو، يطلق أبناء عبدي ـ عشيرتا حركة تمرد على النفوذ المصري، وأولهم الابن (فو ـ بعلا)[١]، وكما ورد ذلك في (EA 104) الرسالة الموجهة من قبل حاكم چوبلا إلى الفرعون، أن هذا الابن قام باحتلال المدن المحيطة بمدينته (وَاهْلِيَا)[٢]، وهي كما يُعتقد مدينة طرابلس الحالية. أما المدن المحتلّة فهي (أولأزا)[٣] و(أرداتا)[٤] و(واهليا) و(أمفي)[٥] و(شيغاتا)[٦]. ويطلب حاكم چوبلا

---

(١) (Pu-Ba'la) معناه فم بعل أو كلمة بعل.

(٢) (Wahliya) طرابلس الحالية.

(٣) (Ullasa) مدينة قرب صومور على مصب نهر البارد.

(٤) (Ardata) ٢٠كم جنوب طرابلس.

(٥) (Ampi) = أنفه إلى الجنوب من طرابلس.

(٦) (Šigata) = شكّا الحالية.

إرسال الجنود إلى (صومور)[١] المهدّدة، مشيراً إلى أن المندوب الملكي تمّ طرده من صومور، وأن (أولآزا) المجاورة لصومور هي محتلّة مضيفاً إلى أن أزيرو[٢] بن عبدي ـ عشيرتا اتفق مع حاكم بيروت ضدّه. في رسالته الجوابية (EA 112) الموجهة من حاكم چوبلا، وكان الفرعون قد طلب إلى هذا الأخير «أن يقوم بالحراسة»، يتساءل حاكم چوبلا أمام الفرعون: «مع من سوف أقوم بالحراسة؟ مع أعدائي؟ أم مع فلاّحيَّ المعادين لي؟ مذكّراً إيّاه، أنه في الماضي اشترى أحد الخابيرو لإدخال الموظف الملكي (هايا) إلى صومور وتم ذلك ليلاً.

في (EA 116) يعلم حاكم چوبلا الملك، بأن حاكم بيروت ليس عادلاً بالنسبة إليه، ويطلب التحكيم، مضيفاً أن جميع مدنه انضمت إلى (الخابيرو)[٣]، ثم يقول للملك: «أنت اليوم تبوأت عرش والدك لحكم بلدك كنعان، من هم إذاً أبناء عبدي ـ عشيرتا؟ أرسل إذن فرقة النشابة».

أمام صمت أخناتون وانشغاله بأمورٍ أخرى، يعود حاكم چوبلا في (EA 119) إلى التذكير بأن أبناء عبدي ـ عشيرتا، قالوا (للخابيرو) الذين هم معهم: «من هم الرجال الذين يدافعون عن (ريب ـ هدّا)[٤]؟ (بمعنى أن لا قوة لديهم). وهنا، وهو في حالة شبه يائسة يقول حاكم چوبلا للملك: «اهتم بخادمك ولا تنسَ أنهم قتلوا حكام الملك، وإذا لم يكن لديك ردّ فعل، فأرسل من ينقلني إلى مصر».

«أعيش محاطاً بالخابيرو»، هذا ما كرّر قوله حاكم چوبلا إلى الملك في رسالة (EA 130)، مذكّراً أن الموظف الملكي الموعود بقدومه إليه لم يصل، ويضيف: «حين يقول لي الملك، أحرس مدينة الملك حيث أنت»! يعني ذلك أن إرسال حامية مصرية لهذه الغاية هو ضروري.

يعود حاكم چوبلا في (EA 132) إلى تذكير أخناتون أنه كان قد كتب إلى أبيه بصدد عبدي ـ عشيرتا، فأرسل الجنود والآن فإن (أزيرو) بن عبدي ـ عشيرتا جَمعَ كل

---

(١) (Şumur) سيميرا المدينة إلى الشمال من طرابلس على مصب النهر الكبير الشمالي.
(٢) (Aziru) أو (عزيرو) وهو الذي تزعم حركة التحرر بعد والده عبدي ـ عشيرتا.
(٣) الخابيرو هنا هم جميع المتمردين بما في ذلك المرتزقة.
(٤) (Rib-Hadda) اسم حاكم چوبلا.

(الخابيرو) ضدّ چوبلا، وأنّ (حائف)[١] مندوب الملك سلّم صومور، وأن مندوباً آخر قد قتِل و«إذا ما أهمل الملك ذلك فإن جميع الحكام سوف يُقتلون، كما أن المندوب (فوخارا)[٢] لن يبقى في (كوميدو)[٣].

يختتم حاكم چوبلا رسالته، مذكُراً بأنه يكتب ولا أحد يهتم، ويطالب بإرسال سفن لنقل ممتلكات «السيدة»[٤] وممتلكاته هو، ولا ينسى تكرار طلب (٥٠ ـ ١٠٠) رجل من الملوحة[٥] و٥٠ عربة لحماية المدينة مع فرقة النشابة.

أما النهاية بالنسبة لحاكم چوبلا ووجوده في مدينتهِ، فإن الرسالتين (EA 137) و(EA 138) تشيران إلى أن أخ (ريب ـ هدّا) الأصغر خانه وطرده من مدينتهِ فلجأ إلى بيروت، وأن أخاه حوّل چوبلا إلى مدينة عدوّة بغية تسليمها إلى أبناء عبدي ـ عشيرتا. تمّ ذلك عندما عاد ابن حاكم چوبلا من مصر، لطلب العون، من دون أي مساعدة. وعند ذلك تفاقمت الأمور وطُردَ من مدينته وهو يطلب من الملك أن يعيده إلى مدينته، أو أن يسلمه على الأقل مدينة (بوروسيليم)[٦] القريبة من چوبلا. ثم يعود للتذكير في (EA 138) بأنه في زمن والد الملك: «حين كتبت إليه استجاب وأنقذ البلاد من (عبدي ـ عشيرتا)، ويعترف أن ممتلكات چوبلا عديدة، ويدعو الملك أخناتون إلى الاستحصال عليها لمصلحته، كما يتساءل بحزن «هل عليّ البقاء في بيروت؟»».

الرسائل المستعرضة التي وجهها إلى ملك مصر حاكم چوبلا اكتفت بذكر الرسائل المتضمنة إشارة إلى مجموعة (الخابيرو)، ولم تكن تلك الرسائل هي الوحيدة التي صاغها حاكم چوبلا الذي كان بالإضافة إلى مشاغله الخاصة والخطر الذي كان يتهدده دوماً، يعتبر نفسه وكأنه سفير مصر في مدينته الأمينة، ومن واجبه إبلاغ الفرعون بكل ما يسمع من أخبار أو إعلامه بالأحداث اليومية التي تتهدد المنطقة، وأكثر الحكام الباقين لم يكتبوا مخبرين بشكل كافٍ فيما عدا الذين كانوا يطلبون العون، وأن المندوبين المفوّضين، منهم من قُتِلَ ومنهم من غادر مركزه.

---

(١) (Ha'ip).

(٢) (Puhara).

(٣) (Kumidu) هو موقع كامد اللوز قرب العاصي إلى الشرق.

(٤) «السيدة» هي بعلة جبيل الإلهة التي كانت مصر ترسل التقدمات إلى معبدها.

(٥) المقصود بالملوحة هنا هو بلاد النوبة.

(٦) (Burusilim) مدينة قريبة من چوبلا.

يمكن القول إن چوبلا بعد خروج حاكمها ريب ـ هدّا منها ولجوئه إلى بيروت، لم تندمج في مملكة أمورو ولم تُحْتلّ من قبلها، إذْ إن (أزيرو) زعيم التمرد الأموري، جعل مصر تعترف به ملكاً على أمورو، وتابع دفع جزيته لمصر، رغم عقده في الوقت نفسه معاهدة مع خاتي عدو مصر الحثي.

أما حاكم چوبلا السابق، فإنه لم يعد إلى مدينته ولم يستعد مركزه فيها ولا في غيرها، ويُعتقد أنه مات أو اغتيل في منفاه.

من المنطقة المحيطة بچوبلا، تنتقل الأحداث إلى صيدون وها هو (زيمريدّي)[١]، حاكم صيدون يكتب إلى الفرعون في رسالته (EA 144) معلناً أن مدينته لم تمسّ، وكما يظهر من الرسالة أنه تلقى من الملك ما يشير إلى قدوم فرقة النشّابة الملكية، وأنه أعدّ ما يلزم لاحتياجاتها، وأن الحرب ضدّه قاسية. ثم يخبر الملك «أن المدن التي وُضعت تحت حراسته انضمت إلى (الخابيرو) ويعرض نفسه لكي يدلّ قائد النشابة على المدن التي انضمت إلى المتمردين بغية استرجاعها.

أما حاكم صور (المدينة البحرية) الذي طلب منه الملك تزويد القصر بزجاج من صور، يستفيد من المناسبة لكي يطلب من الملك في رسالته (EA 148) تكليفه بحكم المدينة البرية لصور وهي (أوشو)[٢]، وذلك لتسهيل تأمين احتياجاته من الماء والحطب والقش (التبن) والصلصال لأنه يعيش معزولاً على صخرته البحرية. ولا ينسى أن يتّهم حاكم صيدا بأن هذا الأخير هو الذي يقوم بعمليات السطو على «مدن الملك» في المنطقة، مضيفاً أيضاً أن حاكم (حاصورا)[٣] هجر بيته وانضم إلى (الخابيرو).

ج ـ المرحلة الثالثة:

تنقلنا الرسائل بعد ذلك في منطقة البقاع الجنوبي إلى مدينة (توبيخو) حيث يشير المرسل ولا نعلم اسمه لأن الرسالة (EA 179) فقدت الأسطر الأولى (١ ـ ١٠). إلى أن أخاه، وهو رجل منبوذ ذهب هنا وهناك، واحتل لنفسه مدن الملك، وسلّم جميع الرجال في مدن الملك إلى (الخابيرو)، ويطلب المرسل استرجاع (توبيخو) مدينة أجداده من أجل الملك.

---

(١) (Zimreddi).

(٢) (Ušu) القسم البري من مدينة صور وحاكمها غير حاكم المدينة البحرية (صورو).

(٣) (Haçor) في الجليل إلى الشمال من قادش.

أما حاكم مدينة (خازي)[١] فيعلم الملك في (EA 185) عمّا فعله حاكم (توشولتو)[٢] ضد مدن الملك، عندما قام (الخابيرو) بشن حربهم ضدّه واحتلوا مدن الملك، كما احتلوا (ماحزيبتو)[٣]، مدينة الملك التي دمّروها وأحرقوها ثم لجأوا إلى (توشولتو). كما احتل (الخابيرو) أيضاً مدينة (جيلونو)[٤]، مدينة الملك ودمّروها وأحرقوها ثم لجأوا كذلك إلى (توشولتو).

يتكرر الأمر بالنسبة لمدينة (مجْدالّلو)[٥] واللجوء إلى (توشولتو) عند حاكمها بعد تدميرها وإحراقها، وتضيف الرسالة أنه بالكاد تمكنت عائلة واحدة من الهرب من مجدالّلو. احتل (الخابيرو) كذلك مدينة الملك وهي (أوشو) (صور البرية) ودمروها وأحرقوها كما سبق. ولدى مهاجمتهم مدينة حازي (تل حزّين)، يقول حاكم هذه المدينة إننا «اشتبكنا معهم في معركة وكسرناهم واستقبل حاكم (توشولتو) جميع الذين تمكنوا من الفرار وهو أحد الخابيرو. ثم عقدوا اجتماعاً بينهم في المدينة، ولكن إخوتي وأبنائي توجّهوا إلى (حاكم توشولتو)[٦] طالبين منه تسليم الفارين فوعد بذلك ولكنه سار بهم ليلاً وهرب إلى حيث (الخابيرو)[٧]، حاكم (توشولتو) هو خائن «فليطلب منه الملك أن يقدّم حساباً، وعلى الملك سيّدي ألاّ يهمل هذا الأمر»، وليتمّ تعيين رجل آخر لا يسمح بدخول الخونة إلى بلد الملك.

الرسالة (EA 186) صدرت أيضاً عن حاكم (حازي) ويكرر فيها إعلام الملك بالمدن التي احْتُلّت ودُمِّرت وأُحْرِقت من قبل (الخابيرو)، وكيف انتصر عليهم عندما هاجموا (حازي) وأسروا بعضهم ولكن ٤٠ منهم التجأوا إلى (توشولتو)، وبعد أن وَعَدَ بتسليمهم جمع خدمه وانتقل إلى (الخابيرو).

---

(١) (Ḫasi) = تل حزين قرب بعلبك.
(٢) (Tushultu) مدينة على العاصي إلى الشمال من كوميدو (كامد اللوز).
(٣) (Maḫzibtu) مدينة قرب تل حزّين (حازي).
(٤) جيلونو (Gilunu) مدينة قرب حازي.
(٥) (Magdallu) مدينة في البقاع.
(٦) حاكم (توشولتو) واسمه (آمان خاتبي) وهو مصري خان ملكه وانضم إلى (الخابيرو) وقام بحمايتهم.
(٧) لم تحدد الرسائل مكان أو أماكن تجمع الخابيرو.

تنتقل الأحداث بعد ذلك إلى (قِدشو)[١] وحاكمها هو (إيتاكاما)[٢] الذي يكتب للفرعون في (EA 189) شاكياً حاكم (كوميدو) الذي يقول سوءاً بصدده أمام الفرعون مع أنه استولى على كامل ممتلكات والد إيتاكاما بما في ذلك (قِدشو) وهو الذي أسلم للنار مدنه، مضيفاً أن مفوضي الملك وكباره «يعرفون أمانتي وولائي، وحيث توجد حرب ضد الملك أتوجه برفقة جنودي وعرباتي وإخوتي».

يتضح هنا أن حاكم (كوميدو) وفقاً للشكوى أعلاه سلّم جميع مدن الملك إلى (الخابيرو) ومن بينها مدينة (تاحشي)[٣] و(أوفو)[٤]، ولكنني كما يقول المرسل: «ذهبت مع آلهتك وشمسك التي كانت تقودني واستعدتها، فليبتهج الملك»، أما حاكم (كوميدو) الذي سبّب «فقدان بلدك بكامله فإن وجهه لا يعرف سوى الباطل وأنا خادمك الأمين إلى الأبد».

وعلى ما يظهر، نعتقد أن حاكم (كوميدو)، سمع بقدوم فرقة النشابة الملكية، وهنا هو يكتب للملك بدوره، موجهاً رسالة (EA 195) حيث يقول:

«سيّدي، هو الشمس في السماء. سيّدي، خدمَك ينتظرون صدور الكلمات من فمّ سيّدهم. أنا بالتأكيد، يرافقني جنودي وعَرباتي وكذلك إخوتي و(الخابيرو) والسوتيون[٥] الذين أضعهم بإمرة النشابين، حيث يأمرني الملك أن أتوجه». يتأكد هنا أيضاً كون (الخابيرو) مرتزقة يحاربون مع من يدفع لهم الثمن، ويضاف إليهم هنا، السوتيون وهم قبائل قديمة، عُرفت بما أحدثته من أضرار في ما بين النهرين (ملحمة ايرّا تشير إليهم) وهم في فترة العمارنة عبارة عن عصابات غير مستقرة وخطرة في معظم الأحيان.

د ـ المرحلة الرابعة:

ينتقل الصراع في هذه المرحلة إلى منطقة تقع بين منطقة طبريا غرباً، مروراً بمدينة (عشتارتو) إلى الشرق من الأردن، وصولاً إلى بصرى ودمشق وكوميدو.

---

(١) (Qidšu) وهي قادش على العاصي (تل النبي مند).
(٢) (Etakamma) حاكم قادش.
(٣) (Tahshi) مدينة إلى الجنوب من قادش.
(٤) (Upu) مدينة إلى الشمال من دمشق.
(٥) (Sutéens).

يكتب حاكم كوميدو في (EA 197) متهماً عدوّه (بيريداشوا)[١] بأنه شجّع أهالي (يانوعامّو)[٢] ليثوروا عليه، كما أضاف أنه عندما خرج من (عشتارتو)[٣] «أغلق ومترس بوابة المدينة خلفي، كما صادر في عربتين في (عشتارتو) ولم يقدمهما إلى الملك. وعندما علم بذلك ملك (بصرونا)[٤] وملك (حالونا)[٥]، فإنهما قادا معركة مع (بيريداشوا) ضدي». وإنهما قالا مراراً: «لنذهب ونقتل حاكم كوميدو، لكي لا نتركه يذهب إلى [. . .]» ويستنتج أن حاكم كوميدو تمكن من الانتقال إلى دمشق. وهو يضيف في رسالته: «وأنا وحدي، كيف يمكنني أن أخدم الملك سيدي. إنهما يكرران دوماً نحن في خدمة ملك خاتي[٦]، وأنا أكرر دوماً بأنني في خدمة مصر».

وتضيف الرسالة أيضاً، بأن حاكم (روخيزّي)[٧] ذهب إلى قادش وأخذ معه جنود (أزيرو) واحتل مدينة (شَدّو)[٨] ولم يعْطِها للملك، بل أعطاها إلى (الخابيرو). وفي الختام يتهم المرسل حاكمَ قادش بأنه أضاع المدينة، وأن حاكم (روخيزّي) مع (بيرداشوا)، عدوّ المرسل، هما قيد ضياع (أوفو)[٩]. ثم يوضح: «وبما أن إخوتي هم ضدي فأنا أحتفظ (بكوميدو) وملوك (أوفو) و[. . .] يعرفون إذا [. . .]. رأيتُ فرقة النشابة.

أما الرسالة (EA 207) واسم مرسلها غير كامل، كما أنه لم يرد في رسالة أخرى، فهو يدافع أمام الملك عن موقفه، على اعتبار أن (فوخّور)[١٠] المفوض الملكي، لم يقم بحمايته، لذلك فإن جميع مدن الملك التي هي تحت حمايته تحولت إلى (الخابيرو)، ويؤكد أنه خادم أمين.

---

(١) (Biridashwa) لا يعرف عنه إلا كونه عدو حاكم كوميدو.
(٢) (Yanuammu) يحتمل أن تكون تل النعم إلى الجنوب الغربي من طبريا.
(٣) (ʼAshtartu) تل عشترة إلى الشرق من طبريا على بعد حوالي ٣٠كم.
(٤) (Buṣruna) بصرى أسكي ـ شام.
(٥) (Halunna) مدينة قرب بصرى.
(٦) بلاد الحثيين وتتضح هنا بداية توسع التأثير الحثي في الشمال السوري.
(٧) (Ruḫizzi) مدينة قرب قادش.
(٨) (Šaddu) مدينة في عمق البقاع.
(٩) (Upu) مدينة إلى الشمال من دمشق.
(١٠) (Puḫur) (Puhura) الملقب بالسوري هو مفوض ملكي.

الرسالة (EA 215) صدرت عن (باياوا)[١] الذي يُعلم الملك، بأنه إذا لم يأتِ المفوض الملكي (يانخامو)[٢] هذه السنة، فإن جميع البلاد سوف تفقد لمصلحة (الخابيرو).

هـ ـ المرحلة الخامسة:

هذه المرحلة تنقل حركة التحرر إلى فلسطين:

الرسالة (EA 243) صدرت عن (بيريديا)[٣] حاكم ماجدّو، الذي يؤكد للملك بأنه يحمي مدينة الملك في النهار بواسطة عربات في الحقول، وفي الليل يقوم بالحراسة فوق الأسوار. ربما أن عُدوانية (الخابيرو) هي قوية في البلاد، فعلى الملك أن يخشى على بلده.

وفي رسالة ثانية (EA 246) يجيب (بيريديا) على رسالة الملك مؤكداً أن ابنيّ (لبآيو)[٤] حاكم شكيم أعطيا أموالهما إلى (الخابيرو) وإلى السوتيين لكي يشنّوا الحرب ضدّي، فليعلم الملك ذلك.

ولكن (لبآيو) حاكم شكيم يكتب بدوره للملك (EA 254) مؤكداً أنه سمع أوامر الملك ومكرراً ولاءه له. كما يتهم من يقولون سوءاً بحقّه ويعاملونه من دون عدل، معترفاً أنه دخل (جازر) وكان يقول كل ما هو لي فليأخذه الملك، ولكن أين هو ما يملكه (ملكيلو)؟[٥]، ثم يضيف بأنه يعلم ما يفعله (ملكيلو) ضدّه. أما حول تصرف ابنيه، فيقول إنه لم يكن على علم بأنهما من رفقاء (الخابيرو) موضحاً «سوف أسلّمهما إلى (أدّايا)[٦] مفوض الملك.

حاكم (جازر) (ملكيلو) يكتب بدوره (EA 271) لإعلام الملك بأن الحرب هنا هي قاسية ضده وضدّ (سوارداتا)[٧] حاكم (قيلتو)[٨]، طالباً من الملك إنقاذ بلده من سلطة

---

(١) (Bayawa) حاكم في سورية.
(٢) (Yanhamu) مفوض ملكي.
(٣) (Biridiya) حاكم ماجدّو
(٤) (Lab'ayu) حاكم شكيم (شكمو).
(٥) (Milkilu) حاكم جازر (غزرو)
(٦) (Addaya) مفوض ملكي.
(٧) (Suwardata) حاكم قيلتو.
(٨) (Qiltu) قد تكون قايلا؟

(الخابيرو)، وإذا لم يفعل ذلك، فليرسل الملك عربات لنقلهما إلى مصر خوفاً «من أن يقوم خدمنا بقتلنا»، كما يطلب من الملك استجواب مفوضه (يانخامو) الذي هو في مصر وعلى علم بما يجري.

ومما يشير إلى الحالة السيئة في المنطقة فإن إحدى السيدات، التي ورد اسمها بالسومرية (نين ـ أور ـ ماخ ـ ميش)[١] يدل اسمها على ما يظهر على مرتبتها العالية (ماخ)، وقد تكون ملكة ـ أماً لإحدى الممالك، وقد وجهت إلى الفرعون رسالة أولى (EA 273) تعلمه بأن بلده أحيل إلى العدم بسبب انضمامه إلى الخابيرو، طالبةً من الملك الاهتمام ببلده، كما تعلمه بأن (الخابيرو) كتبوا إلى كل من مدينتي (أيّالونا)[٢] و(صرخا)[٣] وأن ولدا (مِلكيلو)[٤] حاكم جازر[٥] تعرّضا للقتل.

وفي رسالة ثانية (AE 274) من السيدة نفسها، تطلب من الملك أن يعمد إلى إنقاذ بلده من سلطة (الخابيرو) وإلا فإن البلد سيضيع. كما أن صافونا[٦] تمّ احتلالها، فليعلم الملك ذلك.

يمكن الافتراض أن الذين ينقلون الأخبار إلى فرعون مصر في قصره سواء أكانوا من المصريين أو من المحليين، من المرجح أن مخبريهم قد يحمّلونهم عمداً أخباراً ملفقة وغير صحيحة وقد يكون ذلك بقصد البلبلة. إذْ إنه وصلت إلى الملك أخبار مفادها أن ملك (أوروسالم) (عبدي ـ حيبا)[٧] «قطع علاقته بالملك سيده!» ومثل هذه الشائعة اضطر بسببها حاكم (أوروسالم) لتوجيه رسالته (EA 286) إلى الملك المصري مؤكداً أنه من غير الممكن أن يقترف جرماً تجاه الملك، مع العلم كما تقول الرسالة: «ليس أبي ولا أمّي هما اللذان سلّماني هذا المنصب، ولكن ساعد الملك القوية هي التي جعلتني أدخل بيت أبي». كما يوضح أنهم ينمّون بصدده أمام الملك فهل يمكن أن أقول لمفوض الملك: «لماذا تحب (الخابيرو) وتكره الحكام»؟ إنها نميمة بخصوصي لأنني

---

(١) (Nin. Ur. Maḫ. Meš).

(٢) (Ayyaluna) يالو (؟)

(٣) (Ṣarḫa) يرجح أنها (Zorea) إلى الغرب من القدس.

(٤) (Milkilu) حاكم جازر.

(٥) (Gazru) جازر حوالي ٣٠كم إلى الشمال الغربي من القدس.

(٦) (Ṣapuna) موقع مجهول مرجح كونه مرتفعاً.

(٧) (Abdi-Ḫebalt) حاكم القدس وحيبا إلٰهة حورية، ميتانية وإذا ما كتبنا القدس فلتسهيل المتابعة.

أقول: «ضائعة هي بلاد الملك سيدي» لذلك فهم يقولون السوء بصددي. ثم يُعلم الملك أن الحامية التي وضعها الملك هنا، أخذها (إينخامو)[١] بكاملها، ولذلك لا توجد حامية هنا. فليعمد الملك إلى تأمين مستلزمات بلده. جميع مدن الملك انشقّت، و(إيليملكو)[٢] حاكم (جازر) هو سبب ضياع بلد الملك.

يعود حاكم «القدس» إلى الكتابة في (EA 287) ليعلم الملك أن (ميلكيلي) و(تاجي)[٣] أتيا بمحاربين إلى (قيلتو)[٤] ضدّه.

كما يعلم الملك بأنه في حالة حرب، طالباً أن يؤمّن الملك احتياجات بلده موضحاً: أنّ جازر (غزرو) و(عسقلانو) و(لخيش)[٥] أعطيت لها أغذية وزيت وجميع الاحتياجات الأخرى. كما يطلب من الملك تأمين احتياجات فرقة النشابة لدى إرسالها ضد الرجال الذين يقترفون الجرائم ضدّ الملك. مضيفاً: «إذا كانت هناك فرقة نشّابة هذه السنة، عند ذلك يبقى الحكام والبلد في خدمة الملك، وإذا لم تكن هناك فرقة نشابة فلن يكون للملك لا بلد ولا حكام» [. . .]. يعود بعد ذلك لاتهام (ميلكيلو) و(لبآيو)[٦] بأنهما أعطيا بلد الملك إلى (الخابيرو). وهنا يشرح حاكم القدس كيف أن (الكوشيين)[٧] المكلّفين بحراسته حاولوا قتله في عقر داره، ويطلب من الملك إجراء تحقيق بصددهم والاهتمام بأمرهم. كما يطلب من الملك الاهتمام به [. . .]، ثم يستعرض الهدايا التي أرسلها إلى الفرعون وهي [. . .] أسيراً و٥٠٠٠ [. . .] و٨ حمالين من أجل قوافل الملك، وكل هذا صُودر في ضواحي (أيّالونا)[٨]، ويوضح بعد ذلك بأنه لا يستطيع إرسال قافلة (أخرى).

في (AE 288) يكتب حاكم القدس من جديد بادئاً بتمجيد الملك الذي «وضع اسمه في شمس المغرب وشمس المشرق» [. . .]، مضيفاً بعد ذلك بأن المفوّض

(١) (Yanhamu) = (Enhamu) وهو مندوب الفرعون.
(٢) (إيليملكو) = (٤) هو نفسه اسم حاكم جازر في صيغة ثانية.
(٣) (Tagi) حاكم في الكرمل (Ginti-Karmel).
(٤) (Qiltu) قد تكون Qeila (قيّلا).
(٥) (Lakiša) حوالي ٤٠كم إلى الشرق من غزة (تل الدوير).
(٦) (Lab'aya) حاكم شكيم (Shakmu) حوالي ٢٥كم إلى الجنوب من جنين.
(٧) (Kashites) = سكان النوبة (Kashi).
(٨) (Ayyaluna) = (يالو) (؟).

(شوتا)[١] عندما جاء إليه، وضع تحت تصرفه إحدى وعشرين فتاة وثمانين سجيناً كهديّة للملك، طالباً منه الاهتمام ببلده، مذكراً بأن بلد الملك ضائع وأنه في حربٍ اعتباراً من (شيرو)[٢] حتى (جينتي ـ كرمل)[٣].

وبغية إقناع الملك بالتدخل، يذكّره بأن ساعِدَ الملك القوية، احتلت بلد (نهاريما) وبلد (كاشي)[٤]، ولكن الآن فإن (الخابيرو) احتلوا مدن الملك نفسه، إذْ لم يبق للملك أي حاكم، كما أن (توربازو)[٥] تمّ اغتياله على بوّابة مدينة (سيلو)[٦] والملك لم يفعل شيئاً. وخدّام الملك الذين انضموا إلى (الخابيرو) ضربوا (زيمريدّا)[٧]. وحاكم لخيش (يفتاح ـ هدّا)[٨]، اغتيل هو أيضاً على بوابة (سيلو) والملك لم يفعل شيئاً. ويتساءل لماذا لم يطلب الملك منهم حساباً؟ مضيفاً: «فليؤمن الملك احتياجات بلده. وإذا لم تكن هناك فرقة نشابة توفد، فليرسل الملك مفوضه لأرافقه مع إخوتي وعند ذلك نموت بجوار الملك، سيدي».

أما الرسالة التالية (A 289) الموجهة من قبل حاكم القدس (أوروسالم) إلى الملك فإنها تعلمه بأن (ميلكيلو) حاكم جازر لم يقطع علاقته مع (لبآيو) حاكم شكيم (شكمو) ومع أبناء (أرساوا)[٩] لأنهم يريدون الاحتفاظ ببلد الملك لمصلحتهم. والحاكم الذي يقترف أعمالاً كهذه، لماذا لا يحاسبه الملك؟ ثم يضيف:

«إليك ما فعله كل من (ميلكيلو) و(تاجي)، حاكم (جينتي ـ كرمل)، إنهما احتلاّ (روبوتو)[١٠]. والآن بالنسبة (لأورو ـ سالم)، إذا كان هذا البلد هو للملك، لماذا لا يهتم به الملك كما يهتمّ ببلد (غزّاتو)؟[١١].

---

(١) (Shuta) مفوض مصري اسمه مشتق من اسم الإله سيت (Seth).

(٢) (Shéru) منطقة يحتمل أنها سعير.

(٣) (Ginti Karmel) في منطقة الكرمل.

(٤) (Kashi) = اسم النوبة.

(٥) (Turbazu) حاكم (سيلو).

(٦) (Silu) بلد على حدود الدلتا الشرقية (؟).

(٧) (Zimredda) بمعنى (هدد ـ حمايتي): حاكم صيدون.

(٨) (Iaptaḫ - Hadda) حاكم (لاكيشا) = لخيش.

(٩) (Arsawa) وأبناؤه معروفون بعدائهم للفرعون.

(١٠) (Rubutu) مدينة بين جازر والقدس.

(١١) غزة الحالية.

مدينة (جينتي ـ كرمل) تعود (لتاجي). وهناك رجال من (جينتي) كفرقة حماية في (بيت شانو)[١]، فهل علينا التصرف مثل (البآيو) حاكم (شكيم) عندما سلّم بلده إلى (الخابيرو)؟.

وفي رسالة أخيرة تشير إلى (الخابيرو) وهم هنا مجموع المتمردين على سلطة مصر بمن فيهم المرتزقة، يوجّه حاكم القدس رسالة (EA 290) إلى الملك لإعلامه بما نقله (ميلكيلو) و(سوارداتو)[٢] ضد الملك وضد بلاد الملك: إنهما قادا مقاتلين من جازر (غزرو) ومقاتلين من (جيمتو)[٣] ومن (قيلتو)[٤] واحتلا (روبوتو)[٥]، وتحوّل بلد الملك إلى (الخابيرو). والآن وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ مدينة تعود (لأورسالم) هي (بيت ـ نينورتا)[٦]، تحوّلت لجهة رجال (قيلتو). فليستمع الملك (لعبدي ـ حيبا)[٧] وليرسل فرقة لاستعادة بلد الملك من أجل الملك. وإذا لم تُوفَد فرقة نشابة، فإن بلد الملك سيتحول إلى (الخابيرو). ويختتم (عبدي ـ حيبا) حاكم القدس رسالته بأن هذا العمل ضد البلد كان بأوامر (ميلكيلو) حاكم جازر و(سوارداتو) حاكم (قيلتو)، تدعمهما مدينة (جينتي) في الكرمل.

وهذا هو حاكم جازر (يافاحو)[٨] يوجه رسالته (EA 298) إلى الملك، ليبلغه بعد المغالاة في تقديم التبجيل والاحترام بأنه أنصت بعناية إلى كل ما قاله الملك (بواسطة رسوله أو رسالته). ويعلم الملك أن أخاه الأصغر أصبح عدواً له، لأنه دخل مدينة (موخّازو)[٩] واعتبر نفسه مع (الخابيرو). وبما أن (تيانّا)[١٠] هي في حالة حرب ضدّه، يطلب من الملك التفكير ببلده.

---

(١) (Bit Shanu) بيسان.

(٢) (Suwardatu) حاكم قيلتو.

(٣) (Gimto) جات: موقعها قيد النقاش.

(٤) (Qiltu) قد تكون قِيْلا (Qeila).

(٥) (Rubutu) وردت في الحاشية (١٠) ص١٣٧.

(٦) (Bit - Ninurta) موقع غير محدد ومن المرجح أنها ليست بعيدة عن القدس.

(٧) ('Abdi - Heba) هو اسم حاكم القدس متحدثاً عن نفسه.

(٨) (Yaphahu) حاكم جازر.

(٩) (Muhhazu) موقعها غير محدد.

(١٠) (Tianna) موقع قرب (موخّازو)؟.

الرسالة (EA 299) الموجهة أيضاً من (يافاحو)[١] حاكم جازر إلى الملك هي شبه استغاثة ـ إذْ يقول للملك: «بما أن (الخابيرو) هم أكثر قوة منا، فليساعدني الملك ويجعلني أنجو من الخابيرو خوفاً من أن يدمرونا».

وهذا هو (شوباندو)[٢] المعرَّف بأنه حاكم في بلد الملك، يكتب إجابته (EA 305) على رسالة وُجِّهت إليه من قبل الملك، بأنه استمع إلى الكلمات التي وجهها إليه الملك، مضيفاً بأنه يحرس من دون شك مكان الملك، حيث هو. ولكنه يضيف كغيره من الحكام: «بما أن (الخابيرو) هم أكثر قوّة منا، فليهتمّ الملك ببلاده».

أما الرسالة (EA 313) ولا نعرف صاحبها بسبب نقص البداية، الأسطر (١ ـ ١١)، ونفهم منها أن ١٣ تاجراً قتلوا بعد أن هاجمهم (الخابيرو). كما يشير المرسل بأنه سلم مفوض الملك ٤٠٠ مثقال فضة بالإضافة إلى ١٠٠٠ مثقال [...]، وبالتأكيد أن خادمَيْ الملك اللذين لم يكونا [...] قد قُتِلا.

وفي نهاية هذا الاستعراض حول (الخابيرو)، فإن الحاكم (دجن ـ تَكَل)[٣]، الحاكم في سورية، يكتب هو أيضاً مستغيثاً طالباً إنقاذه من الأعداء الأقوياء، من أيدي (الخابيرو) لصوص النهب ومن السوتيين. ونداء الاستغاثة هو: «انقذني أيها الملك العظيم وإلا سأُفقد من أجل الملك سيدي».

و ـ الخلاصة:

يتّضح من الأحداث التي أشارت إليها الرسائل في فلسطين (المرحلة الخامسة من هذا العرض)، أن حركة التحرر من النفوذ المصري بلغت أوجهاً باعتراف عددٍ من الحكام المحليين طالبي الإغاثة، أو الهرب إلى مصر لإنقاذ حياتهم.

كما يتضح من الأحداث مشاركة جيل جديد من أبناء الحكام والملوك المحليين في «الثورة الاجتماعية» بالانضمام إلى حركة التحرر، والوقوف إلى جانب الزعماء الذين تمكنوا، بالاستفادة من سوء معاملة الحكام والملوك المحليين لأتباعهم من الفلاحين والخدم، من تحقيق مشاركة هؤلاء، في العمليات التي لم تخلُ من العنف ونشر

---

(١) (Yapahu).

(٢) (Shubandu).

(٣) (D.gn Takal) اسم يشتمل على صيغة الإله دَجَن ومعناه المتكل على دجن وبعل هو ابن دجن.

الرعب، ولا ننسَ دور المرتزقة (الخابيرو)، في الإلحاح على الفرعون للتدخل. وما يلفت النظر أن الحكام كانوا يطلبون من الفرعون إنقاذ بلده هو، وكأنّ البلد لم يكن لمواطنيه! ما يدل على خضوع مطلق، وقد يكون رياءً لإرضاء غرور الفرعون.

بصورة عامة، يمكن القول إن الحركة التحررية بدأت في الفترة التي كانت فيها مصر مطمئنة إلى قوتها، ومن دون منافس، فأهملت نوعاً ما محمياتها، وبشكل خاص حين بدأ (أمينوفيس) الثالث بعد ٤٠ سنة من الحكم الاهتمام بشيخوخته وبمرضه، وبشكل خاص أكثر عندما تولّى العرش أمينوفيس الرابع (أخناتون) وازداد الإهمال خلال حكمه كما تدلّ على ذلك الرسائل الموجهة إليه دونما استجابة لأنه كان منشغلاً في نشر معتقداته الجديدة وأهمل الامبراطورية والمحميات.

وكما اتضح من المراحل الخمس التي اقترحناها حول انطلاق الثورة التحررية وانتشارها يمكن التلخيص، بأن المرحلة الأولى بدأت في أمورو وتزعّمها عبدي ـ عشيرتا وأبناؤه وأشهرهم عزيرو[1] واتخذ من (صومور) (سيميرا في سهل عكار) عاصمة له، وساهمت فيها (شكا) و(أنفه) و(أميون) والمدن المحيطة بطرابلس الحالية.

أما المرحلة الثانية فقد قادها عزيرو أحد أبناء عبدي ـ عشيرتا بعد اعتقال الأب ومصادرة أمواله من قبل مصر التي قررت التدخل. وفي هذه المرحلة عادت صومور إلى التمرد وشاركتها مدن المرحلة الأولى بالإضافة إلى طرابلس، واقترب الثوار من مدينة جبيل التي طرد منها حاكمها من قبل شقيقه الأصغر ولم يحتل أزيرو مدينة جبيل ولكنه جعل مصر تعترف به حين بدأ يتضح خطر التوسع الحثي.

وفي المرحلة الثالثة انتقلت الحركة التحرّرية إلى البقاع الجنوبي ومن بينها تل حزين قرب بعلبك ومجدل البقاع، ورافقت هذه المرحلة خيانة أحد مندوبي الفرعون وانضمامه إلى المتمردين، ثم انتقلت الحركة إلى منطقة قادش وإلى الشمال من دمشق.

في المرحلة الرابعة دخلت الحركة التحررية إلى المنطقة الواقعة بين طبريا غرباً مروراً بمدينة (تل عشترة) إلى الشرق من الأردن حتى بصرى (أسكي ـ شام) ودمشق و(كوميدو) (كامد اللوز).

---

(١) (Aziru) أزيرو أو عزيرو.

أما المرحلة الخامسة، وهي التي عرفتها فلسطين المنطقة التي كانت مصر أكثر غيرة للمحافظة عليها، فقد تمّ تلخيصها في بداية الفقرة (و) أعلاه.

(٧ ـ ٣) الاستنتاج وآراء الباحثين وخابيرو فترات مختلفة:

تعرفنا في مراسلات العمارنة على مجموعة بشرية سمّيت (بالخابيرو)، ورد اسمها في عددٍ من المراسلات التي قمنا باستعراض محتواها، والتي وجهها ملوك المدن ـ الممالك، في كلٍ من فلسطين ولبنان وسورية، الذين كانوا يخضعون للنفوذ المصري، وهم الحكام المحليون في مفهوم الفرعون الذي، وحده، هو الملك، وهم الذين «ينبطحون أمام قدميه على البطن وعلى الظهر تبجيلاً وخضوعاً وليسوا سوى الغبار تحت قدميه: هكذا كانت تبدأ جميع المراسلات الموجهة إليه. لم نكرر لدى استعراضنا محتوى الرسائل المشيرة إلى الخابيرو، تلك البروتوكولات الخضوعية التي كان معمولاً بها آنذاك ولا تدخل في نطاق هذا البحث. حين كان الفرعون يكتب لمحمياته، كان يوجّه رسائله إلى «رجل المدينة» ذات العلاقة مثال صيدون وجوبلا وأوغاريت ولا يستعمل تعبير ملك أو أمير.

وكما اتضح من الاستعراض أعلاه، كانت بلاد أمورو (الساحل بين طرطوس وطرابلس) هي البادئة بإطلاق حركة التحرر تلك مع المرتزقة الذين رافقوا عبدي ـ عشيرتا وابنه عزيرو من بعده، وليس هناك أيّ غموض، حين كتب حاكم ماجدّو إلى الفرعون في (EA 246) أن أبناء حاكم شكيم الذين انضموا إلى الحركة أعطوا أموالهم إلى (الخابيرو) وإلى (السوتيين). وفي مناسبة ثانية، نعلم (EA 112) أن حاكم جبيل اشترى أحد (الخابيرو) لإدخال أحد مفوضي الملك ليلاً إلى مدينة صومور (سيميرا في سهل عكار). أما الرسالة (EA 195)، فقد صدرت عن حاكم (كوميدو) (كامد اللوز) الذي كتب للفرعون، لدى سماعه بأن فرقة النشابة الملكية، المرهوبة الجانب هي في طريقها نحو المحميات، قائلاً إنه يضع تحت تصرف قائد النشابة جنوده وعرباته وإخوته و(الخابيرو) و(السوتيّين)، واعداً أن يتوجه حيث يريد الملك.

ونحن نعلم من مراسلات سابقة (EA 189) بأن حاكم قادش يتهم حاكم كوميدو بأنه أسلم للنار مدنه وسلم جميع مدن الملك إلى (الخابيرو)، والتسمية هنا تشمل المتمردين ومن معهم من المرتزقة.

هكذا كانت تتم تجاه مصر ازدواجية المواقف وفقاً للحذس السياسي للحكام المتبعين لأخبار مصر الداخلية أو بتشجيع من أحد الحكام المحليين مثال عزيرو الأموري الذي كما أسلفنا، كان يدفع الجزية للفرعون ويعقد في الوقت نفسه، معاهدة مع خاتي، وحين شعر بتهديد الحثيين له عاد لسياسة معاكِسة جاعلاً مصر تعترف بسلطته على أمورو، على أن يقاوم على حسابه تقدم الحثيين في الشمال، وهذا ما لا قدرة له على ضمانه مع أنه وعد بذلك.

(الخابيرو) إذن خلال فترة العمارنة، كان بعضهم يحارب كمرتزق والبعض الآخر يمارس السلب والنهب.

في توضيح قدّمه إلينا الباحث الألماني هورست كلينغل[١] أن غابات بلاد أمورو كانت تقدم ملجأً، لكل عديمي الجذور اجتماعياً، أي (الخابيرو) و(السوتو) في تلك الفترة (ص١٧٦).

وبصدد فلاّحي الممالك الصغيرة والخدم فيها، فإنه من الصعب القول إنهم كانوا يعاملون بعدلٍ وإنصاف، على اعتبار أن محرّكي التمرد من الأموريين، وخصوصاً عزيرو وجّهوا النداءات إليهم لقتل حكامهم والانضمام إلى حركة التمرد، وقد نفّذ بعضهم فعلاً مثل تلك الأعمال. قد يعني ذلك أن التصرف الإقطاعي للملوك المحليين ومَن حولَهم يسمح بالافتراض بأنه لم يكن يخدم مصلحة العامّة من أبناء الشعب.

وبصدد (الخابيرو) أيضاً، يعلمنا الباحث ريمون ڤيل[٢]، أن (الخابيرو) في العمارنة وفي البلاد الحثية لا يمثلون الفئة نفسها، ففي سورية وفلسطين، «إنهم رجال حربٍ أشداء ورهيبون ينشرون الرعب وإنهم استولوا على المدن المجاورة لتجمّعهم، أو أن بعض الحكام المحليين قد جنّدوهم لخدمتهم». ويضيف المؤلف حول معنى هذه التسمية بأن هناك إمكانية إرجاعها إلى جذر «سامي»[٣] بمعنى: «مرتبط» أو «متعاقد»،

---

(١) هورست كلينغل: تاريخ سورية السياسي (٣٠٠٠ ـ ٣٠٠) ق.م ترجمة سيف الدين دياب من منشورات دار المتنبي بدمشق ١٩٩٨.

(٢) La Phénicie et l'Asie accidentale de Raymond Weil collection Armand collin 1939.

(٣) نستعمل هنا استثنائياً تعبير «سامي» لأنه ورد من قبل باحث أجنبي مع الإشارة إلى أن تصنيف اللهجات التي عرفتها منطقتنا اعتبرت سامية بالرجوع إلى سام أحد أبناء نوح في التوراة تبناها عالم نمساوي العام ١٨٧٥، والأفضل اعتبار جميع هذه اللهجات لهجات «عربية قديمة».

أي مرتزق. وهذا تماماً ما يمكن فهمه في العالم اليوناني ـ الروماني لدى استعمالهم تعبير «البرابرة»[١].

أ ـ في بلاد خاتي:

من يشار إليهم تحت هذه التسمية في بلاد خاتي، يمثلون جماعة مستقرة وهم عنصر من السكان كبقية العناصر، ويضيف الباحث[٢]: «إنهم من دون شك يماثلون المهاجرين إلى البلاد الكنعانية الذين دخلوا قبلهم، في زمن مضى وتمّ تفاعلهم واستقرارهم بعد انصهارهم (ص١٢٠).

وفي خاتي أيضاً، هناك ما يشير إلى بعض الأشخاص حين يقال «فلان الخابيرو»، ويمثل هذا اللقب على ما يظهر نوعاً من «الصفة الإقطاعية» (ص١٢٠)، ومثل هذه التسمية وبالمعنى نفسه نجدها في بلاد بابل في النصف الثاني من الألف الثاني بين (١٤٠٠ و١٠٨٠ق.م.).

ب ـ في ماري:

يمكن القول إن ماري، العاصمة السورية الفراتية التي دمرها حمورابي، أشارت في وثائقها العائدة إلى فترة حكم الملك زمريليم (١٧٧٤ ـ ١٧٦٢ق.م)، المعاصر للملك البابلي، إلى «الخطر الذي كانت تشكّله على المدن، الجماعات الهمجية أو العصابات الدخيلة المسماة (خابيرو) و(رابو) و(بني يمينا) و(بني شمال)»[٣].

أما السوتيون، فقد كان لهم دور في تدمير أور ومدن أخرى سومرية، وعرفوا أيضاً بواسطة وثائق ماري، وظهروا منذ منتصف الألف الثالث، ووصفتهم ماري كنهّابين يمارسون السطو، يهاجمون المدن بمجموعات قد تبلغ ٢٠٠٠ محارب، وأولى ضحاياهم هي قطعان الخراف. كانوا ينتشرون في الصحراء الممتدة بين الفرات وقطنة (المشرفة) ومنطقة تدمر، وهم الذين كانوا يقدمون المحاربين المرتزقة إلى الملوك السوريين والحثيين، وورد ذكرهم أيضاً في وثائق أسر حدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ق.م.).

---

(١) المصدر السابق نفسه في الحاشية (٢) في الفقرة (٧ ـ ٣) (Barbares).

(٢) المصدر السابق نفسه ريمون ڤيل (ص١٢٠).

(٣) قاموس حضارات الشرق القديم تأليف (Guy Rachet) ١٩٩٩ باب (Nomades).

ج ـ في ما بين النهرين:

وبالعودة إلى (الخابيرو) يعلمنا المصدر السابق أن اسم الخابيرو، يكتب بواسطة الإيديوغرام السومري (سا ـ جاز)[١] وهو الذي عرفته فترة حكم أور الثالثة (٢١٠٠ ـ ٢٠٠٠ق.م.). وفي الألف الثاني نجدهم منتشرين اعتباراً من عيلام حتى سورية ومصر حيث إن التسمية «أ ف ر و»[٢] اعتُبرت أنها تشير إلى (خابيرو)، وهم عبارة عن مجموعات صغيرة بدوية أو شبه مستقرة حول المدن، كانوا يمارسون أعمال مياومة، أو أعمالاً زراعية لبعض الوقت، وهم «لصوص في يوم ما، وعمّال في اليوم التالي، ومن الصعب تصنيفهم». أما كاشيّو ما بين النهرين، فإن دورهم كان مماثلاً في البداية، إلا أنهم استقروا في ما بعد وانصهروا في مجتمعهم الجديد حتى إنهم حكموا بابل (بداية القرن الرابع عشر حتى ١١٥٥ق.م.) وتابعوا حضارة البلاد.

د ـ في نقش إيدريمي:

هناك معلومات إضافية عن (الخابيرو) في الشمال السوري سبقت العمارنة، وتمّ تبنّيها في نقش الملك إيدريمي ملك موكيش[٣] (١٥٥٠ ـ ١٥٠٠ ق.م.). يروي النقش كيف أن إيدريمي هرب من مملكته بسبب «حادث مشؤوم وَقَعَ في حلب»، حيث عائلته، ولجأ إلى إيمار[٤] على اعتبار أن حكام إيمار هم أقرباء والدته. وأقام فيها مع إخوته الذين هربوا معه، ثم قرر مغادرة إيمار وحده مجتازاً الصحراء حيث قبائل (السوتو)، وقد أشرنا إلى أماكن تجمع تلك القبائل آنفاً[٥].

في اليوم التالي، يوضح النقش، توجّه إيدريمي إلى بلد كنعانوم. وفي بلد كنعانوم تقع مدينة (أميّا): (أميون) حيث كان يوجد فيها مواطنون من حلب ومن موكيش، ومن بلد (نيثي) و(آمائي). انضموا جميعهم إليه عندما عرفوا أنّه ابن سيّدهم.

---

(١) (Sa - Gaz).

(٢) (a p r w) = (أفرو).

(٣) (Mukish) تقع مملكة موكيش على حلقة نهر العاصي إلى الشمال الشرقي من أنطاكية.

(٤) (Emar) مسكنة الحالية على الفرات السوري.

(٥) ورد الإيضاح حول السوتيين (السوتو) لدى عرض (EA 195)، انظر نهاية المرحلة الثالثة لحركة التمرد على مصر في الفقرة (٧ ـ ٣) المقطع (ج).

يقول إيدريمي بعد ذلك إنه أقام سبع سنوات عند (الخابيرو)، حيث كان يطلق العصافير ويُراقب طيرها، كما يتفحّص أمعاء الحملان (لمعرفة قرار الآلهة بصدده)، إلى أنْ أدارَ الإلٰه (تيشوب) نظره نحوه، عند ذلك أعدّ إيدريمي سفناً وتوجه بحراً حول بلد (موكيش) وبلغ اليابسة أمام جبل هازي (الجبل الأقرع = جبل صافون في النصوص الأوغاريتية). عند ذلك سمع به أهل بلده وانضموا إليه[١]، وتمكن من استرجاع ملكيته بعقد معاهدة مع الملك الميتاني المسيطر آنذاك على الشمال وأصبح من حلفائه، تمّ ذلك طبعاً قبل اتساع النفوذ الحثي وامتداده إلى الشمال السوري.

هـ ـ في مصر:

بعد حملة أمينوفيس الثاني (١٤٣٨ ـ ١٤١٢ق.م.) الموافقة للسنة التاسعة من حكمه على الساحل الكنعاني عاد الفرعون بعدد كبير من الأسرى، وفق النصب التذكاري الذي تركه، ومن بين الأسرى ٣٦٠٠ (أبيرو) أو (خابيرو).

أما النصب التذكاري الذي أقامه سيتي الأول (١٣٤٠ ـ ١٢٩٠ق.م.)، وتمّ اكتشافه في بيت شان (بيسان)، فقد ورد فيه ما يشير إلى (الأبيرو) في جبل (يارومتو)[٢]. كما أن الجنرال المصري، وفق رواية تعود إلى نهاية حكم (سيتي الأول)، أو بداية حكم (رعمسيس الثاني) (حوالى ١٢٩٠ ق.م)، طَلَبَ من أمير (يافا) السماح لرجاله (الماريانو)[٣] بإدخال دواب الجرّ خاصتهم وأن يقدم إليها العلفِ اللازم وإلا فإن أحد (الأبيرو)[٤] سيُكلّف بتنفيذ تلك المهمة، وفي فترة حكم رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ق.م.)، هناك رسالة صدرت عن منطقة ممفيس تحمل الأمر التالي: «وَزِّع وجبات إلى رجال الجيش وإلى الأبيرو[٥] الذين ينقلون الأحجار من أجل العمود الكبير [.....]».

---

(١) جميع المواقع الواردة بعد المقطع أعلاه الذي يلي مباشرة الحاشية (٣) تمّ توضيحها في الفقرة (ج) من (٤ ـ ٢)، يرجى العودة إلى حواشيها.

(٢) (Yarumtu) موقع غير معروف.

(٣) (Maryanu) مرافقو قادة المركبات الحربية على الأرجح.

(٤) يتضح هنا أن الجيش المصري كان يستخدم بعض (الخابيرو) في مهمة الاعتناء بالدواب.

(٥) (الأبيرو) هنا، هم عمال في المقالع التي يشرف عليها الجنود.

أما في لائحة التقديمات من قبل رعمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٦) إلى الإله آتوم فنقرأ الجملة التالية: «جنود مركبات أبناء ملوك أجانب[١]، ماريانو، (أبيرو)، [. . . . . .]».

و ـ خاتمة:

على أساس التسميات أعلاه (خابيرو) و(أبيرو) التي عرفت بها البداوة في بعض مراحلها، وفي كل من ضواحي (ماري) على الفرات السوري، وفي أميون من منطقة طرابلس (لبنان)، وفي منطقة الدلتا الشرقية حيث كان المصريون يُبعدون أضرارهم أو يستخدمونهم كمياومين في المقالع، ولا ننسَ خليط من عرفوا بالهكسوس واحتلوا منطقة الدلتا المصرية. . . . كل تلك الإشارات، لا تمثل على الأرجح إلا دلالة على من هم على هامش المجتمع، يمارسون السلب والارتزاق منبوذون بصورة عامة من قبل الممالك المستقرة، حتى أن مصر كانت تلقّبهم «بالراكضين على الرمال» وهم في ما بين النهرين من «لا بيوت لهم، يأكلون اللحم النيّء».

ومن الصعب القول إنهم كانوا يشكلون مجموعة واحدة عبر التواريخ التي استعرضناها وإلى أن يتم استقرار هؤلاء وامتزاجهم بالمستقرين قبلهم يبقون على هامش المجتمعات المتحضرة، يعيشون حول المدن في مراحلهم الأخيرة قبل الاستقرار التدريجي. وأفضل نص حول هذا الموضوع ترويه لنا بلاد (ما بين النهرين) في أسطورة «زواج مارتو». و(مارتو) هي التسمية التي أطلقت على البدوي الأموري في نهاية الألف الثالث، وتروي أسطورة زواجه، قصة شيّقة حيث تعلمنا عن أن بعض هؤلاء، منهم من حفر بئراً ومنهم من بنى بيتاً. . . وبالعودة إلى تلك الأسطورة يمكن فهم مراحل استقرار هؤلاء البدو واندماجهم[٢].

(٧ ـ ٤) الأسباب التي جعلتنا ندرس مجموعة الخابيرو:

كل تلك الفوضى في التسميات، وفي المراحل المختلفة، التي بلغت مطافها

---

(١) أبناء الملوك المحليين كانوا ينقلون كرهائن لتدريبهم على الإدارة المصرية وتحويلهم إلى أصدقاء لمصر.

(٢) انظر كتاب ديوان الأساطير لقاسم الشوّاف، الجزء الثالث (ص٢٣) الصادر عن دار الساقي، بيروت (١٩٩٩).

الأخير باختفاء تلك التسمية منذ القرن العاشر ق.م. كل ذلك حدا بمن طمعوا بفلسطين وكانوا يحاولون ترسيخ جذور لهم فيها وأخذوا ينسجون الأساطير العديدة التي لا تاريخية لها، كما أشير إلى ذلك في بداية هذا البحث (الفصلان الأول والثاني).

أما اليوم، ففي كل مناسبة معاصِرة، تسمح باستثمار غموض ما، في تأويل محتوى تسمياتٍ كالتي عرفها هذا الفصل بالنسبة لمجموعات بشرية هم هنا (الخابيرو)، كان هذا الغموض يدفع الباحثين المعاصرين، سواء أكانوا من الطامعين في أرض فلسطين أو ممن يُمالقونهم، لدعم أسطورة الجذور إلى البدء بمقاربة تعابير:

«خابيرو/ خابيري وأبيري» متسائلين إذا ما كان يمكن إيجاد تعبير «عبري» وراء هاتين التسميتين، مع الاعتراف بأن ذلك استلزم مناقشات عديدة. وها هو أحد المؤلفين يحاول إزالة الشك الواضح علمياً حين يقول: «ولكن المقاربة على ما يظهر أصبحت ضرورية أكثر فأكثر. إلا أنه يجب الانتباه إلى عدم تبني المقاربة على عجالة»[١].

وبالطبع فإن أكثر المؤلفات تتبنّى الاحتمال إلى جانب الشك؟

وهناك مثل آخر لتأويلٍ أكثر استعجالاً في إقراره دونما مناقشة يمكن عرضه كما يلي:

بعد الفوضى التي عرفتها فلسطين في عهدي أمينوفيس الثالث والرابع، كما ورد في مراسلات العمارنة في الفقرة (٧ ـ ٢) من هذا الفصل، وتأسيس الأسرة التاسعة عشرة، يمكن القول إن سيتي الأول (١٣٠٤ ـ ١٢٩٠ق.م.) هو الذي استعاد سلطة مصر في بلاد كنعان وهو الذي وضع حامية مصرية في (بيت شان) (بيسان) (تل الحصن) وفي (يانوعام) (تل النعم) إلى الجنوب الغربي من طبريا. حدث ذلك حوالى عام ١٣١٠ ق.م.

يتضح مما عرض آنفاً حول مصر والساحل الكنعاني، أنه كان من الصعب القول إن الاستقرار والخضوع للنفوذ المصري كانا يستمران طويلاً بعد الحملات الفرعونية المتكررة لضمان ذلك. فقد بدأ فراعنة الأسرة التاسعة عشرة وبينهم الرعمسيان الأول

---

(١) Textes du Proche Orient Ancien et l'histoire d'Israël: Jacques Briend & Marie Joseph Seux, Editions du Cerf 1977 (P64).

والثاني. بمحاولة ضبط تحركات «الشيزو»، وهم البدو المنتشرون بين مصر والشاطئ الكنعاني، وإخضاع كل الذين يتنقلون بين النقب ومصر، إلى «قوانين القصر». وكان لا بد أيضاً من إعادة الحملات على ساحل كنعان، وهذا ما قام به الفرعون (مينفتاح)، بعد أن انتصر في معركة صد هجوم «شعوب البحر»[١] الذين كادوا يصلون إلى قلب الدلْتا إثر معركة عنيفة، كانت فرق النشّابة من أهم عناصر نجاحها.

توفي مينفتاح بعد عشر سنوات من توليه الحكم وهو الابن الثالث عشر لرعمسيس الثاني. وكان تولي الحكم في سن النضج لأنّ والده حكم مدة ٦٠ سنة.

ترك هذا الفرعون نصباً تذكارياً ضخماً في طيبا عام ١٢٢٠ق.م.، يشيد فيه بانتصاراته على الشعوب الآسيوية، ويعدد فيه ما يلي:

«الأمراء ساجدون (طالبون) السلامة. لا أحد يرفع رأسه بين الأقواس التسعة[٢] التيهنو (قبائل ليبية) هو مُقتَحم وخاتي في حالة سلْم، كنعان مجرّدة من كل سوئها.

عسقلان منفية، جازر تمّ احتلالها. (مدينة) يانوعام هي كأنها لم توجد، إسرائيل أُبيد ولمْ تعدْ له بذرة! الهارو هو في حالة ترمّل أمام مصر، جميع البلاد اضطُرت للمسالمة».

يعلق المؤلف الذي أشرنا إليه في الحاشية (١) من الفقرة (٧ ـ ٤) بأن «هذه الإشارة لإسرائيل هي الوحيدة في النصوص المصرية القديمة، وأن هذا النصّ يُقدم أول تقاطع بين نص غير توراتي مع المعطيات التوراتية!» فهل هذا صحيح؟

وإذا ما عدنا إلى النص أعلاه محاولين تحليل محتواه نلاحظ أن نوعاً من عدم التوازن أو التوازي في العرض، فكنعان تعني هنا الساحل الفلسطيني على الأقل الذي جُرِّد من سوئه أو من شروره، ويتابع النص نفي عسقلان واحتلال جازر، ثم ينتقل إلى الشمال الشرقي من ماجدّو حيث مدينة يانوعام (تل النعم) التي أُزيلت من الوجود.

---

(١) من سُمّوا هنا «شعوب البحر» هم قرصان من المتوسط ساعدوا الليبيين (الليبو) والتيهنو (قبائل ليبية قديمة) وتمت المعركة الأساسية ضد الليبيين ولكن نصب مينفتاح أشار إلى انتصاراته في بلاد كنعان.

(٢) الأقواس التسعة هي الشعوب الأولى التي جمعها الفرعون لتشكيل مملكة مصر ويرمز هذا الجمع إلى انتشار السلم بين القبائل.

وهكذا يغطي النص جزءاً من فلسطين الجنوبية حتى الكرمل. يأتي بعد ذلك دور «إسرائيل» الذي أُبيد ولم يعد له بذرة (أي نسل) نذكّر هنا بأننا في عام ١٢٢٠ ق.م، في فلسطين وعلى الشاطئ الكنعاني الذي عرف عبادة الإله ايل الكنعاني من أقصى جنوبه إلى أقصى شماله وأوغاريت حيث إيل هو أب الآلهة وأب البشر هي الإثبات على ذلك. وقد حافظت مدن كثيرة ومواقع عديدة وأسماء بشر على إدخال اسم إيل في صيغتها، وقدّمت إلينا مراسلات العمارنة أمثلة على هذه الأسماء فتعرّفنا على (إيلي رافئ) بمعنى إيل يشفى. و(يبني ـ إيل) أي إيل يخلق. و(رابي ـ إيلو) أي كبير هو إيل، فلماذا إذن لا يكون (إسرائيل) مينفتاح الذي أباد الفرعون بذرته هو رئيس قبيلة كنعانية قاومت مصر؟

يبقى علينا تفسير معنى اسم (إسرائيل)، وهذا التفسير يقدمه إلينا قاموس التوراة، محاولاً إقناعنا بأسطورة المصارعة بين يعقوب و«ملاك الرب»، وسنعود إلى قصة المصارعة في ما بعد. أما المعنى المقترح فهو (شارا إيل) بمعنى إيل (القادر)، أو إيل القوي، وهذا التفسير يلتقي مع ما ألِفناه في (عبد القادر)، أو في اسم (عبد الشافي)، كما ورد في (إيل ـ رافئ). اسم (إسرائيل) في (القادر ـ إيل) هو إذن اسم كنعاني عرفته المنطقة الفلسطينية قبل العام ١٢٢٠ق.م.، ولا غرابة أن يدخل هذا الاسم في نص مينفتاح[١]، وهو إذن كما يمكن الاستنتاج من النص، كما أسلفنا، اسم لرئيس عشيرة أو قبيلة اضطر الفرعون إلى ذكرها في نصبه التذكاري نظراً إلى مقاومتها له على الأرجح.

حَدَث كل ذلك قبل ابتداع أساطير المرويات التوراتية في نهاية القرن السابع وبعده يوم ابتدعت الجذور الأسطورية للطامعين بأرض فلسطين لأن ملكاً وكبير كهنته، حَلِمَا بإثبات حقوقٍ إلٰهية لهما ولأَتباعِهما على تلك الأرض. وكان لا بد لهما الانتقال من اسم يعقوب بن إسحق إلى اسم إسرائيل. ولهذه الغاية ابتُدعت قصة مصارعةٍ في ظلمةِ غابة مع من لا يعرف يعقوب من هو مُصَارِعُه. وبنتيجة هذا الحدث، يعلمنا النص التوراتي، أن الذي أراد اختبار قوة يعقوب كان «ملاك الرب». وقال له هذا الأخير ما معناه: أنت قويّ مثل إيل، لذلك سيكون اسمك (إسرائيل) عوضاً عن يعقوب.

تلك هي القصة الاصطناعية التي ابتدعتها مخيّلة رواة التوراة، لخلق علاقة بين

---

(١) الفرعون المصري الذي انتصر على «شعوب البحر».

أحد الكنعانيين من سكان فلسطين الأصليين، وهذا الجدّ يعقوب الذي «تلت» ولادته ولادة أخيه عيسو، وهو الذي أبعد عن وراثة بركة أبيه إسحق بواسطة حيلةٍ توراتية استَثْمَرَتْ في عملية غشٍ، ضعفَ نظر إسحق وهو على فراشَ الموت.

وعيسو هو إيدوم، وهو في العرف التوراتي من المغضوب عليهم لأنه يمثل بحسب المرويات جدّ الإيدوميين الأعداء.

تذكرنا هذه القصة بتعديل اسم أبرام (أب ـ رام) بمعنى الأب العلي الكنعاني، و(رام) تعني العلو والارتفاع مثل (رام الله) و(رامات. . .)، وهنا أيضاً تُحَوِّلُ التوراة الابن إلى (أبراهام)، ثمّ تبنت اللغة العربية (ابراهيم)، ويعني ذلك أنه لم تكن لمن سُمُّوا (بالعبريين) أي علاقة بالأب العليّ ولكنهم أرادوا تزوير انتمائهم إليه كما حدث ذلك مع ابتداع قصة ملاك الرب.

ونشير منذ الآن إلى أن كل ذلك سيتضح أكثر فأكثر عبر تقدم عرض هذا البحث وعبر تقديم تاريخ فلسطين القديم كما أردنا أن يكون معتمداً على الحقائق التاريخية وحدها.

الفصل الثامن

(٨) معلومات مكمّلة عن فلسطين في تواريخ مختلفة

(٨ ـ ١) تقديم الفصل.

(٨ ـ ٢) مدينة شكيم في توسع مصري

(٨ ـ ٣) مدينة حاصور الفلسطينية في مراسلات مملكة ماري

(٨ ـ ٤) تحتمس الثالث يحتل ماجدّو

(٨ ـ ٥) فلسطين في مراسلات تل العمارنة

(٨) معلومات مكمّلة عن فلسطين في تواريخ مختلفة

(٨ ـ ١) تقديم الفصل:

نخصّص هذا الفصل لعرض نصوص ومعلومات متعددة تتعلق بفلسطين لا يمكن إغفالها في سياق هذا البحث لكونها مكمّلة لما تمّ عرضه حتى الآن. وتتوزع تواريخها ما بين نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد ونهاية القرن الرابع عشر[١].

نبدأ بالتذكير باحتلال مدينة شكيم الكنعانية من قبل الفرعون سيستوريس الثالث، مع الإشارة بعد ذلك إلى أنه من المفيد عدم إغفال التفتيش في مراسلات مملكة ماري عما قدمته إلينا تلك المراسلات عن فلسطين. ومن ثمّ استكمال علاقة مصر مع الساحل الكنعاني، بعرض نقش تركه لنا تحتمس الثالث بنهاية القرن الخامس عشر ق.م حين احتل مدينة ماجدّو، ما يتيح لنا التعرف إلى مناقشة خطة الغزو في اجتماع رئاسة أركان الجيش المصري، كما نتعرف إلى غنى تلك المدينة بعد الغزو.

أما عن مراسلات العمارنة، فإننا لم نتعرّض في ما سبق (الفقرة ٧ ـ ٢ من الفصل السابق) إلا على المراسلات التي تضمنت الإشارة إلى (الخابيرو) التي لا تشكل سوى ١/٧ تقريباً من مجموع الرسائل ونرى طبعاً أنه من المفيد إضافة ما يمكن عرضه عن فلسطين في بقية الرسائل.

---

(١) نذكّر هنا، بأننا نستعمل تسمية فلسطين في فترات تاريخية، لم تكن بعد الأرض التي نروي قصة تاريخها القديم قد اكتسبت تسميتها الفلسطينية، وذلك تسهيلاً للعرض.

وعلى هذا الأساس فإن هذا الفصل سوف يتبع عرض الفقرات التالية:

(٨ ـ ١) تقديم الفصل (كما قدم أعلاه)

(٨ ـ ٢) مدينة شكيم في توسع مصري

(٨ ـ ٣) مدينة حاصور في مراسلات ماري

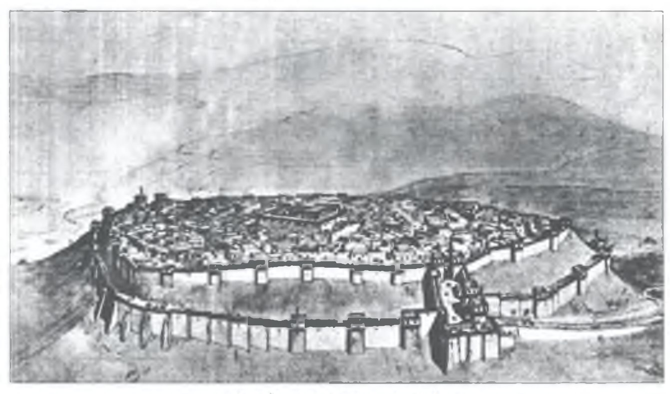
(٨ ـ ٤) ماجدّو وتحتمس الثالث

(٨ ـ ٥) فلسطين العمارنة في القرن الرابع عشر

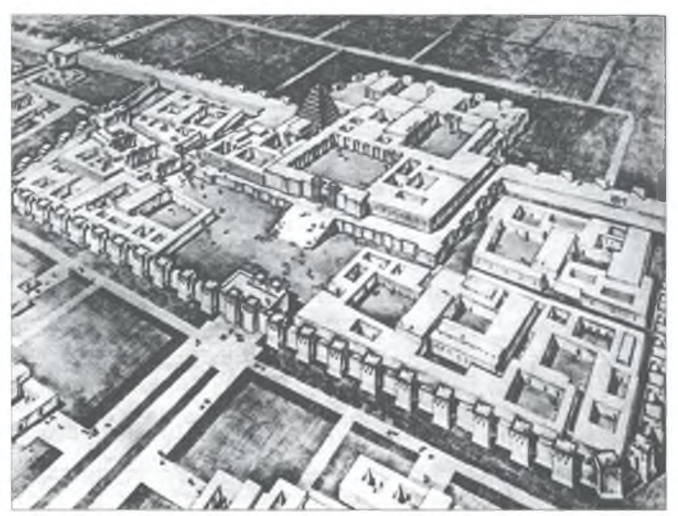
(٨ ـ ٢) مدينة شكيم في توسّع مصري:

تعرّفنا في الملخّص العام لمصر والساحل الكنعاني على التوسع المصري الذي حصل خلال حكم سيستوريس الأول في الجنوب متعدّياً الشلال الثالث، وتعرّفنا كذلك إلى التوسع الذي حقّقه سيستوريس الثالث (١٨٧٨ ـ ١٨٤٣ق.م.) حين اتجه نحو الساحل الكنعاني حيث احتل مدينة شكيم الفلسطينية، وقد عرضنا ذلك في نهاية الفقرة (٥ ـ ١) من الفصل الخامس.

تلا ذلك توسع اختلطت فيه الهجرة مع الاحتلال، قام به كنعانيون بالاتجاه المعاكس الذي عرفته منطقة الدلتا المصرية وهو احتلال الهكسوس الذي أشرنا إليه في الفقرة (٥ ـ ٢) من الفصل الخامس ويمكن العودة إلى ذلك الملخص.



مدينة لخيش المحصنة كما تصورها أحد المنقبين



«دور شاروكين» القصر الذي بناه سرجون الثاني
والذي فضّل عليه ابنه سنحريب قصر نينوى ما سهل استعادة شكله من قبل المنقبين

(٨ ـ ٣) مدينة حاصور الفلسطينية في مراسلات مملكة ماري:

تقع مدينة ماري قرب الفرات السوري على بعد حوالى ١١كلم إلى الشمال الغربي من مدينة البوكمال. اكتشفت اعتباراً من عام (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) من قبل المنقب الفرنسي أندريه پارّو[١]، وقد تمّ في تلك المدينة اكتشاف وثائق ملكية بلغ عددها (١٤٠٠٠) لوحة إدارية واقتصادية ومراسلات، لم يتمّ حتى اليوم الانتهاء من نشر محتواها، وتعود بمعظمها إلى فترة حكم الملك (زمريليم) (١٧٨٢ ـ ١٧٥٩ق.م.).

أ ـ رسالة ملك آشور:

في رسالة صدرت عن (شمسي ـ حدد) الأول (١٨١٤ ـ ١٧٨١ق.م.) ملك آشور،

---

(١) (André Parrot).

موجهة إلى ابنه (يسمح ـ أدو)، وكان آنذاك نائباً لملك ماري، تضمنت إعلامه بأن مسافرين قادمون من حاصور، ورسلاً موفدون من قبل أربعة ملوك من آمورو. وهذه الرسالة التي لم يكن قد نشر محتواها حتى عام ١٩٧٧ ورد ذكرها من قبل الباحث ج. دوسّان[١] في العام ١٩٥٧، وليس لدينا مصدر آخر يشير إلى محتواها في الوقت الحاضر.

ب ـ رسالة من مدير قصر ماري:

يعلم ملكه زمريليم ما يلي:

«هناك رسل قادمون من (بابل) و(إشنونا)[٢] و(إيكالاّتوم)[٣] و(كارانا)[٤] و(قابرا)[٥] و(عرّافا)[٦] وهم موفدون إلى (يمْحاد)[٧]، وإلى (قطنا)[٨]، و(حاصور).

ثم يسأل الملك:

«هل عليّ احتجازهم أم أدعهم يتابعون طريقهم؟

ج ـ إقامة طويلة في حاصور:

في رسالة ثانية صادرة عن مدير قصر ماري نقرأ ما يلي:

«رسولان بابليان مقيمان منذ زمن طويل في حاصور ومعهما مرافقوهما وهما في طريقهما إلى بابل».

د ـ حاصور ومعدن القصدير:

في لوحة تجارية صدرت عن قصر ماري، هناك إشارة إلى إرساليات قصدير من

---

(١) Georges Dossin.

(٢) (Eshnuna).

(٣) (Ekallatum).

(٤) (Karana).

(٥) (Qabra).

(٦) (Arrapha).

(٧) (Yamḫad) = حلب.

(٨) (Qaṭna) = تل المشرفة.

مدينة ماري التي كانت محطّة مرور القصدير المتوَرَّد من عيلام مروراً ببابل وبماري، وموجَّهاً إلى منطقة المتوسط، وبشكل خاصّ إلى مدينة حاصور الفلسطينية التي خصصت لها ثلاث إرساليات باسم أميرها (يبني ـ أدّو). يعني ذلك أن مدينة حاصور كانت ممراً تجارياً مهماً على طريق القصدير الموجّه من ماري الذي يلج فلسطين اعتباراً من قادش مروراً بوادي العاصي ثمّ البقاع ووادي الليطاني ثم الضفة الشرقية من الأردن حتى ممر (جيزر إيل)، ثمّ شمالاً نحو المتوسط (عكا) أو بقية المدن الفلسطينية في الجنوب. ولا ندري إذا كانت مصر تستفيد بدورها من قصدير بلاد عيلام. وكانتْ لِمعدن القصْدير أهميته لأنه يدخل في عملية الحصول على معدن الشَبَهْ (البرونز) الذي هو أقسى من النحاس.

(٨ ـ ٤) تحتمس الثالث يحتلّ ماجدّو:

حدث ذلك عام ١٤٦٨ ق.م خلال السنة الثالثة والعشرين من حكم تحتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق.م.). نقشت تفاصيل ذلك الاحتلال على جدران معبد الكرنك من قبل كتبة الملك. ويروي النقش أن إعداد وإدارة ذلك الاحتلال كانت كما يلي:

«خلال اجتماع الملك المصري بمستشاري جيشه المظفّر أعْلَنَ أمامهم: إن العدو المقيت، عدو قادش، وصل ودخل (ماجدّو)، وهو فيها الآن، وقد جمع حوله أمراء حورو[١] وأمراء (كود)[٢] وأحصنتهم وجيوشهم، وقال (أي العدو) هكذا نُقِل الخبر: «سوف أنتظر هنا في ماجدّو لأحارب ضدّ صاحب الجلالة». فقال أحدهم، بحضور صاحب الجلالة: «لماذا سوف نمشي على ذلك الطريق الذي أصبح ضيّقاً؟ لقد قيل إن العدو هو هنا[٣] ينتظر في الخارج ويزداد عدداً بشكلٍ دائم. أولاً يجب أن يتبع الحصانُ الحصانَ وكذلك الجيش والجموع؟ هل على مقدّمتنا أن تحارب بينما تنتظر المؤخرة هنا في (آرونا)[٤] من دون التمكن من القتال؟

---

(١) (Huru) الحوريون أو الميتانيون على الأرجح.

(٢) (Kode).

(٣) من المؤكد أن الفرعون وضبّاط أركانه كانوا يتدارسون خطتهم أمام خريطة للمنطقة ويمكن متابعة مناقشتهم أمام خريطة فلسطين الطبيعية تظهر الوديان والتضاريس.

(٤) (Aruna) قرب القدس.

هناك طريقان آخران (لتحاشي الطريق الضيق) الأول كما ترى، هو إلى الشرق بالنسبة إلينا وهو يؤدّي إلى (تعناق)[1]. أما الطريق الآخر فهو إلى الشمال من (جيتي)[2] ويؤدي بنا إلى شمال (ماجدّو).

فليتقدم سيدنا المظفّر على أحد الطريقين الذي يحلو لقلبه ولكن ألاّ يجعلنا نسلك ذلك الطريق الصعب».

عند ذلك نُقِلت المعلومات عن ذلك العدوّ التعس وتمّت مناقشة الخطّة كما بحث سابقاً وما قيل في جلالة البلاط الملكي، حياة وصحة وقوّة: «أنا أقسم، كما هي حقيقة أن رَعْ يحبّني وأن أبي آمون يفضّلني، وأن منخريّ هما ممتلئان بالحياة وبالرضى، إن جلالتي سوف تتقدم على طريق (آرونا) ومن يرغب منكم فليأتِ معي! انظروا، إن الأعداء الذين يمقتهم (رع) سيقولون: إن صاحب الجلالة لم يسلك الطريق الآخر لأنه يخشانا، هكذا سوف يتكلمون».

> بعد ثلاثة أيام كان الملك في مدينة (آرونا)، ومن هناك جعل جيشه وهو على رأسه يسلك طريق الوادي الضيّق، حيث يسيل نهر (قينا)[3]. وخلافاً لما هو منتظر فإن ذلك الممر إلى ماجدّو لم يكن محروساً من قبل العدو، الذي كان ينتظر وصول الجيش المصري من أحد الطريقين الآخرين.

«في العام ٢٣، في اليوم الحادي والعشرين، اليوم الأول للقمر الجديد، ظهر الملك في الصباح، أصدر الأمر عند ذلك بأن يمرّ الجيش بكامله... يخرج جلالته على مركبته المصنوعة من الذهب الخالص، حاملاً جميع أسلحته للمعركة مثل حورس القوي الساعد، سيد التقدمة مثل (مونتو)[4] الطيبي، بينما والده (آمون) يقوّي ساعده.

كان الجناح الجنوبي لجيش صاحب الجلالة على الهضبة إلى الجنوب من نهر (قينا)، وكان الجناح الشمالي في الشمال الغربي من (ماجدّو)، وجلالته كان يوجد في

---

(١) (Ta'anak) أو (تعناك) مدينة إلى الجنوب الشرقي من (ماجدّو).

(٢) (Gefti).

(٣) (Qina).

(٤) (Montou).

الوسط، بينما كان (آمون) حارس حياته في الالتحام وأن قوة (سيث)[١] في ساعديه.

انتصر عليهم صاحب الجلالة على رأس جيشه. وعندما رأوا جلالته يتغلب عليهم، فرّوا بسرعة قصوى نحو (ماجدّو) وعلى وجوهم علامات الخوف بعد أن تركوا أحصنتهم ومركباتهم من الذهب والفضة وذلك لكي يُعمَدَ إلى رفعهم إلى تلك المدينة محمولين بواسطة ألبستهم، لأن أهالي المدينة كانوا قد أغلقوها أمامهم ولكنهم قبلوا أن تؤخذ ملابسهم لكي يتمّ رفعهم إلى داخل المدينة.

عند ذلك، لو لم يقرر جيش جلالته الاستيلاء على أملاك العدو، لكان قام باحتلال المدينة. وأن جماعة عدو قادش التعيس، هؤلاء كان يجب رفعهم للدخول إلى مدينتهم لأن الرهبة التي سبّبها جلالته دخلت في أجسادهم، وأن سواعدهم أصابَهَا الوهن ولأن تاجه الأفعوي تغلب عليهم».

بعد أن جمع جلالة الملك الغنائم المبعثرة، قام بحصار المدينة الذي دام وفقاً لنقوشٍ أخرى مدة سبعة أشهر قبل أن يخضع الأمراء، ويتابع النقش تعدادِ الغنائم التي حملها معه الملك.

لائحة الغنائم التي حملها جيش صاحب الجلالة:

٣٤٠ سجيناً حيّاً و٨٣ عبداً، ٢٠٤١ حصاناً و١٩١ فرساً و٦ أمهار، ومركبة عائدة للعدو ومحملة بالذهب. . . . . ، ٨٩٢ مركبة عائدة لجيشه التعيس المجموع ٩٢٤، قميص حماية جميل واحد مصنوع من حلقات برونز مترابطة عائد لأمير ماجدّو و٢٠٠ قميص من الجلد تعود لجيشه التعيس، ٥٠٢ قوساً و٧ سلالم مشغولة بالفضّة وهي من خشب الميرو».

يقدّم هذا النقش صورة عن مدينة ماجدّو المحصَّنة وغناها. وهي الواقعة في نقطة استراتيجية لأنها تتحكم بأحد مداخل السهل الممتد إلى الشرق من جبل الكرمل.

وسوف نعود إلى هذه المدينة بمناسبة معركة عرفتها منطقة ماجدّو في عام ٦٠٩ ق.م.

---

(١) (Seth) إله الجفاف شقيق وعدو (أوزيريس)

(٨ ـ ٥) فلسطين في مراسلات تل العمارنة:

أ ـ عودة إلى مصر والساحل الكنعاني:

عرضنا في الفصول السابقة علاقة مصر بالساحل الكنعاني والأسباب التي حدت بمصر للاهتمام بذلك الساحل وخصوصاً ساحل «فلسطين» الحدودي. كما ذكّرنا بعلاقة مصر الوثيقة والقديمة جداً بمدينة جبيل (چوبلا) اللبنانية، التي بدأت اعتباراً من بداية الألف الثالث ق.م، وكان يغلب عليها احتياجات مصر إلى أخشاب غابات لبنان والمواد الصمغية والراتنجية، مبديةً احترامها لسيدة جبيل «لبعلة جبيل» بتقديم الهدايا لمعبدها. ولا ننسى أن التابوت الذي سُجنَ فيه الإلٰه (أوزيريس) من قبل أخيه (سيت) وألقاه في النيل، وصل كما تروي الأسطورة إلى شاطئ مدينة جبيل، واحتضنته شجرة في قصر تلك المدينة، ما حدا بالإلٰهة إيزيس للذهاب إلى لبنان لاستعادة التابوت وإنقاذ أوزيريس في تلك المرحلة.

تدلّ الأسطورة أعلاه على قدم العلاقة بين مصر والساحل الكنعاني، وقد تطورت هذه العلاقة تدريجاً في تحولها إلى علاقة نفوذ وحماية لذلك الساحل، رافقتها جزية كان يقدمها الملوك والأمراء إلى فرعون مصر ثمناً لذلك.

يمكننا التعرف من خلال هذا البحث، وتدريجيّاً إلى الأحداث والمناسبات التي تروي ذلك التاريخ للنفوذ والحماية والتوسع بالاعتماد على ما قدّمته إلينا نقوش مصر على جدران معابدها ونصوص المعاهدات والاتفاقيات المعقودة بين دول المنطقة، وكذلك المراسلات الدبلوماسية التي اكتشفت في وثائق الممالك ومحفوظات قصورها.

ب ـ التعريف الإجمالي بمراسلات العمارنة:

تلقي تلك المراسلات نوراً ساطعاً على منطقة الساحل الكنعاني وداخله بدءاً من حكم أمينوفيس الثالث (١٤٠٢ ـ ١٣٦٤ق.م.) ومن ثم حكم خلفه أمينوفيس الرابع (أخناتون) (١٣٦٤ ـ ١٣٤٧ق.م.)، ومن تلاهما حتى عام ١٣٠٦ ق.م، وهي المراسلات التي عُثِر عليها في العمارنة، مشتملةً على ما تلقاه أخناتون شخصياً وما نقله من المراسلات التي تلقاها والده أمينوفيس الثالث وذلك لدى انتقاله إلى عاصمته الجديدة في العمارنة.

وعلى الرغم من أن الرسائل التي تهمّنا، لا تغطي أكثر من فترة ٢٠ ـ ٣٠ سنة من علاقة مصر بالساحل الكنعاني، إلا أنها تقدّم إلينا صورةً حيّة عن تلك المرحلة التي يمكننا أن نقول عنها إنها كانت مضطربة، إذْ إنّ منطقة النفوذ المصري هذه، في ساحلها وفي داخلها، حاولت آنذاك التحرر مستفيدةً من إهمال مصر لسهرها على المنطقة، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً.

لدى بحثنا في محاولة تفسير تسمية (الخابيرو)، قمنا باستعراض محتوى ٥٣ رسالة أشارت إلى تلك المجموعات البشرية، وتعرفنا من خلالها إلى أهم وقائع الفترة المضطربة التي عاشتها ممالك مدن الساحل الكنعاني.

أما مجمل المراسلات التي وصلتنا فيلغ عددها (٣٥٠) رسالة موزعة كما يلي:

المرسِل/ المرسَل إليه	أرقام التصنيف	العدد
بلاد بابل	EA (1-14) [١]	١٤
آشور	EA (15, 16)	٢
جزيرة آلاشيا[٢]	EA (33-40)	٨
الميتاني	EA (19-30)	١٢
بلد أرزاوا[٣]	EA (31, 32)	٢
بلاد خاتي	EA (41-44)	٤
فلسطين/ لبنان/ سورية	الباقي	٣٠٨
	المجموع	٣٥٠

ج ـ المراسلات صورة حيّة عن مدن ـ الممالك الفلسطينية:

يتضح من الجدول السابق أن معظم المراسلات التي عثر عليها في العمارنة كانت متبادلة مع الشاطئ الكنعاني وسورية الداخلية، ونقدم في ما يلي بالنسبة لفلسطين المدن المعْنية بتلك المراسلات، مع إيضاح أسماء أمرائها وملوكها وحكامها خلال فترة العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد:

---

(١) (EA) الحرفان اللاتينيان اللذان استعملا لتصنيف مراسلات العمارنة، يتبعهما رقم اللوحة المحتوية على الرسالة، وهما يشيران إلى الموقع (El-Amarna).

(٢) (Alashia) وهي جزيرة قبرص.

(٣) (Arzawa) بلد إلى الغرب من كيليكيا.

المدينة ـ المملكة	الموقع	الملك/ الأمير/ الحاكم
غزاتو (غزة)	على الساحل في الجنوب من القطاع	(EA 33-296-289) [١]
عسقلونا (عسقلان)	شمالي غزة (٢٥كلم)	إيديا[٢]
صرخا[٣]	غربي القدس	(EA 273)
جازر	حوالى ٢٧كلم جنوب غربي يافا	ميلكيلي (ك)، ثم بعلو ـ شيفتي (ك)، ثمّ يافاحو (ك)
يافو (يافا)	على الشاطئ شمالي جازر	أدّا ـ دانو (ك)
لخيش (لاكيشا)	حوالى ٤٥كلم جنوب غربي القدس	زيمريدًا (ك)، ثمّ (يبني ـ إيلودك)
قيلتو[٤]	حوالى ٤٠كلم شرقي عسقلان	شُواردادا (هـ)
أوروسالم	لا لزوم للتحديد	عبدي ـ حيبا (ح)
أيالونا (يالو)	حوالى ٥كلم شرقي جازر	(EA 273-289)
روبوتو	بين جازر والقدس	(EA 289-290)
جنين (جينا)	حوالى ٢٠كلم، جنوب شرقي ماجدّو	(EA 250)
بورقونا	حوالى ٤كلم غربي جنين	(EA 250)
جيمتو (جات)	موقع قيد النقاش	(EA 290)
جيتي كرمل	قرب الكرمل	تاجي (هـ)
تعناك	قرب ماجدّو جنوباً	إيشاداتا (هـ)[٥]
رُمّانا (رِيمّون)	قرب تعناك	(EA 250)
ماجدّو	٣٥كلم جنوب شرقي حيفا	بيريديا (هـ)[٦]
شكيم	٣٧كلم جنوبي ماجدّو	لبآيو (ك)[٧]
يورصا	موقع غير محدد	فو ـ بعلو (ك)

(١) عندما لا يشار إلى اسم الحاكم أمام اسم مدينة ما، فهذا يعني أنها كانت تابعة لحاكم آخر، ولذلك أشرنا إلى الرسالة أو الرسائل التي ورد فيها اسم المدينة.

(٢) (Idiya).

(٣) (Ṣarha).

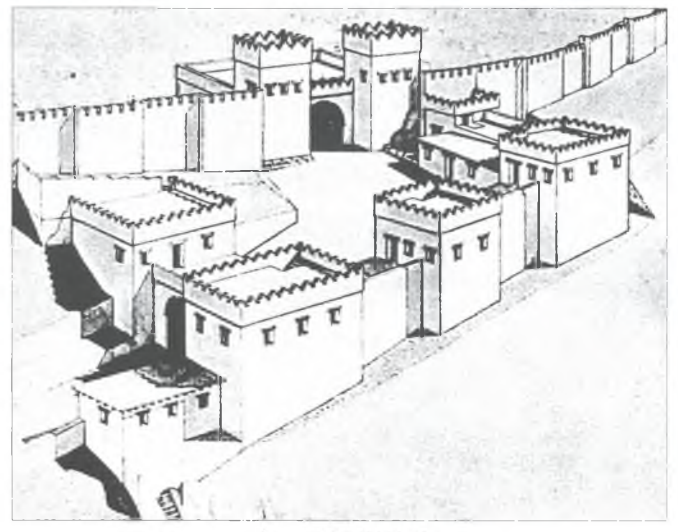
(٤) (Qiltu).

(٥) (Ishadata).

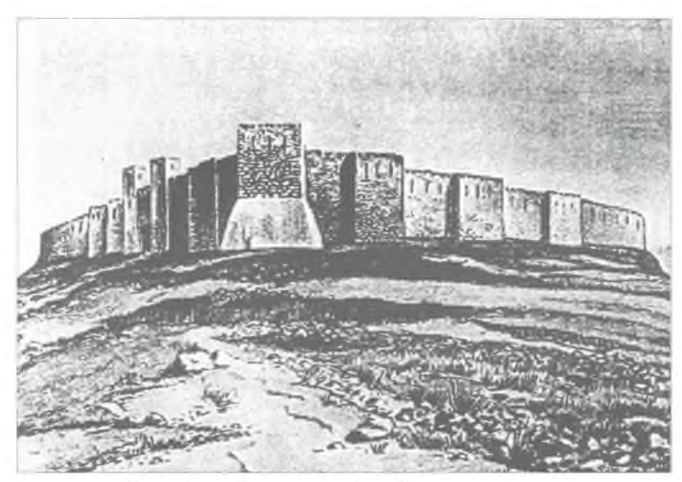
(٦) (Biridiya).

(٧) (Lab'ayu).

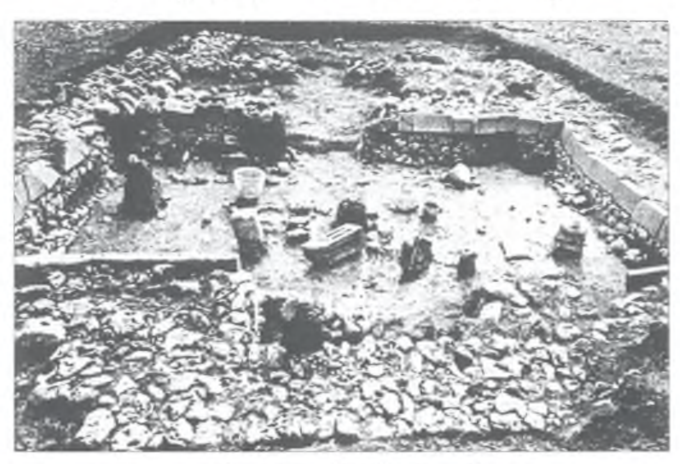
المدينة ـ المملكة	الموقع	الملك/ الأمير/ الحاكم
بيت شان (بيسان)	٢٠كلم إلى الشرق من جنين	(EA 289)
عكا	٢٠كلم شمالي حيفا	زاتانا (هـ)، ثم زورا (هـ)
أكشافا	قرب عكا	إيتارونا (هـ)
حاصورا	١٥كلم شمالي طبريا	[....]
أشرنا إلى إتنية الحكام والملوك بدلالة أسمائهم كما يلي:	(ك) كنعاني؛ (ح) حثّي؛ (هـ) حوري/ ميتاني	



استعادة شكل بوابة سور ماجدّو



سور المدينة القديمة على تل النصبة الواقعة إلى الشمال من القدس على بعد ١١كلم



بقايا معبد كنعاني تم اكتشافه في الشمال من حاصور

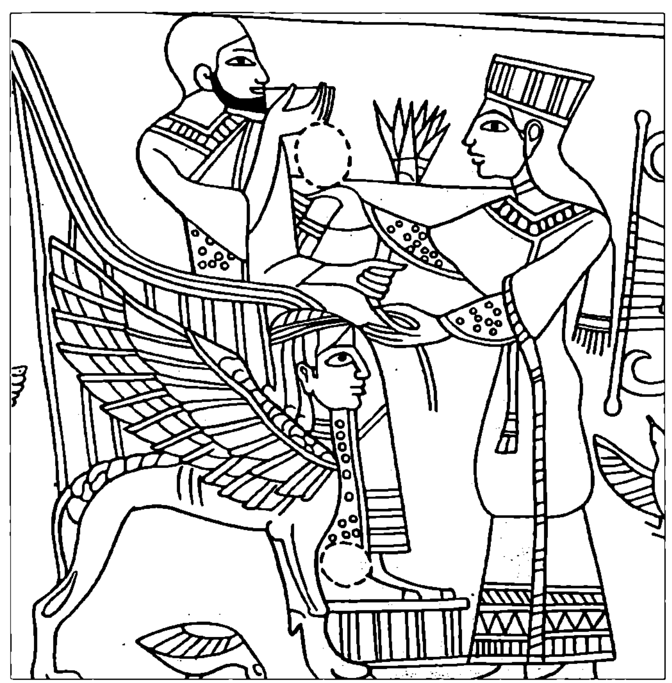


بقايا معبد كنعاني تم اكتشافه في الشمال من حاصور

وهكذا نرى، وفقاً للجدول السابق، أن فلسطين العمارنة[١] كانت عامرة بمدنها وممالكها، وقد اتضح لنا ذلك أيضاً منذ فترة اللعنات المصرية في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م (انظر الفصل السادس من هذا البحث). كما نلاحظ بالاعتماد على أسماء الملوك والأمراء والحكام، أن بعضهم في الشمال يحمل أسماءً تدلّ ظاهرياً على إتنية هندو ـ أوروبية، وتدل أسماء أخرى على إتنية حورية (ميتانية)، والمثال الوحيد في الجدول أعلاه هو اسم ملك أوروسالم (عبدي ـ حيبا).

ويجب ألا نستغرب ذلك، فالهجرات العديدة الخارجية والداخلية التي عرفها الساحل الكنعاني والتي أشرنا إليها في الفصل الرابع، كان من شأنها التفاعل مع السكان الأصليين والاندماج في مجتمع البلاد، دونما تفرقة «عنصرية». ونحن نعلم مثلاً أن الكاشيين في ما بين النهرين، وهم هندو ـ أوروبيون، حكموا في بابل، بعد سرجون الأكادي وخلفائه، وانصهروا بشكل طبيعي، وتمكنوا من متابعة حضارة البلاد وأدبها

(١) القرن الرابع عشر ق.م.



أمير كنعاني على عرشه يحتسي شراباً وبيده زهرة لوتس تقدمها إليه المرأة أمامه
تفصيل عائد على الأرجح لتزيين غمد من العاج

بنجاح. وكذلك كان وضع خليط آشور والميتانيين مع السكان الأصليين في ما بين النهرين، والآشوريون هم الذين احتلوا الجزء الشمالي من فلسطين في الجليل والسامرة وأتوا بسكانٍ جدد من جميع أنحاء امبراطوريتهم، وشجعوا التجارة التي برعوا بتنظيمها[١]، فازدهرت البلاد وأصبحت محسودة من قبل الجنوب «الفلسطيني» الذي لم يكن آنذاك قد اكتمل نموه الاجتماعي والاقتصادي.

(١) كما برعوا في الحرب حتى أن ذلك تغلب على سمعتهم.

وهكذا كان دور «الفيلست»[١] من «شعوب البحر» الذين استقروا على ساحل الجنوب الفلسطيني حوالى ١٢٠٠ ق.م، وتبنّاهم الساحل، ودافعوا عنه حتى أنهم أعطوا اسمهم، فلسطين، لذلك الساحل من أقصى جنوبه حتى عكا ضمناً في شماله.

وبالعودة إلى إتنيات الساحل الفلسطيني، كما وردت في الجدول السابق، يمكن القول إن الأسماء الكنعانية (ك) كانت شبه أكثرية، ويجب ألا ننسى أن تعيين الحكام في منطقة نفوذ مصرية كان يسمى من قبل مصر إلى تسمية حكام من إتنية مختلفة عن أغلبية السكان لأسبابٍ لا تخفى على أحد، تخدم المصلحة المصرية.

د ـ المراسلات وبقية الساحل والمدن الداخلية:

لا بد لنا من استكمال جدول المدن الفلسطينية بذكر عدد من مدن ـ الممالك الأخرى التي كانت منتشرة في شرقي الأردن وفي الشمال السوري وعلى بقية الساحل الكنعاني.

● بالنسبة لشرقي الأردن، فإن المدن التالية ورد ذكرها في المراسلات وهي:

صافوما (موقع غير مؤكد)	**وأميرتها (بعلة ـ أور ـ ماخ ـ بيش) (ك)**
شمهونا[٢]	**وأميرها شامو ـ أذو (ك)**
پيلا[٣]	**وأميرها متّ ـ بعلو (رجل بعل)**
أرارو[٤]	
هايونو[٥]	**إلى الشرق من طبريا EA 256)**
ميشتا[٦]	
يابيلوما[٧]	
عشتراتو[٨]	**تل عشترة (٣٧كلم إلى الشرق من طبريا) (EA 256)**

---

(١) (Philist) وهي التسمية الهندو ـ أوروبية لأصل الفلسطينيين.
(٢) (Shamhuna).
(٣) (Pella).
(٤) (Araru).
(٥) (Hayyunu).
(٦) (Meshta).
(٧) (Yabiluma).
(٨) ('Ashtartu).

● أما في وادي العاصي والليطاني فلدينا:

قطنا[١] (تل المشرفة)	وأميرها (أكيزى) (ح)[٢]
قادش (تل النبي مند)	وأميرها (شوتاتارّا) (هـ)[٣]
	ثمَ (أرزاويا) (هـ)[٤]
لاپانا[٥] (لبوقد)	وأميرها تِيواتّي (ح)[٦]
توشولتي[٧] (قرب تل حزبي)	وأميرها آماهاتپي[٨] (مصري)
هاشابو[٩] (تل حشبه)	وأميرها بييري[١٠]
حازي[١١] (تل حزّين محتمل، قرب بعلبك)	وأميرها (إيلْدِيا)[١٢]
	ثم ماريازانا[١٣] (هـ)
كوميدو[١٤] كامد اللوز	وأميرها آراهاتّو[١٥] (ح)
جيلونو[١٦] (قرب حازي)	(EA 185)

---

(١) (Qaṭna).
(٢) (Akizzi).
(٣) (Shutatarra).
(٤) (Arzawiya).
(٥) (Lapana).
(٦) (Tivatti).
(٧) (Tusholti).
(٨) (Amahatpe).
(٩) (Hashabu).
(١٠) (Bieiri).
(١١) (Ḫazi).
(١٢) (Ildiya).
(١٣) (Mariazana).
(١٤) (Kumidu).
(١٥) (Arahattu).
(١٦) (Gilunu).

● في ما يتعلق (بدمشق) (دمشقو) (EA 53, 107, 197)، والمدن المحيطة بها مثال (بوصرونا بصرى وآفو (أو أوفو) و(كوميدو) (كامد اللوز)، سيكون لها دورها في المرحلة الآرامية التي عرفتها المنطقة (الفصل التاسع).

● أما المدن التي أدّت دوراً مُهِماً في حركة التحرر من النفوذ المصري فقد كانت مدن منطقة (أمورو) وساحل لبنان الشمالي، كما أشرنا إلى ذلك بالتفصيل في الفصل السابع لدى تحليل دور (الخابيرو) المرتزقة ومن أهم تلك المدن، يمكن ذكر:

- (صومور) (سيميرا) (تل النبي مند) وأميرها عبدي ـ عشيرتا ثم ابنه عزيرو وإخوته من بعده.
- (أروادا) (جزيرة أرواد).
- (آمفي) (= أنفه).
- (شيغاتا) (شكّا).
- (أولآزا) (قرب صومور على مصب نهر البارد).
- (صيدونو) (صيدون).
- (بترونا) (البترون).
- (چوبلا) (جبيل).
- ثم (صورو) و(أوشو) أي صور البحرية والبرية.

الفصل التاسع

(٩) الآراميون والشمال الفلسطيني

(٩ ـ ١) من هم الآراميون؟

(٩ ـ ٢) آرام دمشق وفلسطين

(٩ ـ ٣) تناقضات تاريخية مع المرويات التوراتية

(٩ ـ ٤) زوال آرام دمشق وزوال مملكة الشمال الفلسطيني

BEIRUT

(٩) الآراميون والشمال الفلسطيني

(٩ ـ ١) من هم الآراميون؟

هم قبائل البدو، الذين كانوا يهتمون بمواشيهم في منطقة الفرات الأوسط، وهم الذين ذكرتهم مصادر ما بين النهرين تحت تسمية «الأحلامو»، وعرفوا في ما بعد «بالآرامو».

منذ القرن الثاني عشر ق.م، خرجت القبائل الآرامية من منطقتها الاعتيادية، ولا نعرف أسباب ذلك، وانتشر الآراميون آنذاك في معظم مناطق الشرق الأدنى في كل من منطقتي ما بين النهرين والمتوسط. وقد حاول الملك الآشوري تغلات فلصر الأول (١١١٤ ـ ١٠٧٦ق.م.)، صدّ ضغط هذه الهجرة، فاجتاز الفرات ٢٨ مرة لمحاربتهم، ولكنّه أصبح من غير الممكن التغلب عليهم خلال القرنين الحادي عشر والعاشر بسبب تكاثر أعدادهم، ثم تقلصت المملكة الآشورية في ذلك الحين وعادت إلى نواتها الأصلية في وادي دجلة وذلك بسبب انتشار تلك القبائل، وتُرِكتْ لهم المنطقة العليا مما بين النهرين. كما أن منطقة بابل لم تتمكن بدورها من إخضاعهم، واستقرت قبائل آرامية عددها أربعون قبيلة في وسط وجنوب ـ شرق البلاد البابلية.

تابعت القبائل الآرامية ممارسة حياة رعوية خارج المدن الرئيسية. وخلال القرن الثامن ق.م حين سقطت بلاد بابل على يد الملوك النيو ـ آشوريين (الآشوريين ـ الجدد)، كانت القبائل الآرامية قد بدأت انصهارها مع شعوب المنطقة البابلية، حتى أنه

في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد لم يبق أثرها إلا في تسمية الأماكن الجغرافية، وبدأت بذلك اللغة الآرامية انتشارها.

أما في الغرب من الشرق الأدنى وخصوصاً سورية الحالية، فإن الآراميين استفادوا من الفراغ الذي خلفه مرور «شعوب البحر» في نهاية القرن الثاني عشر ق.م، واستقروا في عددٍ من المناطق الغربية، وشكّلوا مراكز لهم تحوّل بعضها إلى ممالك ذات أهمية.

خلافاً لآراميي ما بين النهرين، فإنهم تبنّوا منذ استقرارهم بنيات لها طابع الدولة، مشابهة لما عرفته المدن النيو ـ حثية التي تمركز آراميو الشمال في ما بينها أو حلّوا محلّها.

ومع أنهم كانوا في معظم الأحيان يشكلون أغلبية السكان، إلا أنهم لم ينكروا الأسس الدينية والثقافية ذات الأصول الحورية (الميتانية) أو السورية، حتى أن نوعاً من الوحدة الآرامية، أصبحت فاعلة في غربي الشرق الأدنى. ورسخت هذه الوحدة، من دون أن تكون مرتبطة بوحدة سياسية، بل على الرغم من تعدّد الدويلات الصغيرة، إلى الغرب من مثلث الخابور، وتلك الدويلات هي: (بيت هاني ـ چالبات)[١] حول مدينة (نصيبين)[٢] و(بيت باهياني)[٣] التي يحدُّها في الشمال (بيت زاماني)[٤] وعاصمتها (آميدو)[٥].

أما مملكة (بيت عديني)[٦] فكانت تمتد بين البليخ والفرات وعاصمتها (تل بارسيب)[٧]، وأما المنطقة بين الفرات والمتوسط، فتقتسمها كل من مملكتي (بيت ـ آغوزي)[٨] في الجنوب ومملكة (ياؤودي شمأل)[٩]، ومدينتها هي زنجرلي على سفوح الأمانوس، حيث تمّ اكتشاف عدد من النقوش، كتب أحدها باللغة الكنعانية، وأمكن

---

(١) (Hani-Galbat).
(٢) (Nasibina).
(٣) (Bit-Bahiani).
(٤) (Bit-Zamâni).
(٥) (Amedu).
(٦) (Bit-'Adini).
(٧) (Til-Barsip).
(٨) (Bit-Agusi).
(٩) (Ya'udi-Sam'al).

بواسطته التعرف إلى مؤسس المملكة وهو (جبّار)[١] واسمه آرامي. دامت تلك المملكة مدة قرنين، تأرجحت خلالها بين التعاون مع مملكة آشور أو مجابهتها بعنف.

ننتقل بعد ذلك إلى مملكتين آراميتين هما أكثر قرباً من المنطقة التي تهمنا وكانت لهما علاقة بموضوع هذا الكتاب، وعرفتا معاً ضغط امبراطورية آشور وهما مملكتا حماه ودمشق.

أ ـ مملكة حماه الآرامية:

حوالى العام ٨١٠ ق.م، قامت في وادي العاصي سلالة آرامية باسم زكّور، استولت على مقاليد الحكم في المملكة، بعد أن كان يحكم حماه ملوك ذوو أسماء حثية، وزكّور أصله من منطقة الفرات الأوسط، وهو الذي فرض اللغة الآرامية في مملكته، كما ترك لنا أقدم وثيقة آرامية عرفتها المنطقة. وعلى الرغم من كونه آرامياً، فإن علاقته مع جيرانه الآراميين لم تكن جيّدة بسبب سياسته التوسعية. وعلى هذا الأساس فإنّ مملكة حماه كانت أكثر اتساعاً من الممالك الآرامية الأخرى.

ب ـ مملكة دمشق الآرامية:

وهي المملكة التي تشكلت حول واحة دمشق، وكانت الأكثر استحقاقاً بتسميتها مملكة، لأنّها أصبحت في الوقت نفسه أكثر قوة من جيرانها في القرن الثامن قبل الميلاد. وبصورة عامة، تمّ التعرف إلى الممالك الآرامية الغربية بواسطة المصادر النيو ـ آشورية والنقوش الآرامية المحلية. وقد كانت هذه الممالك الآرامية تتصرف وفقاً للعلاقات مع آشور: فمنها من عمد إلى المقاومة، بينما اعترفت ممالك أخرى بالسلطة الآشورية وأصبحت من تابعي ملوك آشور، إلا أنها انجرّت جميعها بنهاية الأمر إلى عملية انصهار في الامبراطورية الآشورية.

ج ـ الآراميون وآشور:

كانت منطقة الفرات الأعلى خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، الهدف الرئيسي للآشوريين الذين كانوا يعتبرون الحلقة الفراتية السورية كحدود طبيعية

---

(١) (Gabbar).

لمملكتهم. ولذلك فإن الممالك الآرامية المحلية في ذلك الموقع، تم سحقها بشكل عنيف في أكثر الأحيان وضمّها إلى آشور. ومنذ تلك الفترة، فإن بعض الأفراد النخبة من تلك الممالك الآرامية شغلوا مناصب ذات أهمية في البلاط الآشوري مثال أمير مدينة كيتّيكا[١] إلى الجنوب من كركميش الذي يعتقد أنه نشأ في البلاط الآشوري وأصبح رئيساً لجنرالات الملك الآشوري (شمسو ـ إيلو)[٢]، ولا ننسى بالطبع شهرة أحيقار الآرامي حكيم بلاط نينوى في زمن أسرحدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ق.م.) ووزير ماله.

تشير وثائق الملك آشور بانيبال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ق.م.) إلى حملة ضدّ مملكة (بيت عديني) على البليخ حوالى العام ٨٧٦ ق.م، وهناك إشارة أيضاً إلى أن (آهوني)[٣]، الملك المحلي، دفع جزية لأنه بقي خارج المعركة.

ولدى محاولة شلمنصّر الثالث (٨٥٩ ـ ٨٢٤ق.م.) احتلال المنطقة بعد حوالى عشرين سنة فإن (أهوني) تمكن من جمع حلف مؤلف من جميع قبائل (بيت عديني) ضده، ما حدا بالملك الآشوري على ألاّ يستولي على (تل بارسيب) على الفرات في الجنوب الشرقي من كركميش بعد استيلائه على (بورمارينا)[٤] المجاورة.

إلا أن شلمنصر الثالث نفذ هجومه على (تل بارسيب) في العام ٨٥٦ ق.م. حيث التجأ (آهوني) مع جيشه الذي اضطر إلى الانسحاب تحاشياً لإبادته. وهكذا فإن الغازي احتل المدينة وأطلق عليها اسم (كار ـ شلمنصّر)، وأصبحت مملكة بيت ـ عديني جزءاً من الامبراطورية الآشورية. ومع ذلك بقيت الثقافة الآرامية فاعلة. كما أن تقدُّم شلمنصر الثالث هذا كان من شأنه توحيد ممالك الساحل الغربي ضده.

ومن حسن حظ الممالك الآرامية، أن الاضطرابات الداخلية في آشور، خلال معظم فترة القرن الثامن قبل الميلاد، حالت دون وقوع محاولات احتلال آشورية جديدة، وبذلك أصبح الجو مناسباً بالنسبة لمملكة دمشق لمحاولة بسط نفوذها. وكذلك كان الأمر بالنسبة لمملكة أرپاد الشمالية التابعة (لبيت ـ أجوزي).

---

(١) (Kittika).

(٢) (Samsu-Ilu).

(٣) (Ahuni).

(٤) (Burmarina).

(٩ ـ ٢) آرام دمشق وفلسطين:

منذ حكم الملك الآرامي (ريزون)[١] بدأت دمشق بِملْء مركزها لتصبح القوة المسيطرة في سورية الوسطى. كما أن انتقال السلطة إلى (بن ـ حدد) الأول[٢] في بداية القرن التاسع ق.م، كان ينقصه الوضوح لأننا لا نعلم كيف وصل إلى الملكية، إلا أنه يمكن القول إن (بن ـ حدد) حقق انتصارات في جميع المناطق المحيطة به بما في ذلك الشمال الفلسطيني.

وخلال الفترة نفسها، بدأ الازدهار الاقتصادي يترسّخ في المنطقة، وأصبحت الواحة الدمشقية تشكل نقطة التقاء القوافل التي تنتقل بين الصحراء والساحل المتوسطي، وكان مرفأ صور الشريك الرئيسي لدمشق في خدمة التجارة.

أما خليفة بن ـ حدد، فهو حدد ـ إيزر[٣]، وتعرفه الوثائق الآشورية تحت اسم أدد ـ إيدري[٤]، وقد ترأس هذا الأخير مع مملكة حماه حلفاً سورياً تمكن من مقاومة حملة شلمنصّر الثالث. ففي العام ٨٥٣ق.م.، لم تشكل معركة قرقار على العاصي نصراً نهائياً لشلمنصر، إذ تلتها حملات في الأعوام ٨٤٩ و٨٤٨ و٨٤٥، ولم تتمكن من تبديل الوضع إلا قليلاً.

اعتُبرت دمشق آنذاك، قوة فاعلة ومتفوقة في المنطقة تعترف بذلك الدول المحيطة. وهذا ما مكّن عدداً كبيراً من الممالك الصغيرة المجاورة من دخول الحلف، بما في ذلك مملكة الجنوب الفلسطيني. ونقدم في ما يلي هذا المقتطف من النص الأقدم الذي تركه لنا شلمنصر الثالث عن مجابهته للحلف الذي شكّله ضدّه ملك آرام ـ دمشق (حدد ـ إيزر) وأمر بنقشه على مسلّته البازلتية بنهاية العام ٨٢٨ ق.م. حيث يروي أنه جابه حلفاً مؤلفاً من اثني عشر ملكاً، عدّد منهم عشرة ومن بينهم ملوك كل من:

«دمشق وحماه وچو[...] (جبيل؟) وأرواد و(سير ـ إيلا)[٥] وملكها (آهابو)[٦] وسيانو، وبلد عمّون (عمّان)، وعرب البادية».

---

(١) (Rezon).

(٢) (Ben-Hadad) Premier.

(٣) (Hadad-Ezer).

(٤) (Adad-Idri).

(٥) (Sir-Ila) وهي هنا الجنوب الفلسطيني أي (إسرائيل).

(٦) (Ahabu) وهو (Achab) (آحاب).

ويشير نص شلمنصر إلى أنه تغلّب على الجميع بقدرة إلهه آشور.

ووجود (أحاب) في حلف إلى جانب ملك دمشق وملك حماه، ما يدعم فكرة أن منطقة الشمال الفلسطيني كانت متعددة الإثنيات وكنعانية العبادة، كما كانت بشكل طبيعي بعيدة عن التزمت الديني الذي عرفته مملكة الجنوب في القرن السابع قبل الميلاد، وسنرى ذلك بالتفصيل في ما بعد.

ثم انحل الحلف بسبب تبدلات سياسية دمشقية، إذ إن أحد موظفي (حدد ـ إيزر) وهو (حزا ـ إيل) نجح في اغتصاب العرش الدمشقي، ما جعل شلمنصر الثالث يحاول من جديد الاستفادة من تلك الحادثة، إذ قام في العام ٨٤١ق.م. بحصار دمشق، ودمّر الغوطة ولكن مدينة دمشق لم تستسلم، وتمكن (حزا إيل) من المحافظة على استقلاليته.

كما لم يكتب النجاح أيضاً لمحاولة العام ٨٣٨. وهكذا توقفت الحملات الآشورية ضد دمشق وأصبح حزا إيل قادراً على تهديد جيرانه في شمالي فلسطين وجنوبها.

حارب (حزا إيل) وتغلب على (يورام)[١] من مملكة يهودا[٢]، كما أنه إبان حكم (ياهو)[٣] تمكّن من الاستيلاء على أقسام من شرقي الأردن، واستمرت المجابهات تحت حكم (يهو آحاز)[٤] خليفة هذا الأخير وابنه. أما (يؤاس)[٥] من يهودا، فكان عليه دفع جزية كبيرة من أجل تحاشي مهاجمته من قبل حزا إيل.

كانت دمشق آنذاك في أوج قوتها، تستطيع الوقوف أمام الآشوريين، فتوسعت نحو الجنوب حيث احتلت جزءاً من فلسطين، كما انتشرت في الشمال حتى حماه التي كانت قد خضعت للحكم الآشوري.

الملوك الآراميون من بداية الألف الأول حتى العام ٧٢٠ ق.م

- ريزون
- (طاب ريمّون)؟
- (هيزيون)؟

---

(١) (Yoram).

(٢) (Judée) الجنوب الفلسطيني.

(٣) (Jéhu).

(٤) (Yoachaz).

(٥) (Joas).

- بن حدد الأول
- حدد إيزر/ حدد إيدري
- حزا إيل
- بار حدد (مريء)
- هاديانو
- ريزون (راحيانو)

(٩ ـ ٣) تناقضات تاريخية مع المرويات التوراتية:

أول تناقض يمكن إثارته، هو أن نقش شلمنصر الثالث للعام ٨٥٣ قبل الميلاد الذي أشار بموجبه إلى مجابهته حلف ملك دمشق (حدد ـ إيزر)(١) أجبر مؤرخي التوراة إلى إعادة النظر في (١ ملوك: ٢٠) حيث يقال إن (آحاب) كان في حرب مع الآراميين، بينما كان حليفاً لملك دمشق، كما اتضح ذلك من النص المشار إليه أعلاه.

وبكل بساطة فإنّ المؤتمر العالمي الخامس للدراسات اليهودية، المنعقد في العام ١٩٦٩ اعتبر أن النص التوراتي يتعلق بمحاربة (يؤاس) (٨٠٣ ـ ٧٨٧) للآراميين وليس (آحاب).

وبرأينا، فإن كتبة المرويات التوراتية في نهاية القرن السابع(٢)، وبعد مرور زمن طويل على الأحداث، حاولوا تأليف نص مثالي وترسيخه، وما أرادوا قطّ قبول فكرة دخول آحاب في حلف دفاعي مع دمشق. ويجب ألا ننسى أن الجنوب الفلسطيني هو حيث نشأت مملكة يهودا معزولةً ومتخلفة، وقد أرادت بنهاية القرن السابع تنفيذ الإصلاح الديني وكتابة المرويات التوراتية الموجّهة، بما يخدم مصالح إيديولوجيتها، فملأت عدداً كبيراً من الصفحات المنتقدة للشمال، حتى أن كلمتي (السامرة) و(بيت إيل) أصبح لهما معنى الخيانة ليهوه.

---

(١) (Hadad-Ezer) وهو نفسه (أدد ـ إيدري) في النقش الآشوري.

(٢) يتعلق الأمر بحكم الملك جوزياس في الجنوب وفي زمنه وبقصد الإصلاح الديني ونشر إيديولوجية استيلائية طموحة، تمّ ابتداع أسطورة المملكة الموحدة وحتى الخروج وإشغال أرض كنعان الأسطوري، وقد أشرنا إلى ذلك مراراً.

أما في ما يتعلق بتناقضات أخرى عاصرت حكم الملك الآرامي (حزا إيل) فإننا نستعير عن كتاب «التوراة بلا حجاب» الذي أشرنا إليه آنفاً[(١)] ما قدمه المؤلفان حول هذا الموضوع وهما اعتبرا: أن تدخّل حزا إيل على حدود منطقة الشمال الفلسطيني، كان له دوره في إضعاف المملكة الشمالية، وما يجب إبرازه قبل كل شيء، هو أن مقتل (يورام) ملك الشمال نفذه الملك الآرامي (حزا إيل) وليس (ياهو) كما تزعم المرويات التوراتية التي تَنْسُب إليه إبادة العائلة المالكة في قصر (يزدِي إيل)، ولا ضرورة للتشكيك في محتوى النصب التذكاري الذي تركه (حزا إيل) في مدينة دان الحدودية حيث روى ما يلي:

«قَتَلتُ (يورام) بن (آحاب) ملك إسرائيل، وقتلتُ ([آحاز] ياهو)[(٢)] بن [يورام] ملك بيت داود[(٣)]، وأحلتُ مدينة (كل منهما) إلى الدمار، وجعلت أرضهما [خراباً].

تبين بالاعتماد على المكتشفات الأثرية، أن ما بين الفترة (٨٣٥ و٨٠٠ق.م.) فإن مملكة آرام ـ دمشق كانت تسيطر على وادي الأردن الأعلى وبعض المناطق ذات الأهمية من شمال شرقي فلسطين، وبالطبع بعد أن دَمَّرت آنفاً المراكز الإدارية الرئيسية القائمة في وادي (يزرِي إيل).

ومما لا شك فيه أن (حزا إيل) أدّى دوراً مهماً في زوال مملكة الشمال، وكانت غايتهُ في الأساس، السيطرة على المنطقة الحدودية الخصبة والاستراتيجية التي تفصل بين المملكتين وطبعاً استعادة الأراضي التي سيطر عليها آنفاً عومري (٨٨٤ ـ ٨٧٣) ملك الشمال الفلسطيني (باني السامرة).

يتابع الباحثان أعلاه، اعتبارهما أن المنقبين يعتقدون أيضاً أن دمار (يزرِي إيل) يمكن إعادته هو أيضاً إلى غزوات (حزا إيل) بعيد النصف الأول من القرن التاسع، وأن دمار قصر ماجدّو ومواقع أخرى شمالية كانت نسبت إلى الفرعون المصري في نهاية القرن العاشر[(٤)] يجب إعادتها اليوم إلى العام ٨٣٥ قبل الميلاد. وأخيراً يعتبر المنقب

---

(١) انظر الفقرة (١ ـ ٣) من الفصل الأول والحاشيتين (١) و(٢).

(٢) (Yoachaz) (يهو آحاز).

(٣) يقول النص ملك بيت داود وليس ملك القدس؟

(٤) الفرعون هو شيشونق الأول (Sheshong 1er).

التوراتي الإسرائيلي ناداف نعمان[١] أن دمار كل من بيت شان (بيسان) و(تعنك)[٢] وماجدّو و(يزري إيل) تمّ على يد حزا إيل الآرامي.

ثم بلغ ضغط آرام ـ دمشق أشدّه إبان حصار عاصمة الشمال الفلسطيني، السامرة على يد (بار ـ حدد) الثالث ابن (حزا إيل) الذي تسمّيه التوراة (بن ـ حدد)، وأن حصار السامرة يعود إلى تلك الفترة. كما تدل الحفريات في موقع (ماجدّو) إلى أن تلك المدينة التي أدّت دوراً رئيسياً في الإدارة الشمالية، بقيت مهجورة خلال نصف قرن بعد ذلك التدمير، كما أن ملك آرام ـ دمشق وضع قدمه بشكل نهائي على نقاط استراتيجية مثل (حاصور) و(دان) في الشمال الشرقي، وهذه النقاط هي أقرب إلى دمشق منها إلى السامرة، وكانت تقع في أماكن تعتبرها دمشق آرامية.

ولا بد هنا من عرض محتوى النقش الذي تركه (حزا إيل) عن الحالة التي ورثها عن سلفه:

«إن أبي استقال والتحق بأجداده، وملك إسرائيل (أي عومري) كان سابقاً قد دخل إلى أرض والدي».

ويعني ذلك، أن (حزا إيل) استعاد ما يخصه، واحتل نقاطاً استراتيجية ليبقى فيها، ولم يكن تدخّله احتلالاً موقتاً. يدعم ذلك على الأرجح، أن المدينة الجديدة التي أمر ببنائها في حاصور، كانت في الحقيقة جزءاً من مجموعة القلاع التي بناها الآراميون لحماية الحدود الجنوبية الشرقية لآرام ـ دمشق ضد الشمال. ولا شك في أن احتلال (حزا إيل)، نُفّذ ليدوم بدلالة بناء ثلاث قلاع للحماية في كلٍ من (دان) و(حاصور) و(بيت سعيد)[٣] وجميعها من الطراز الآرامي.

ومن السهل الاعتقاد، أن سكان تلك المناطق كانوا يمثلون أكثرية آرامية، على اعتبار أن مكتشفات معظم المواقع المهمة لعصر الحديد الثاني (٩٠٠ ـ ٥٨٦) هي آرامية، كما أن جميع الألواح الفخارية (الأوستركات) المكتشفة كانت تحمل كتابة آرامية.

---

(١) (Nadav Naaman).

(٢) (Tanak) إلى الجنوب قرب ماجدّو.

(٣) (Beith saïde) على الرأس الشمالي لبحيرة طبريا.

تعتبر المصادر الآشورية، أن (حزا إيل)، تمكن من التوغل نحو الغرب ونحو الجنوب من مملكة الشمال الفلسطيني، على اعتبار أن الحكم الآشوري كان منشغلاً في إعادة النظام ومعاقبة المسؤولين عن الفوضى في الامبراطورية.

وما أن تولى الحكم (أدد ـ نيراري) الثالث (٨١١ ـ ٧٨٣ق.م.) حتى تبدّلت الأمور.

وإذا ما كان باستطاعة مملكة (آرام ـ دمشق) فرض نفوذها على مملكة الشمال الفلسطيني، يمكن التصور بسهولة، أنها لا تستطيع الصمود أمام قوة الامبراطورية الآشورية. وها هو (بار ـ حدد) الثالث ابن (حزا إيل) يخضع للسلطة الآشورية ويدفع لها الجزية. وبعودة آشور تبطل سيطرة (آرام ـ دمشق).

(٩ ـ ٤) نهاية آرام ـ دمشق وزوال مملكة الشمال الفلسطيني:

في العام ٧٩٦ق.م.، هاجم الملك الآشوري (أدد ـ نيراري) الثالث مرة أخرى دمشق، وهذه المرة، فإن المدينة كان عليها الاستسلام ودفع الجزية. اعتباراً من تلك الفترة، بدأت قوة دمشق تضعف. ويتأكد ذلك تحت حكم (هاديانو) في العام ٧٧٣ق.م. إذ تشير المحفوظات الآشورية إلى حملة (شلمنصر) الرابع (٧٨٢ ـ ٧٧٣ق.م.)، على دمشق والنصب التذكاري الذي تركه، ينسب النصر إلى (شمسي ـ إيلو) جنرال شلمنصر الرابع، وقد يكون محتوى النصب مرتبطاً بالأحداث نفسها؟

انتهى الأمر أخيراً بأن (تغلات فلصّر) الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧) ق.م وضع حدّاً لوجود (آرام ـ دمشق) عندما هاجم (راحيانو)[١] آخر ملك آرامي مستقل، تذكره المرويات التوراتية تحت اسم (ريزين)[٢] كحليف للشمال الفلسطيني ضد مملكة (يهودا)، كما ورد ذكره في العام ٧٤٠ من بين الأمراء الذين يدفعون الجزية لآشور.

في العام ٧٣٢ ق.م استسلمت مدينة دمشق المحاصرة من قبل (تغلات فلصّر) الثالث نهائياً، وبذلك أصبحت دمشق عاصمةً لمحافظة آشورية. ويمكن القول إن آخر محاولة لها للثورة سيطر عليها (سرجون) الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥) ق.م.

---

(١) (Raḥianu).

(٢) (Rezin).

وهكذا تمكن التوسّع الآشوري من التغلب على الآراميين في دمشق وبقيّة الممالك الغربية وتمّ إخضاع (أرپاد) إلى الجنوب الغربي من كركميش وكذلك دمشق ونقلت الغنائم إلى آشور. كما أن تحوّل الممالك الآرامية إلى مناطق آشورية تابعة، كان من شأنه تفكيك البنيات السياسية الآرامية، إلا أنه في الوقت نفسه، أحدث توحيداً ثقافياً لمصلحة اللغة الآرامية، وعَمَد كذلك إلى تبنّي بعض الأسس السياسية، ومنها قَسَم الولاء (آدي)[1] وبعض العناصر المعمارية الآرامية. كما شمل الاختلاط والتفاعل بين الأفراد، ونحن نعلم مثلاً، أن زوجة الملك سنحريب واسمها (نقيّة) كانت آرامية، وعُرِفت آشورياً تحت اسم (زاكوتو)، وكان لها أثر كبير في مصير الامبراطورية خلال النصف الأول من القرن السابع، ولا ننسى كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، دور أحيقار الآرامي حكيم بلاط نينوى الذي كان وزيراً لدى أسرحدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ق.م.).

أدى انتشار اللغة الآرامية، إلى تسريع الاندماج والوحدة السياسية في الشرق الأدنى وتبناها ملوك بابل ومن بعدهم الفرس، وأصبحت بذلك لغة شاملة.

وإذا ما بقي آراميو شرق الهلال الخصيب على عاداتهم الرعوية، فإن آراميي المناطق الغربية، استفادوا على العكس من إدارة الممالك التي أسسوها وعرفوا تطوير الإنتاج المحلّي ومراكمة الغنى، واستفادوا أيضاً من التقاليد المحلية في المجالات الثقافية والإبداعية والدينية، ومعظم الآلهة التي نجدها في المعتقدات الآرامية هي ذات أصل سوري. ويمكن مقارنة الحالة التوحيدية التي عرفها الشرق الأدنى الآرامي مع الوحدة التي حققها الأموريون في بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

تعرفنا في الفقرات السابقة إلى نهاية مملكة آرام دمشق واندماج جميع الممالك الآرامية في الامبراطورية الآشورية، وانتشار اللغة الآرامية بنتيجة ذلك.

نعود هنا إلى مرافقة نهاية مملكة السامرة وزوالها بشكل نهائي، ويعيدنا ذلك إلى فترة حكم (أدد ـ نيراري) الثالث حين كانت منطقة الشمال الفلسطيني تدفع له الجزية من جهة وتستفيد في الوقت نفسه من دخولها في مدار الحركة التجارية الدولية، التي كان الآشوريون يعرفون تماماً إدارتها، ما جعل فترة حكم (يربعام) الثاني (٧٨٨ ـ ٧٤٧ق.م.)، تشهد مرحلة ازدهار لم تعرفها من قبل، إذ نشطت حركة البناء في كل من

---

(١) (Adé).

(حاصور) و(ماجدّو). إلا أن فراغاً قاتلاً تلا فترة وفاة يربعام في العام ٧٤٧، وعرفت المنطقة أحداث فوضى داخلية، إذ إن أول من خلف (يربعام) لم يحكم أكثر من ستة أشهر وقتل في حركة انقلابية. ومن تسلم الحكم بعده، قتل هو أيضاً في حركة انقلابية، ولم يدم حكمه أكثر من شهر واحد.

أما (ميناحيم) (٧٤٧ ـ ٧٣٧ق.م.) الذي كان يدفع الجزية (لتغلات فلصر) الثالث فدام حكمه عشر سنوات ثم قُتِلَ خليفته في حركة انقلابية بعد حكم دام ثلاث سنوات. وهو الذي عقد اتفاقاً مع دمشق لمحاربة (آحزيا) في الجنوب، فقام (تغلات فلصّر) الثالث بخلعه تحاشياً لقيام أحلاف في المنطقة، وذلك بعد احتلال منطقة الجليل وتدمير مدن الشمال ومدن وادي (يزري إيل). ثم عيّن مكانه (عوزيّا)، وهو آخر ملك شمالي يعينه تغلات فلصّر الثالث ويفرض عليه دفع الجزية التقليدية.

عند وفاة (تغلات فلصّر) الثالث، وخلال الفترة التي انقضت قبل تولي الحكم من قبل خلفه شلمنصر الخامس (٧٢٧ ـ ٧٢٢ق.م.)، قام ملك الشمال المعيّن بتوجيه رسائل سرّية إلى الجهة المصرية. آملاً بأن تقوم مصر بالمساهمة في اندلاع ثورة ضدّ آشورية، كما أنه تجرأ وتوقف عن دفع الجزية. وما حدث بعد ذلك كان متوقّعاً، فإن شلمنصر الخامس جهز حملة تصفية نهائية لمملكة الشمال، فقام بالاستيلاء على ضواحي السامرة وحاصر المدينة، حتى أن بعض المؤرخين اعتبروا أن استسلام المدينة لم يتم إلا خلال حكم سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ق.م.)، على اعتبار أن حكم شلمنصر الخامس دام خمس سنوات.

وبسقوط السامرة، تمّ سبي قسم كبير من أهالي المدينة، وتمّ توزيعهم على مختلف أنحاء الامبراطورية الآشورية. وهكذا تنتهي فترة قرنين تقريباً عرفتها المنطقة الشمالية متأرجحة بين آرام وآشور وزالت من الوجود على أثر ذلك.

وكعادتهم نقل الآشوريون سكاناً جدداً بدلاً عن السكان المسبيين وأسكنوهم المدن الشمالية (كماجدّو) و(السامرة)، وكذلك حول مدينة (بيت إيل)، وفي جازر، حيث عُثر في ضواحيها على نصوص بابلية تعود إلى القرن السابع.

كما يُعتقد أن تغلات فلصر الثالث نفى القرويين أيضاً من مسبّبي الفتن في الجليل كما في المدن ذات الأهمية. أما سرجون الثاني فيُرجّح أنه نفى «الأرستقراطية»

السامرية، كما قام بنقل الجنود وأصحاب الحرف الماهرين للاستفادة منهم في آشور.

وهكذا يمكن القول، إن السامرة تحولت إلى منطقة آشورية جديدة. ومن المفيد الإشارة إلى النص الذي تركه سرجون الثاني في نقش يذكر فيه، سوء تصرف الشمال الفلسطيني وعقابه قائلاً:

«اتفق أهالي السامرة فيما بينهم وتآمروا مع ملكٍ عدو[١] لأنهم أرادوا التحرر من دفع الجزية إلى آشور. وعمدوا إلى محاربتي. وأنا قاتلتهم بقدرة الآلهة العظام أسيادي. وكغنيمة حصلتُ عليها. أحصيت (٢٧٢٨٠) شخصاً، جميعهم بمركباتهم وآلهتهم التي وضعوا فيها ثقتهم. (وأحصيتُ) مائتي مركبة من مركباتهم لتشكل فرقة من أجل جيشي الملكي. سبيت الآخرين إلى وسط آشور. وأسكنت في السامرة أناساً أكثر من ذي قبل. أسكنت فيها شعوباً من البلاد المحتلة من قبلي وعينت مفوضاً كحاكمٍ لإدارتهم وعَدَدْتُهم من بين الآشوريين».

ذلك كان تقرير سرجون حول زوال مملكة الشمال. وبالطبع فإن المرويات التوراتية أعادت هذا الزوال إلى أن مملكة الشمال تصرفت بشكل لا يرضي الإله يهوه الذي أرسل لها غازياً آشورياً يلقنها درساً وفق ما تستحق. وهذا التفسير «التيولوجي» والإيديولوجي في الوقت نفسه، هو الذي تمّ تبنّيه في أسس مرويات نهاية القرن السابع قبل الميلاد. وذلك زمن الملك (جوزياس)، صاحب الإصلاح الديني، وسوف نشير إلى ذلك الإصلاح بالتفصيل في ما بعد.

---

(١) المقصود هو فرعون مصر.

الفصل العاشر

(١٠) الآشوريون وفلسطين

(١٠ ـ ١) من هم الآشوريون

(١٠ ـ ٢) ملوك آشوريون عرفتهم فلسطين

(١٠ ـ ٣) نصوص تركها ملوك آشور عن منطقة الشمال الفلسطيني

(١٠) الآشوريون وفلسطين

(١٠ ـ ١) من هم الآشوريون:

لم يكن الموطن الأصلي للآشوريين بالاتساع الذي يتناسب مع أهمية الامبراطورية التي شكلوها على يد (تغلات ـ فلصَر) الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ق.م.)، والتي بلغت أوجها في زمن حكم سرجون الثاني وخلفائه: سنحريب وأسرحدون وآشور بانيبال. كان الموطن الأصلي للآشوريين ينحصر في مساحة ضيّقة تقع بين وادي دجلة حتى الالتقاء برافِد الزاب الأسفل، وبين وادي الزاب الأعلى المتحدّر من جبال زغروس في الشرق.

أ ـ المرحلة الآشورية القديمة:

يبدأ التاريخ الآشوري بمرحلةٍ عرفت من قبل المؤرخين بالمرحلة الآشورية القديمة (الباليو ـ آشورية)، وقد تميّزت تلك المرحلة بتفوقها التجاري، على أنها هي التي خرجت من موطنها الضيّق بقصد الاستثمار التجاري، وهي التي أقامت منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد مركزاً تجارياً، ولا نغالي حين نقول إنها أقامت أيضاً مركزاً مصرفياً في مدينة (كانيش)[١] الواقعة في الكابادوس، واسمها الحالي (كولتيبي)[٢] ومعناه «هضبة الرماد»، لأن كانيش زالت بسبب حريق.

---

(١) (Kanišh) أو (Nesha) الواقعة على بعد حوالى ٢١كلم إلى الشمال الشرقي من مدينة القيصرية في شرق نهر كيزيل ـ ايرماك.

(٢) (Kũltépé).

أسس التجار الآشوريون في كانيش ما عرف (بالكارو)(١) وهو الرصيف حيث تمركز مجموعة التجار والذي عنى في ما بعد «جمعية التجار» أو «حي التجّار». يرأس الكارو، من كان يسمى «الوكيل التمكاري»(٢)، وهو موظف ذو مرتبة عالية، يسهر على إدارة المركز وعلاقته مع القصر والتجّار المستقلين، كما يسهر على التجارة الدولية.

وكل ذلك يدل على سلامة التنظيم التجاري الآشوري ودقّته، ويدلّ على ذلك أيضاً، العثور على (٢١٠٠٠) لوحة في كانيش تمثل الوثائق التجارية، وهي محفوظات المركز. ولم يكن (كارو) كانيش وحيداً، بل كانت هناك مراكز آشورية عدة أخرى تمّ تأسيسها في الأناضول.

ب ـ المرحلة الآشورية الوسطى(٣):

بدأت هذه المرحلة في القرن الرابع عشر ق.م، عندما تحررت آشور من النفوذ الميتاني وأصبحت دولة حقاً، أساسها مثلث المدن: آشور في الجنوب، ونينوى في الشمال الغربي، وأربيل في الشمال الشرقي، واستعادت آنذاك الحدود التي كان قد بَلَغها (شمسي ـ حدد) خلال القرن الثامن عشر، ومع أنه لم يكن قط ملكاً على آشور ولكنه اعتُبِر مؤسِّساً للمملكة الآشورية وتمّ ضمّه إلى لائحة الملوك.

في القرنين الحادي عشر والعاشر، تقلّصت المملكة الآشورية بسبب التوسع الآرامي فتخلّت عن منطقة «الجزيرة السورية» وعرفت فترة مجاعة وانتشار وباء. ثم اعتباراً من النصف الأخير من القرن العاشر، نجحت نهضة آشورية جديدة في احتلال مناطق كانت تحت السيطرة الآرامية، مستعيدةً ما خسرته خلال الفترة الآشورية ـ الوسطى.

ج ـ المرحلة الآشورية ـ الجديدة:

وهي المرحلة الثالثة التي عرفتها آشور (المرحلة النيو ـ آشورية)، والتي بدأت بعد فترة أزمات وتقلّص جزئي، قامت بعدها في نهاية القرن التاسع، امبراطورية حقيقية بدأ

---

(١) (Karu).

(٢) (Wakil-Temkari).

(٣) (Médio-assyrienne).

بتأسيسها (تغلات ـ فلصّر) الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ق.م.)، وقد بلغت أوجها في زمن (سرجون الثاني) (٧٢٢ ـ ٧٠٥ق.م.) وخلفائه، وأشهرهم (سنحريب) (٧٠٥ ـ ٦٨١ق.م.)، و(أسرحدون) (٦٨١ ـ ٦٦٩ق.م.)، و(آشور بانيبال) (٦٦٩ ـ ٦٢٧ق.م.)، إذ امتدت آنذاك الامبراطورية الآشورية شاملة كل الشرق الأدنى اعتباراً من الخليج «الفارسي» حتى الهضبة الإيرانية والمتوسط والشمال المصري الذي عرف مرحلة قصيرة من الاحتلال الآشوري.

انهارت الامبراطورية الآشورية بسرعة تحت حكم خلفاء آشور بانيال، إذْ تمّ هدم معظم العواصم الآشورية بين (٦١٤ و٦١٢ق.م.) من قبل الحلف الذي أسسه البابليون مع الميديين. وما تبقى من الوجود الآشوري في حرّان وحولها، تمّ الاستيلاء عليه في العام ٦١٠ ق.م.

د ـ الآشوريون والساحل الكنعاني:

اعتباراً من سنتي (٨٨٣ و٨٨٢ق.م.) بدأ (آشور نصير آبال) بالتوجّه نحو مدن وادي الخابور والفرات الأوسط التي بدأت بالتمرّد. وخلال العام ٨٧٨ ق.م عمد جيش بابلي إلى تقديم العون إلى تلك المدن، التي حصلت أيضاً على مساعدة من المملكة الآرامية في (بيت عديني) الواقعة على حلقة الفرات. ولم يحل التدخل الآشوري، دون اندلاع ثورة جديدة في السنوات التي تلت.

بين العامين (٨٧٧ و٨٦٧ق.م.)، حصر (آشور نصير آبال) اهتمامه بالغرب، فهاجم (بيت عديني) الآرامي، وهدم مدينته المحصّنة (كفرابو)، وسبى سكانها، وأخضع ملكها. كما نفّذ بعد سنواتٍ عدّة أوسعَ حملة آشورية متعدّية نهر العاصي حتى لبنان، فسارعت مدن كل من صور وصيدون وبيبلوس وأرواد إلى تقديم جزية. وكان (آشور نصير آبال) أول ملك آشوري يصل إلى المتوسط، بعد (تغلات فلصّر) الأول (١١١٥ ـ ١٠٧٧ق.م.).

(١٠ ـ ٢) ملوك آشوريون عرفتهم فلسطين:

قبل أن نعرض النصوص التي تركها ملوك آشوريون كانت لهم علاقة بفلسطين، والتي نُقشت على أنصابهم التذكارية، أو سجلت في محفوظات قصورهم، نقدّم عنهم بعض المعلومات التي تفيد في تتبع هذه الدراسة.

وبهذه المناسبة، نُذكِّر القارئ، بأنه لا بد في هذا المجال وفي الفقرات التي تليه، من تكرار بعض المعلومات التي اشتمل عليها الفصل السابق، فالآراميون والآشوريون تعاصروا واهتموا كل من جهته بفلسطين وببعضهم بعضاً، ولهذا اقتضى التنويه، ولا ضرر من بعض التكرار الذي يذكّر بالأحداث المتداخلة.

بعد حكم تغلات فلصر الأول (١١١٤ ـ ١٠٧٦ق.م.) الذي يعتبر آخر الملوك الكبار للفترة المتوسطة، عرفت آشور الغزو الآرامي، وتمكّن خلفاؤه المباشرون من صدٍّ موقت لأولى هذه الهجمات. إلا أن الأمر ازداد حدّةً بين حكم كل من (آشور نصير آبال) الأول (١٠٤٩ ـ ١٠٣١ق.م.) وتغلات فلصر الثاني (٩٦٧ ـ ٩٣٥ق.م.)، وهكذا ضاعت منطقة آشور العليا حتى ضفاف الدجلة. وبصورة عامة، عندما بدأت دونما انقطاع الفترة الآشورية الجديدة، كانت الشروط الخارجية أكثر ملاءمةً. وبدأت آشور بالتخلّص من أزمتها اعتباراً من نهاية القرن العاشر تحت حكم (آشور ـ دان) الثاني (٩٣٤ ـ ٩١٢ق.م.)، وهو الذي تمكّن بواسطة حملاته من حماية الحدود الجبلية في الشمال والشرق. . . كما أن استعادة المنطقة الآشورية العليا (هاني چالبات) من الآراميين، حقّقها (أدد ـ نيراري) الثاني (٩١١ ـ ٨٩١)، وأنهى ذلك فعلاً (توكولتي ـ نيوزتا) الثاني (٨٩٠ ـ ٨٨٤)، و(آشور نصير آبال) الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩) الذي قام بشن هجوم باتجاه المتوسط، ولكن (شلمنصّر الثالث) (٨٥٩ ـ ٨٢٤) كانت له مطامع أكبر، إذ قام في السني الأولى من حكمه بحملات عدة على مملكة (بيت عديني) الآرامية القائمة على حلقة الفرات وضمّها إلى المملكة الآشورية.

بعد أن تمّ ضم المملكة الآرامية تلك، فتحت أمامه أبواب المتوسط، وهكذا تمّ إخضاع دول سورية الشمالية، ولكن الملك الآشوري فشل جزئياً العام ٨٥٣ أمام حلف جابهه في معركة القرقار على العاصي (إلى الشمال من حماه)، وقد عددنا في الفقرة (٩ ـ ٢) من الفصل السابق الممالك التي انضمت إلى الحلف ووقفت إلى جانب مملكة دمشق وكانت من بينها مملكة (سير ـ إيلا) (في الشمال الفلسطيني)، ولم تكن نتائج المعركة واضحة، ولكن (شلمنصّر) الثالث قام من جديد العام ٨٤١ بمهاجمة آرام ـ دمشق، وكان ملكها (حزا إيل)، الذي انسحب من المعركة ولجأ إلى عاصمته دمشق. وسوف نورد محتوى النصّين اللذين تركهما (شلمنصر الثالث) حول تلك المعركة في الفقرة (١٠ ـ ٣ آ) من هذا الفصل. كما يعلمنا نص آخر تركه الملك الآشوري نفسه أنه

تلقى جزية ملكي (صور) و(صيدون) وجزية (ياؤآ)[١] بن عومري، وسوف نورد تفاصيل تلك الأحداث في الفقرة (١٠ ـ ٣)أ المشار إليها آنفاً.

أما الملك الآشوري (أدد ـ نيراري الثالث) (٨١١ ـ ٧٨٣)، فإنه صعد إلى العرش وهو صغير السن العام ٨١١ق.م.، إلا أن والدته (سامّور أمة)[٢] (سميراميس) تولت الوصاية بمساعدة وجهاء المملكة حتى بلوغه السن. وحين توقف الملوك الخاضعون لآشور عن دفع الجزية ومنها دمشق والشمال الفلسطيني قام (أدد ـ نيراري الثالث) بحملة على تلك البلاد وعدّد في نص تركه لنا البلاد الخاضعة لآشور وهي: سورية الشمالية و(أمورو) و(صور) و(صيدون) وبلد (عومري)[٣] (أي الشمال الفلسطيني)، وكذلك (أودومو) و(فلسطو) و(دمشق).

في العام ٧٣٧ ق.م عاد (تغلات فلصّر) الثالث لمهاجمة ملك دمشق الآرامي (ريزون) و(ميناهِمّي) (ميناحيم) ملك (سامرينا)، و(صور) و(جوبلا) (وزبيبة) ملكة العرب، وكذلك ملك حماه (إيني ـ إيلو)[٤]. وفي السنة التي تلت هاجم كذلك دمشق ولم يدخلها، إلا أنه دمّر ضواحي المدينة وخرّب الغوطة. ثم عَمَد إلى خلع (فقحيا)[٥] وتعيين (آوْسي)[٦] مكانه وذلك بعد احتلال الجليل. كما قام بتأديب (عسقلان) المدينة في العام ٧٣٣، التي نكث ملكها عهداً قطعه. وفي تلك السنة، احتل (تغلات فلصّر) الثالث دمشق وضمّها إلى الامبراطورية، كما سيطر على مدن ساحلية عديدة وسمّى حكاماً من قبله لإدارتها.

ثم عرف العام ٧٢٢ إنهاء سلطة مملكة السامرة (الشمال الفلسطيني) على يد

---

(١) (Ya'u'a) هو (Jehu) التوراتي.

(٢) (Sammur-amat).

(٣) وهو القائد الذي بايعه الشعب في الشمال الفلسطيني بعد فترة مضطربة تلت حكم (يربعام) الأول حوالى ٨٨٤ ق.م والانقلابات العسكرية التي أدت إلى مقتل ابنه (ناداب)، ثم خلفه (باشا)، وبعده (إيلا)، وقائد المركبات (زيمري) إلى أن أعلن الشعب (عومري) ملكاً، ودام حكمه ١٢ سنة، وهو الذي بنى السامرة وكرهته التوراة هو وابنه (آحاب) الذي تزوج الأميرة الكنعانية (جيزابيل) ابنة ملك صيدون.

(٤) (Eni-Ilu).

(٥) (Peqah).

(٦) (A'usi) = (Osée) (عوزيّا).

(شلمنصر) الخامس (٧٢٦ ـ ٧٢٢ق.م.). أما سبي أهالي السامرة فقد نفذه (سرجون الثاني (٧٢٨ ـ ٧٠٥ق.م.).

و(سرجون الثاني) هو الملك المحارب الذي يُعتقد أنه اغتصب الملك وسبى عدداً كبيراً من أهالي حماه الآشوريين الذين عارضوا استيلاءه على الحكم. إذ إنه في ذلك الوقت، عندما كان الصراع على السلطة في أوجه، قام ملك (حماه) بتشجيع تمرّدٍ عام على سلطة آشور في كل من سورية والشمال الفلسطيني، وحتى أن مدينة (السامرة) التي كان شلمنصر الخامس قد أخضعها بعد حصار دام ثلاث سنوات، كانت من بين المتمردين.

كما عمّ التمرد بلاد بابل حيث قام (مردوك ـ ابلا ـ إيدّين) فأعلن ملكيته على بابل مدعوماً من قبل ملك عيلام، ما اضطر سرجون أن يعقد معه صلحاً العام ٧٢٠. وهكذا بعد ضمان جبهته الجنوبية عاد لمجابهة حلف سوري، وانتصر على الحلف في قرقار على العاصي، وتوغل حتى مدينة (رفح) على الرغم من وجود الجيش المصري المتمركز فيها. كما تمكن في العام ٧١٦ من إخضاع قبائل عربية عدة، وأجبر مصر على الانفتاح أمام التجارة الآشورية.

قام سرجون الثاني بعد ذلك العام ٧١٢ بقمع ثورة قامت في (أشدود) ونتج عن ذلك ضم المدن الفلسطينية إلى الامبراطورية. وما أن دعّم مركزه في الغرب، حتى عاد ليهتمّ بمنطقة بابل. وبدعوة من كهنة مردوك في بابل أطلق سرجون الثاني هجومه العام ٧١٠ ق.م، ما اضطر (مردوك ـ أبلا ـ إيدّين) إلى الفرار من المدينة.

في العام ٧٠٩ عاد سرجون إلى بابل للاحتفال بعيد رأس السنة، عيد الأكيتو.

وفي ما يلي، نقدّم مقتطفات من النصوص التي تركها ملوك آشور مسجلةً على أنصابهم التذكارية أو في محفوظات قصورهم عن منطقة الساحل الفلسطيني. ونستفيد من هذه المناسبة، بتقديم نصٍ يشير إلى استعادة ملك مؤاب أراضي والده التي كان عومري قد سلبه إياها قبل ٤٠ سنة مضت.

(١٠ ـ ٣) نصوص تركها ملوك آشور عن منطقة الشمال الفلسطيني:

نقدم مجموعة النصوص المشار إليها التي تقودنا إلى زوال مملكة السامرة وضمّها إلى الامبراطورية الآشورية، وفق التسلسل التالي:

أ ـ شلمنصر الثالث يجابه حلف آرام ـ دمشق

ب ـ ملك مؤاب يستعيد أراضي كان قد سلبها عومري

ج ـ أدد نيراري الثالث يفرض الجزية على ملك السامرة ودمشق

د ـ تغلات فلصّر الثالث يضمّ ساحل أمورو ومنطقة حماه إلى الامبراطورية

هـ ـ تغلات فلصر الثالث وملوك الساحل الكنعاني (٧٣٧)

و ـ استسلام عسقلان لتغلات فَلصّر الثالث (٧٣٣)

ز ـ تغلات فلصّر الثالث في مدينة غزّة

ح ـ نهاية السامرة على يد شلمنصّر الخامس (٧٢٦)

ط ـ حلف حماه ضد سرجون الثاني واحتلال أمورو

ي ـ سرجون الثاني وإنهاء حلف حماه

ك ـ سرجون الثاني يعود إلى غزّة ويأسر ملكها

ل ـ سرجون الثاني وضمّ مملكة السامرة إلى الامبراطورية

أ ـ شلمنصّر الثالث يجابه حلف آرام ـ دمشق:

في أولى حملات (شلمنصّر) الثالث لمحاربة آراميي دمشق في العام ٨٥٣ق.م. ومجابهة الحلف الذي تجمّع بزعامة (حدد ـ إيدري)[1] ملك دمشق، نجد (آحاب) ملك الشمال الفلسطيني آنذاك من ضمن هذا الحلف. كما كانت مدينة حماه في تلك الفترة، وكذلك مدينة قرقار شمالي حماه تابعتين لمملكة دمشق الآرامية. حيث نشبت في قرقار معركة أدّت إلى هدم وإحراق المدينة، وتمكُّن (شلمنصّر) من أسر العديد من الرجال، وغَنِمَ في الوقت نفسه عدداً كبيراً من المركبات الحربية...

يعدد النص الذي تركه ملك آشور تحرّكات عديدة في مختلف الاتجاهات اعتباراً من سورية الشمالية حيث خضعت له حلب من دون معركة وقبلت بدفع الجزية، بعدها قام (شلمنصّر) بالتقرّب من حدد إلٰه المدينة. ثم غادر المدينة وهاجم الساحل حيث جابهَ

(١) اسمه الآرامي هو (حدد ـ إيزير).

وأسر جنوداً من سيانو[١] وأرواد، وكذلك من مدينة (إرقاتا) العمورية (تل عرقا).

كما جَابهَ وغَنِمَ ألفاً من الجمال العائدة للملك العربي (جندبة)، ثم هاجم عمّان في شرقي الأردن. ويضيف النص أن قوة الإله آشور التي منحها إلى (شلمنصّر الثالث) مكّنته من الانتصار على جميع الذين كانوا ضدّه، وهم ١٢ ملكاً، عدّد منهم عشرة، وقد أشرنا إليهم آنفاً في الفقرة (٩ ـ ٢) من الفصل السابق، وبفضل الأسلحة التي كما يقول (شلمنصّر) زوّده بها الإله نرجال (إله الحرب)، فإنه تغلّب على جميع المتحالفين وأمطر عليهم كالإله حدد[٢] طوفاناً حتى امتلأ العاصي بأجسادهم وضاقت السهول والسهوب الواسعة، لدفن ضحاياهم...... حاولنا المحافظة على الأسلوب الرنّان الذي استُعمل لنقل أخبار المعركة وتعداد الأسرى والغنائم.

وبمناسبة الحلف المشار إليه ووجود (أهابّو)[٣] فيه كملك لبلد «سير ـ إيلا»[٤]، كما ورد في النص، يجب ألا يُستغرب ذلك، لأن (آحاب) هو ابن (عومري) الذي حكم في السامرة وكرهته المرويات التوراتية هو وابنه (آحاب) لأسباب ضد كنعانية تعصّبية لأنهما لم يُرضيا يهوه وتبنّيا عبادة الآلهة الكنعانية وكرهوا (آحاب) أيضاً لأنه تزوج أميرة كنعانية. وقد أشرنا إلى عومري وابنه في الحاشية رقم (٣) من (١٠ ـ ٢). ونحن نعلم أن المركز الديني للشمال الفلسطيني (السامرة) كان (بيت إيل)[٥]، بيت جميع الآلهة الكنعانية.

ونذكّر هنا بأن الملك جوزياس وكاهنه الأكبر حَلِمَا بفرض عبادة يهوه على الشمال الفلسطيني، ولذلك تمّ ابتداع، في نهاية القرن السابع، ما سمّي بالمملكة الموحّدة التي لم تقم قط وذلك للأسباب التي نشير إليها من جديد في الحاشية[٦] التي تضمنتها هذه الصفحة.

---

(١) سيانو: المنطقة الساحلية بين أوغاريت وصومور.
(٢) إله الأمطار والعواصف في بابل والشمال السوري.
(٣) (Ahabbu) التسمية الآشورية لـ(آحاب).
(٤) (Sir-Ila) هي التسمية الآشورية للشمال الفلسطيني (إسرائيل).
(٥) (Beit el) قرب عاي (Aï) إلى الغرب من أريحا على بعد ٢٠كلم (قرب رام الله).
(٦) القصد من ابتداع أسطورة المملكة الموحدة لداود وسليمان، كان لدعم الحركة الإصلاحية الدينية التي بدأها جوزياس وأراد جعل القدس التي لم تكن في بداية حكمه تتعدى كونها قرية معزولة، المحطة الدينية الوحيدة التي يجب على جميع سكان الشمال والجنوب الفلسطيني التوجه إليها =

وبالعودة إلى شلمنصّر الثالث وإصراره على مجابهة آرام ـ دمشق، فها هو يعود العام ٨٤١ق.م.، في السنة الثامنة عشرة من حكمه، وحدث ذلك في زمن الملك الآرامي (حزا إيل)، الذي كما أوضح (شلمنصر الثالث) في النص الذي تركه بأنه (أي ملك دمشق) اعتمد على فرقه التي جنّدها بأعداد كبيرة، وتمركز على الطرف الشمالي من سلسلة لبنان الشرقية (إلى الجنوب من قادش)، وجعل منها «قلعته» ويقول شلمنصر عن المعركة: «حاربته وانتصرت على جيشه وقتلتُ ١٦٠٠٠ رجل من جنوده وغنمت ١١٢١ مركبة و٤٧٠ حصاناً للركوب، كما استوليتُ على مركز تجمعه».

ويتابع النص قوله: «بغية إنقاذ حياته، انسحب من المعركة ولجأ إلى دمشق. فقمت بملاحقته حتى مدينته الملكية وقطعتُ أشجار حدائقه ووصلت حتى جبل (حورانو)، وقمت بتدمير وإحراق مدن لا تحصى، وأسرت عدداً من الرجال لا يحصى. كما وصلت حتى (بعل ـ رِئسا) (رأس بعل) الذي هو مقابل صور (؟)، وهنا تلقيت جزية (بعل ـ منذر) ملك صور، وكذلك جزية ملك صيدون وجزية (ياؤآ)[1] بن عومري». كما يضيف النص: «صعدتُ إلى جبل لبنان أثناء عودتي وأقمت نصباً تذكارياً يحمل صورتي إلى جانب نصب (تغلات فلصّر) الملك الذي سبقني»[2].

وفي العام نفسه أمر شلمنصر الثالث بإقامة مسلّة من الحجر الأسود بارتفاع مترين حملت نقوشاً وكتابة تشير إلى مدن وملوك أخضعها ملك آشور ومن بينها نقش يمثل (ياؤآ) وهو ساجد أمام الملك ووجهه إلى الأرض وتحت النقش كتب النّص التالي:

«جزية (ياؤآ) بن عومري، تلقيت منه فضّة وذهباً وصحناً مستديراً من الذهب وأوعية لاستخراج الماء من الذهب والقصدير وكذلك عصا حكم ليد الملك ورماحاً ذات رأس معدني للصيد».

= لعبادة يهوه والتخلي عن عبادة آلهة كنعان إيل وبعل وعشيرة وغيرهم... ولا بد من التذكير بأن معبد «القدس» كان قائماً قبل ابتداع أسطورة داود وسليمان وحتى قبل علاقة العبريين بابرام (إبراهيم). وكان المعبد مقر عبادة جميع المعتقدات، ولم يكن يعرف عبادة يهوه آنذاك. وقد أشرنا إلى كل ذلك في الفصول السابقة.

انظر الفقرة (ج) من الملحق رقم (٣).

(١) (Ya'u'a) يُعتقد أنه (Jehu) (ياهو) الذي اغتصب الملك من أبناء عومري ولم يكن من أبنائه.

(٢) أقيم النصب التذكاري المشار إليه على مصب نهر الكلب في لبنان.



١ ـ تمثال شلمنصر الثالث، آشور القرن التاسع ق.م

٢ ـ نصب تذكاري يمثل أسرحدون ملك آشور (٦٨٠ ـ ٦٦٩ق.م.).

ب ـ ملك مؤاب يستعيد أراضيَ كان قد سلبها عومري:

علمنا وفق ما أوردناه في الفقرة (٩ ـ ٣) عن التناقضات التاريخية مع المرويات التوراتية أن (حزا إيل) ملك دمشق هو الذي قتل (يورام) من عائلة عومري وليس (ياهو)، واستعاد مواقع استراتيجية وأراضيَ خصبة كان عومري قد اغتصبها في السابق وهذا هو (ميشا) ملك مؤاب، يقوم بعد إخضاع شلمنصر الثالث لـ(ياهو) باسترجاع ما كان عومري قد اغتصبه من أراضي مؤاب، وقد ترك لنا ملك مؤاب نقشاً يروي فيه كيف نفذ ذلك العام ٨٤٠ ق.م، مذكِّراً «بأنه منذ أيام حكم عومري قام هذا الأخير بإلحاق

الظلم بمؤاب وهذا هو ابنه الذي خلفه، يقول في نفسه «سوف أُلحِق الظلم بمؤاب»[١] ولكنّي انتصرت عليه، إذْ كان عومري قد استولى على (ماديبا) واحتفظ بها هو وأولاده مدة ٤٠ سنة، ولكن إلٰهي (كاموش) سمح لي باسترجاعها. فأقمت عند ذلك مدينة (بعل ـ ماعون) وجعلت فيها حوض ماء وبنيت (قرياتون). ولما كان عومري قد بنى (عتاروت)[٢] لنفسه قمت بمحاربة هذه المدينة واستوليت عليها وجعلتها حرماً كتقدمة من أجل (كاموش) و(مؤاب». . . .

٣ ـ نصب تذكاري لشلمنصر الثالث أقيم في قصر (نمرود) يمثل خضوع (ياهو) ملك السامرة

ثم قال لي إلٰهي (كاموش): «اذهب وخذ (نيبو)[٣]، فذهبت ليلاً، وحاربت في (نيبو) من مطلع الفجر حتى الظهر واستوليت عليها وقتلت ٧٠٠٠ شخص رجل وامرأة وأجانب[٤]، وجعلت منهم تقدمة (لعَشتر ـ كاموش)[٥] (. . . .) يتابع (ميشا) بعد ذلك معلناً استرجاع ما كان يخصّ مؤابْ،

---

(١) مملكة مؤاب تقع إلى الشرق من البحر الميت وإلى الجنوب من عمّان.

(٢) ('Atharot) التسمية مشتقة من عتّر أو عشتر إله الأمطار الصحراوي، وعرف أيضاً في النصوص الأوغاريتية.

(٣) (Nebo).

(٤) لا يشير النقش إلى من هم الأجانب.

(٥) (Ashtar-Kamosh).

ويصف بالتفصيل أعماله العمرانية وخصوصاً تأمين المياه وذلك بحفر حوضٍ كبير في وسط المدينة، كما يطلب من الأهالي بناء صهاريج في بيوتهم (. . . .).

أشرنا إلى هذا النص للدلالة على أن (شلمنصّر الثالث) من جهة، أخضع ملك الشمال الفلسطيني وفرض عليه الجزية، ومن جهة أخرى فإن (حزا إيل) ملك آرام دمشق أضعف مملكة الشمال الفلسطيني واستعاد المناطق التي كان عومري قد استولى عليها وهذا ما حدا بملك مؤاب على الاستفادة من تلك المناسبة لاسترجاع أراضيه ومدنه[١].

ج ـ أدد ـ نيراري الثالث يفرض الجزية على ملك السامرة ودمشق:

في السنة الخامسة من حكمه، قام الملك الآشوري (أدد ـ نيراري الثالث) (٨١٠ ـ ٧٨٣ق.م.) بتعبئة جيوشه واجتاز الفرات أثناء فترة الفيض، لأن ملوك بلاد هاتي (ويقصد الشمال السوري)، حين أصبحوا أقوياء كانوا قد رفضوا تقديم هداياهم إبان حكم والدي (شمسي ـ أدد). ولكن بريقي الرهيب أطاحهم بأمر من آلهتي: آشور ومردوك وأدد وعشتار، الآلهة الذين ألوذ بهم. عند ذلك سقطوا على قدميّ وفرضت عليهم عائدات وجزية يرسلونها إلى آشور وتلقيت منهم ذلك.

ثم طوّقتُ (مريء دمشق)[٢]، وتلقيت منه ١٠٠ وزنة ذهب و١٠٠٠ وزنة فضة.

وفي نصب تذكاري آخر للسنة نفسها، يكرر أدد ـ نيراري ما حققه سابقاً، مضيفاً تفاصيل أخرى، حيث يقول:

> في سنة واحدة أخضعتُ تحت قدميّ بلد أمورو وبلد (هاتي) (سورية الشمالية) بكامله، وحددت لهما للمستقبل العائدات والجزية».

ويشير أيضاً إلى أنه تلقى من (مريء دمشق) ٢٠٠٠. وزنة فضة و١٠٠٠ وزنة نحاس و٢٠٠٠ وزنة حديد. كما تلقى جزية (يؤاس)[٣] من السامرة (سامرينايا) وجزية رجل (صورايو) (صور) و(صيدنايو) (صيدا)، ثم يضيف النصب:

---

(١) انظر الفقرة (د) من الملحق رقم (١).

(٢) (مريء) هو هنا لقب ملك دمشق وهو تعبير آرامي معناه «السيد». وملك دمشق هو هنا (بار ـ حدد) بن حزا إيل.

(٣) (يآسو) في النص الأصلي (Ya'asu).

«ذهبت إلى البحر الكبير، بحر غروب الشمس وأقمت صورة ملكية لي في (أروادا) التي هي في وسط البحر. صعدت إلى جبل (لبنانا) وقطعت حوالى ١٠٠ جذع أرز متين لاحتياجات قصري ومعابدي».

وما يدل على اتساع الامبراطورية هو ذكر أدد ـ نيراري تلقيه جزية جميع ملوك بلد (نائيري) (منطقة بحيرة ڤان في أرمينيا).

وعلى بلاطة منقوشة عثر عليها في نمرود على بعد ٤٠كلم إلى الجنوب الشرقي من الموصل يعدّد النقش البلاد الخاضعة لآشور وفق ترتيب جغرافي كما يلي:

«بلاد هاتي (سورية الشمالية)، وبلد (أمورو) بكامله، وبلد (صور)، وبلد (صيدون)، وبلد (بيت عومري) أي (الشمال الفلسطيني).

وكذلك بلد (أودومو) (إيدوم)، وبلد (فلسطو) (فلسطين)، وحدّدت لهم عائدات وجزية. ثم ذهبتُ إلى بلد (شا إيميريشو) أي (آرام ـ دمشق) وطوقت (مريء) ملك (إيميريشو) بلاد دمشق في مدينته الملكية. وبريق آشور الرهيب، إلهي، أطاحه، فأمسك بقدميّ وأعلن لي خضوعه.

في دمشق، مدينته الملكية وفي قصره تلقيت (٢٣٠٠) وزنة فضة و(٢٠) وزنة ذهب و(٣٠٠٠) وزنة شَبَه (برونز) و(٥٠٠٠) وزنة حديد وألبسة مزركشة متعددة الألوان وكتّاناً وديواناً مطعماً ومرصّعاً بالعاج وأرزاقاً وممتلكات من قبله لا تحصى».

د ـ تغلات فلصّر الثالث يضمّ ساحل أمورو ومنطقة حماه إلى الامبراطورية:

تعود المعلومات التالية إلى ما تمّ تسجيله في المحفوظات الآشورية للعام الثامن من حكم تغلات فلصّر الثالث (٧٣٨ق.م.)، ويتعلق الأمر بحملته على الشمال السوري في كل من جوار جبل صافون (الجبل الأقرع شمالي اللاذقية)، وجبل لبنان الشرقي. وقد ورد في النص ما يلي:

«المقاطعات التسعة عشر لمدينة حماه على العاصي، وكذلك المدن التابعة لها على شاطئ البحر حيث تغرب الشمس (ساحل أمورو)، التي

استولى عليها (أزرياؤ)[١] (؟) بشكل غير عادل، ضممتها إلى مناطق آشور وعيّنت من قبلي موظّفين ساميين كحكامٍ عليها».

هـ ـ تغلات فلصر الثالث وملوك الساحل في السنة ٧٣٧ ق.م:

عُثر على هذا النص منقوشاً على نصب تذكاري في إيران، ويشير إلى ملوك كل من بلاد هاتي (الشمال السوري) وبلاد الآراميين على شاطئ البحر حيث تغرب الشمس، وقِدري[٢] بلد العريبي (العرب): (كوشتافي) من (كوموهو) و(راحيانو) من (شا ـ إيميريشو) (آرام دمشق) و(مينيهيمّي) (٧٤٦ ـ ٧٣٧) من (سامرينا) و(طوبا ـ ايل) من (صورو) و(سيفيت ـ بعل) من (چوبلا) (جبيل)، ثم يعدّد النصب سبعة مواقع قبل أن يصل إلى (چرچميش) (جرابلس الحالية)، مضيفاً (زبيبة) ملكة (العريبي) (العرب)، وبالنسبة لهؤلاء (يتابع النقش):

«حدّدت لهم العائدات والجزية وتلقيت منهم الذهب والفضة والقصدير والحديد وجلود الفيلة والعاج والأرجوان الأزرق والأحمر والألبسة ذات التزيينات المتعددة الألوان والكتان والنوق والجمال».

كما يعدد نص موازٍ عُثر عليه في المحفوظات الملكية، المحتوى السابق نفسه مضيفاً إليه اسم (إيني ـ إيلو)[٣] رجل حماه، ويضيف إلى المكتسبات: أحصنة وبغالاً وفدادين وأغناماً.

و ـ استسلام عسقلان لتغلات فلصّر الثالث (٧٣٣) ق.م:

وردت هذه المعلومات في ما تبقى من المحفوظات الملكية للملك الآشوري تغلات فلصّر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ق.م.) للسنة الثالثة عشرة من حكمه (٧٣٣)، وفيها يتحدث عن (راحيانو) آخر ملوك (آرام ـ دمشق). ونقدّم، قبل الدخول في موضوع الشمال الفلسطيني وعسقلان، محتوى ما ذكرته الوثائق الآشورية عن دمشق للدلالة على

---

(١) (Azriya'u) هو على ما يظهر أحد المحتلين من حماه أو من أمورو (؟) ولا تزال هويته قيد النقاش حتى اليوم. يؤكد ذلك النصب التذكاري الذي تركه تغلات فلصر الثالث في إيران العام ٧٣٧.

(٢) (Qidri) قد تكون (Qédar) قيدار.

(٣) (Eni-Elu) رجل حماه.

عنف التدخل الآشوري بصورة عامة. يشير النص على لسان تغلات فلصر الثالث متحدثاً عن (راحيانو):

«تحدّيت محاربيه [...] أطحت بالسلاح [...] قوّاد مركباته [...] حطمت أسلحتهم واستوليت على [...] وعلى أحصنتهم؛ أمسكت أنا بيدي بمقاتليه ونشابيه وحَمَلةِ تروسه ورماحه، وبدّدت استعداداته للمعركة، أما هو فقد فرّ وَحْدَه مثل (مانغوستا)[1] عبر بوابة مدينته.

أسرت وجهاء مدينته أحياءً ورفعت أجسادهم على رماح (خوازيق) ليراها أهل بلده. قمت بتطويق مدينته خلال ٤٥ يوماً وسجنته كعصفور في قفص».

يشير بعد ذلك، إلى قطع أشجار بساتينه من دون عدد، ولم يترك أي شجرة، واحتل مقر عائلته ومسقط رأسه، كما نفى ٨٠٠ شخص مع ممتلكاتهم [...]. وفدادينهم واعتقل سجناء من مدن مختلفة، مضيفاً:

«دمّرت كتلٍ طوفاني ٥٩١ بلداً [...]، عائداً لست عشرة مقاطعة لملك آرام ـ دمشق».

ونفهم من النص المكمّل لما سبق أن تغلات فلصر الثالث تدخل ضد دمشق العام ٧٣٣/٧٣٤ ووضع حدّاً لحلف تزعمته دمشق العام ٧٣٥ق.م.، بقيادة راحيانو (راسون أوريزون) ملك دمشق وضمّ إليه (فقحيا)[2] ملك الشمال الفلسطيني.

عند ذلك قام تغلات فلصّر الثالث بهدم مدن عدّة من الشمال، وعَزَل (فقحيا) بعد احتلال الجليل. كما يشير النص إلى اعتقال سجناء من مدن عدّة، أسماؤها الكاملة غير واضحة، ولكنه يعدّد (٦٢٥) سجيناً ثم (٦٥٠) و(٦٥٠) آخرين.

أما عسقلان، فيقول عنها النص إنها نكثت اتفاقاً كانت قد عقدته مع تغلات فلصّر الثالث وثارت ضدّه، ولكن رجل عسقلان حين علم بمصير راحيانو ملك دمشق، أصيب

---

(١) (Mangouste) هو نوع من الجرذ آكل اللحوم وأصل تسميته هندية.

(٢) (Peqah) (٧٣٥ ـ ٧٣٢).

بنوبة خوف رهيب (أي نوبة قلبية) وقضى حتفه وخلفه ابنه (روكيبتو)[١] الذي هرع للامتثال أمام تغلات فلصر راجياً.

ثم يضيف النص:

«دخلتُ مدينته ثمّ دخلت ١٥ مدينة [. . . .]»[٢].

يكرر نص آخر، يعود هو أيضاً إلى حكم تغلات فلصر الثالث، خبر قلب (فقحيا)، واحتلال دمشق وضمّها إلى الامبراطورية الآشورية، وكذلك السيطرة على مدن چوبلا (جبيل) وسيميرا (صومور العمارنة) وعرقا (تل عرقا) و(. . . .) وسيانو، المدن الواقعة على شاطئ البحر العلوي (المتوسط)، ويشير النص أيضاً إلى تعيين موظفين من قبل تغلات فلصّر حكاماً على تلك المدن (. . . .).

كما يضيف أخيراً على الرغم من بعض النقص قوله:

«ضممت بلد بيت (حزا إيل) الواسع (أي آرام ـ دمشق) بكامله إلى البلاد الآشورية وعيّنت على رأسه موظفاً رفيعاً كحاكم عليه» (تفاصيل نهاية آرام ـ دمشق وردت في الفقرة ٩ ـ ٤).

هكذا انتهى حكم الآراميين في دمشق. ينتقل النص بعد ذلك، إلى ما يسمّيه (بيت عومري) وبقي هذا الاسم مع تسمية (السامرة) هو المعروف والمستعمل من قبل الآشوريين بصورة عامة للتحدث عن الشمال الفلسطيني. وهنا يضيف النص:

«نقلت إلى آشور جميع أهالي بيت عومري [. . . . .] قاموا بقلب (فقحيا) ملكهم وأجلست (آوْسي)[٣] ملكاً عليهم [. . .] بعد تسديد جزيته».

ز ـ تغلات فلصر الثالث في مدينة غزّة:

وصلنا هذا النص مشوّهاً وفق نسخ عدّة، وقد أمكن التوصل إلى الصيغة التالية:

«(حنونو) رجل غزّة، تملكه الخوف أمام قوة سلاحي، ويقول نص

---

(١) (Rukibtu).

(٢) دخول تغلات فلصر الثالث عسقلان يعني انحسار النفوذ المصري.

(٣) (آوْسي) (٧٣٢ ـ ٧٢٤) يعني (عوزيا) (Osée) وهو آخر ملوك الشمال الفلسطيني.

موازٍ: «حنونو الذي فرّ أمام أسلحتي، هرب إلى بلاد مصر. استوليت على (غزاتو) وسلبت [. . .] وزنة ذهب و٨٠٠ وزنة فضة من المكان، وكذلك ممتلكاتهم، وسبيت زوجته وأبناءه وبناته (أي حنونو)».

ويوضح النص الموازي ما يلي:

«سلبت ممتلكاته وآلهته وأمرت بصنع تماثيل لآلهتي العظام أسيادي، وتمثالاً ملكياً لي، جميعها من الذهب، وأقمتها في قصر (غزاتو)، واعتبرتها آلهة لبلدهم، وفرضت عليهم [. . .].

يتابع النصّ الموازي، فيقول متحدثاً عن ملك غزة:

«الخوف أرهَبَهُ وفرّ كعصفور إلى بلد مصر [. . . . .] أعدتُهُ إلى مكانه واعتبرت (غزاتو) كمركز مكوس متقدم لآشور[١].

يلي ذلك ما تلقاه من ذهب وفضة وألبسة مزركشة وكتان. . . الخ.

ح ـ نهاية السامرة على يد شلمنصّر الخامس (٧٢٦):

في العام ٧٢٦ ق.م، جلس شلمنصّر الخامس على عرش آشور وآكاد. هدم (شامارائن) (السامرة)، وفي السنة الخامسة ذهب إلى مصيره بعد أن مارس الملكية خلال خمس سنوات.

عند ذلك تبوأ عرش آشور (شاروكين) = (سرجون الثاني)، بينما جلس (مردوك ـ أبلا ـ إيدّين)[٢] على عرش بابل.

ونحن نعلم أن شلمنصر الخامس حاصر مدينة السامرة العام ٧٢٢[٣]، أما سبي أهالي السامرة، فقد تمّ على يد سرجون الثاني العام ٧٢٠.

ط ـ حلف حماه ضدّ سرجون الثاني واحتلال أمورو:

في السنة الثانية، تبوأ سرجون الثاني العرش، قام أحد الحمويين[٤] الذي لا حقّ

---

(١) نلاحظ أن التجارة وتحصيل الرسوم كان بالإضافة إلى قوة السلاح، من خصائص الآشوريين، وكانت التجارة أهم ما نجحت بتحقيقه الامبراطورية الآشورية.

(٢) وردت تفاصيل ذلك في نهاية الفقرة (١٠ ـ ٢) من هذا الفصل.

(٣) وردت تفاصيل أوسع لنهاية آرام ـ دمشق والسامرة في الفقرة (٩ ـ ٤).

(٤) يتضح من النص (ي) أنه من سورية الشمالية.

له في المُلك بجمع حلف حوله مؤلف من مدينة أرپاد[١] وسامرينا (السامرة) اللتين جعلهما إلى جانبه. وقد هاجم [. . . .] ولم يبقِ على حياة أحد.

ويضيف النص عن سرجون قوله:

«رفعتُ يدي مصلياً[٢] ومن أجل احتلال بلد حماه، كان عليّ [. . .] بلد أمورو المتسع. وآشور [. . . .] استجاب لصلاتي [. . .] جيوشي، ووجهتها نحو طريق أمورو.

بَلغ بلد حماه [. . .] (خبر) انتصاري [. . .].

أخضعتُ تحت قدمي بلد أمورو بكامله [. . .]

إخضاع بلد أمورو، كان إعداداً لمجابهة الحلف الذي تزعمته حماه ولدينا في ما يلي نص موازٍ أوضح من الأول عن الحلف نفسه.

ي ـ سرجون الثاني ينهي حلف حماه (٧٢٠ق.م.):

وردت تسمية قائد حلف حماه ضد سرجون الثاني وفق شكلين: وهما (ياؤ بِئدي) و(إيلو بِئدي). وتصفُهُ المحفوظات الآشورية بأنه سوري (من سورية الشمالية). كما اعتُبر بأنْ لا حقّ له بالعرش ولم يكن سوى رجل سيئ لا صلة له بأمراء الحكم. وكان قد «صمَم في قلبه» على التوصل إلى الملْك في بلد حماتو (حماه)، ولذلك، يقول نص سرجون الثاني: «ألّب ضدّي مدن (أرپاد) و(صيميرًا) (سيميرا) أو (صومور) ودمشقا (دمشق) و(سامرينا) (السامرة)، ووفّق بينها وأعدّ للمعركة.

وتكمل المحفوظات الآشورية موضوع حلف حماه، على لسان سرجون الثاني كما يلي:

عبأت جيوش آشور الوافرة العدد، وحاصرته في (قرقار)[٣] مدينته المفضّلة وقبضت عليه. أسلمت (قرقار) للنيران.

---

(١) (Arpad) تقع على حوالى ٨٠كلم من الشمال الشرقي من حماه قرب حلقة العاصي.

(٢) هناك صلوات في آكاد وآشور كانت تتم واليد مرفوعة.

(٣) على العاصي إلى الشمال من حماه.

أما هو «فسلخت جلده». وفي المدن ذاتها أعدمت المسؤولين عن الحلف[١].

ك ـ سرجون الثاني يعود إلى غزة ويأسر ملكها:

تعود الأحداث إلى العام ٧٢٠ ق.م.، ويشكل النص القسم الثاني من المحفوظات التي أوردت نص حلف حماه السابق. وقد ورد موضوع غزّة وملكها (حنونو) على الشكل التالي، وعلى لسان سرجون:

«[. . . .] جمع (ريئي)[٢] جيشه لإسناده، (أي لإسناد حنونو ملك غزة). ووقفا ضدي لشن معركة وقتال. وبأمر من آشور إلهي، فرضت عليهما انكساراً و(ريئي)، كأنه راعٍ سرق منه قطيعه هرب وحده واختفى.

قبضت على حنونو شخصياً (بيدي)، وأخذته أسيراً إلى مدينتي آشور، هدمتُ ودمرتُ مدينة (رافيحو) (رفح)، وأسلمتها للنيران. سبيت ٩٠٣٣ شخصاً، واستوليت على كمية كبيرة من ممتلكاتهم».

وفي نص آخر يتعلق بالموضوع نفسه، فإن سرجون الثاني يعود إلى احتلال السامرة ويقوم بنفي ٢٧٢٩٠ شخصاً من سكانها، وبجمع (٥٠) مركبة، وتعيين الباقين للاهتمام بحرفهم[٣]. (كما) عيّنتُ، (يتابع سرجون)، موظّفاً سامياً على رأسهم كحاكم عليهم. وفرضت عليهم الجزية نفسها التي كانت مفروضة على الملك السابق.

«أما (حنونو) ملك غزّة، و(ريئي) رئيس جنرالات مصر، اللذان وقفا ضدي في (رافيحو) (رفح) لشن معركة وقتال: ففرضت عليهما انكساراً، وخاف (ريئي) من صليل سلاحي، فهرب إلى مكان مجهول. وأوقفت (حنونو) ملك غزّة شخصياً».

ل ـ سرجون الثاني وضمّ مملكة السامرة إلى الامبراطورية:

في السنة الثانية من حكمه وفقاً للمعاهدة مع الإله آشور (٧٢٠)، وقد تعَاصَرَ ذلك

---

(١) بمن فيهم مسؤول السامرة.

(٢) (Ré-é) اسم الجنرال المصري الذي أراد في رفح الدفاع عن غزة.

(٣) يعني ذلك مصادرة أصحاب الحرف. وقد يفهم من النص تركهم في أماكنهم للعمل لمصلحة آشور.

مع الحملة على حلف حماه، عمد سرجون إلى حصار السامرة واحتلالها، كما ورد آنفاً، يضاف إلى ذلك قيامه بنفي قسم من الأهالي في العام ٧٢٠ وتنظيم منطقة السامرة. تتضح تفاصيل التنظيم في النص التالي المأخوذ عن موشور (نمرود) حيث إن نص المحفوظات الملكية مفقود معظمه:

«رجال (سامرينا)، اتفقوا مع [ملك عدو (؟)] لكي يتحرروا من الخضوع لآشور ولعدم تسديد العائدات ولشن الحرب.

قاتلت ضدّهم بقدرة آلهتي العظام وأخذت منهم سجناء (٢٧٢٨٠) شخصاً مع مركباتهم، وكذلك الآلهة التي يلوذون بها، (كما أخذت) منها ٢٠٠ مركبة[١] من أجل فرقتي الملكية، وخصصت البقية للاستعمال في آشور.

وسّعت مدينة السامرة وجعلتها أكبر مما كانت عليه.

ونقلت إليها سكاناً من البلاد التي قمت باحتلالها شخصياً[٢]، وعيّنت على رأسهم موظفاً سامياً كحاكم عليهم.

واعتبرتهم وكأنهم من سكان آشور»، (أي فرضت عليهم عائدات وضرائب كما كان يطبّق ذلك على الآشوريين)[٣].

---

(١) ورد العدد ٥٠ في النص السابق.

(٢) سياسة السبي واستبدال الأهالي هي سياسة اتّبعت من قبل ملوك وحكام ما بين النهرين بقصد تمازج السكان وتحاشي الاضطرابات، ومسبّو السامرة لم يشر أي نص إلى عودة أحد منهم، والمرجح أنه تم انصهارهم حيث استقروا (انظر الملحق رقم (٢).

(٣) يدل ذلك على أن سكان الامبراطورية كان عليهم تسديد عائدات للدولة وفي ذلك قوة الجيوش الآشورية.

الفصل الحادي عشر

(١١) مملكة الجنوب الفلسطيني بين آشور وبابل

(١١ ـ ١) تسلسل الأحداث

(١١ ـ ٢) ما تركه ملوك آشور وبابل من نصوص عن منطقة الجنوب الفلسطيني

(١١) مملكة الجنوب الفلسطيني بين آشور وبابل

(١١ ـ ١) تسلسل الأحداث:

- تغلات فلصّر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧) ملك آشور يعدّ (ياؤدو)[١] من بين المدن التي تدفع له الجزية بالإضافة إلى (عسقلان) و(أودوم) و(غزة) (٧٢٩).

- أما سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥) فإنه يخضع بلد (ياؤدو) العام ٧٠٦، كما يحتل وادي العريش العام ٧١٦، وفي العام ٧١٥ يقوم بنقل قبائل عربية ويسكنها مدينة (السامرة).

- سرجون الثاني ينتصر على مصر في رفح العام ٧١٢، وينقل ملك غزة سجيناً إلى آشور، كما يحوّل أشدود إلى منطقة آشورية، ويحذّر ملوك (ياؤدو) و(أودومو) و(مآبا) من الخيانة والتوجه نحو مصر.

- في قصره الجديد الذي بناه في خورساباد، تشهد النقوش على أبواب القصر بالهدايا التي تلقاها من كلٍ من (غزّاتو) و(ياؤدو)، و(مآبا) و(بيت عمّانا) و(عقرون) و(چوبلا).

- ندخل هنا في العام ٧٠١ عندما يقوم سنحريب (٧٠٤ ـ ٦٨١)، بإخضاع (صيدونو)

---

(١) (Ya'uda) نلاحظ أن ياؤدو أو يهودو/ يهودا يشار إليها كمدينة بالتوازي مع ذكر مدن أخرى. فهل كانت هناك مدينة تحمل هذا الاسم؟

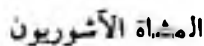
و(عكا) ذات الأسوار والمدن المجاورة ويعيّن عليها ملكاً من قِبله. كما يعاقب ملك (عـقاونا)، ويولي مكانه ملك المدينة السابق، ثم يستولي على (يافو) و(بيت دجن) و(حاصور) لأنّ ملكها لم يخضع له عفوياً. أما أهالي (عقرونا) الذين أسروا ملكهم وسلّموه لحزقياؤ[1] من بلد (ياؤدو)، وطلبوا عون مصر، التي أتت للقتال، فإنه يكسر ملكها ويحرّر ملك (عقرونا) السجين في (أورشاليمو)[2]. ثم يحاصر ويحتلّ ٤٦ مدينة من ياؤدو. التي يرسل ملكها بعد ذلك وفداً إلى (نينوى) لتقديم الولاء لآشور ودفع الجزية.

- بنتيجة الاضطراب الذي حصل لدى مقتل سنحريب، وقبل تولّي أسرحدّون العرش (٦٨٠ ـ ٦٦٩)، حاولت مملكة (صيدون) التمرد، فقام أسرحدون بضمها إلى آشور وإعدام ملكها. ومن بين مدن فلسطين، يعدّد بين تابعيه مدن: (ياؤدو) و(غزاتو) و(عسقلونا) و(أشدود).



سرجون الثاني مع أحد الوجهاء

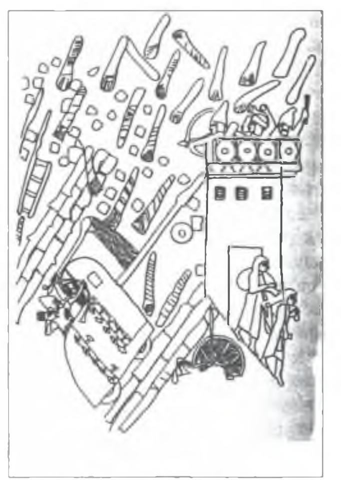




المشاة الآشوريون

(١) (حزقياؤ) = حزقيا (Ezéchias).

(٢) نحن في العام ٧٠١ ق.م، وهذه هي المرة الأولى التي يرد فيها اسم (أوروسالم)، فهل المدينة لم تكن لها أهمية قبل هذا التاريخ؟



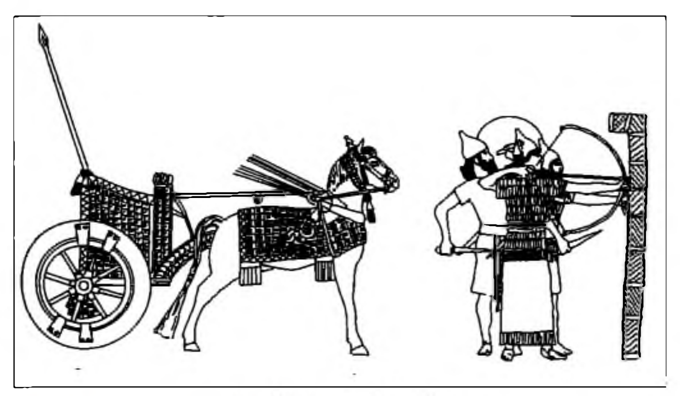
حصار لخيش من قبل سنحريب



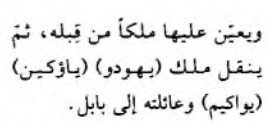
آشور بانيبال يسكب، تقدمه السائلة

- أما آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٧)، فإنه هو أيضاً يعدد بين التابعين (صور) و(ياؤدو)[١] وهؤلاء سار جنودهم وسفنهم مع جيش آشور بانيبال لمهاجمة مصر والنوبة.
- نشهد بعد ذلك زوال آشور، بعد وفاة آشور بانيبال، وذلك حين تحالفت بابل مع عيلام ضد آشور وعلى الرغم من محاولة مصر دعم المقاومة الآشورية تحاشياً لتفاقم خطر بابل عليها. وأن الملك البابلي (نابو بولاصّر) (٦٢٦ ـ ٦٠٥)، بدأ هجماته، فسقطت (آشور) بيد أعدائها في صيف ٦١٤ ق.م، وسقطت (نينوى) في العام ٦١٢ وأخيراً سقطت (حرّان) على البليخ.
- بعدها يقوم (نبوخذ نصر الثاني) العام ٦٠٤ بكسر جيوش مصر في كركميش ويلاحق انسحابها، فيحتل (عسقلونا). وفي العام ٥٩٧ يحاصر مدينة (يهودو) ويأسر ملكها،

(١) وهنا أيضاً يطلق على (ياؤدو) تسمية مدينة، ومن المفيد التساؤل لماذا لم يرد اسم أوروسالم إلا مرة واحدة في العام ٧٠١ ق.م وأن نبوخذ نصر الثاني حاصر مدينة (يهودو) وأسر ملكها في العام ٥٩٧.

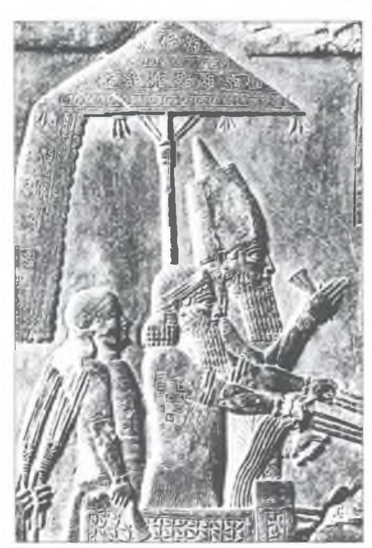


مركبة حربية آشورية ومحاربون آشوريون



ويعيّن عليها ملكاً من قِبله، ثمّ ينقل ملك (يهودو) (ياؤكين) (يواكيم) وعائلته إلى بابل.

- نشهد بعد ذلك نهاية حكم الملك نابونيد (٥٥٦ ـ ٥٣٩) ق.م الذي خلف (نبوخذ نصّر) الثاني، كما نشهد سقوط بابل بيد كورش الفارسي، وتنتهي بذلك الفترة الآشورية ـ البابلية لتبدأ فترة حكم جديدة تحت سيطرة فارس التي تبني بدورها امبراطوريتها.



آشور بانيبال على مركبة الاحتفالات



آشور بانيبال وهواية الصيد



آلة الحرب الآشورية

(١١ ـ ٢) ما تركه ملوك آشور وبابل من نصوص عن منطقة الجنوب الفلسطيني:

أ ـ تغلات فلصر الثالث يفرض الجزية على ياؤدو

ب ـ سرجون الثاني ومملكة ياؤدو

ج ـ سرجون الثاني واحتلال وادي العريش (٧١٦)

د ـ سرجون الثاني يُسكن القبائل العربية في السامرة

هـ ـ تحويل أشدود إلى منطقة آشورية وتحذير المناطق من الخيانة

و ـ سرجون يعدّد هداياه من فلسطين ويباهي بانتصاراته

ز ـ حملة سنحريب على فلسطين واحتلال مدن ياؤدو

ح ـ سنحريب يجمع جنوده في لخيش قبل محاصرة أورشليم

ط ـ مقتل سنحريب العام ٦٨٠ ق.م.

ي ـ تمرّد صيدون وإعدام ملكها

ك ـ تابعو أسرحدّون في الغرب ومن بينهم ياؤدو (٦٧٣)

ل ـ أسرحدّون وإخضاع مدينة صور (٦٧١)

م ـ آشور بانيال يقود حملة ضد مصر

ن ـ حملة آشورية جديد ضدّ صور

س ـ مصر والدفاع عن آشور لدرء الخطر البابلي ـ الميدي

ع ـ نهاية آشور على يد نابو بولاصّر

ف ـ نبوخذ نصر الثاني يسيطر على مدينة يهودو ويأسر ملكها

ص ـ يواكين ملك (يهودو) في بابل على لائحة توزيع المواد الغذائية

ق ـ أواخر أيام نابونيد وسقوط بابل

ملوك آشوريون وبابليون كان لهم دور في فلسطين

شلمنصر الثالث . . . . . . (٨٥٩ ـ ٨٢٤)

أدد نيراري الثالث . . . . . . (٨١١ ـ ٧٨٣)

تغلات فلصر الثالث .... (٧٤٥ ـ ٧٢٧)

شلمنصر الخامس .... (٧٢٧ ـ ٧٢٢)

سرجون الثاني .... (٧٢٢ ـ ٧٠٥)

سنحريب .... (٧٠٤ ـ ٦٨١)

أسرحدون .... (٦٨٠ ـ ٦٦٩)

آشور بانيال .... (٦٦٨ ـ ٦٢٧)

نابو بولاصّر .... (٦٢٦ ـ ٦٠٥)

نبوخذ نصّر الثاني .... (٦٠٥ ـ ٥٦٢)

نابونيد .... (٥٥٦ ـ ٥٣٩)

سقوط بابل: (٥٣٩)

أ ـ تغلات فلصر الثالث يفرض الجزية على ياؤدو:

يعود النص التالي إلى العام ٧٢٩ ق.م المُوافق السنة ١٧ لحكم تغلات فلصّر الثالث، ويعدّد فيه الملك الآشوري أسماء الملوك الذين يدفعون له الجزية، وبعضهم لم يرد في النص السابق (١٠ ـ ٣) هـ. وهؤلاء المكلّفون هم كما يلي:

تلقيت جزية كشتاشفي من بلد كوموهو

وتلقيت جزية أوريك من بلد كِيئي

وتلقيت جزية شيبيتّي ـ بعل من بلد چوبلا □

[.....]

وتلقيت جزية إيني إيلو من بلد حماتو □

وتلقيت جزية فانا مّو من بلد شمآلا

وتلقيت جزية توزهولارا من بلد چورچومو

وتلقيت جزية سود [ومال] من بلد ميليدّو

وتلقيت جزية أو آسورمي من بلد تابال

وتلقيت جزية أوشهيتّي من بلد تونا

وتلقيت جزية أورفالاّ من بلد توهانا

وتلقيت جزية توهامّي من بلد إيشتوندي

وتلقيت جزية ماتان ـ بعل من بلد أروادا □

وتلقيت جزية سانيفو من بلد عمّانا □

وتلقيت جزية سلمانو من بلد مآبا □

وتلقيت جزية مينتينتي من بلد عسقلانو *

وتلقيت جزية ياؤهازو من بلد ياؤدو *[1]

وتلقيت جزية كاؤشملاكا من بلد أودومو □

وتلقيت جزية حنونو من بلد غزاتو *

تلقيت منهم ذهباً وفضّة وقصديراً وحديداً ورصاصاً وألبسة مزركشة متعددة الألوان وكتاناً وألبسة من بلادهم وأرجواناً أحمر [. . . . . . . وأشياء عديدة أخرى] ذات قيمة ومنتجات البحر والبرّ والأشياء المرغوب فيها من أجل الكنوز الملكية وأحصنة وبغال جرّ [. . .] أوفدت صور موظفي السامي الأكبر (ساقيّ)، وتلقيت من (ميتينّا) ملك صورو ١٥٠ وزنة ذهب [. . . .].

ب ـ سرجون الثاني ومملكة ياؤدو (٧٢٠) ق.م:

في ما يلي مقتطف من نقش، تم كشفه في (نمرود)، وسُجِّل بُعَيْد العام (٧١٦)، ويعتقد أن خضوع مملكة يهودا، وفق هذا النص تمّ على ما يظهر بعد التمرد والحلف الذي قادته حماه في العام ٧٢٠، حيث كان للسامرة فيه دور ما، وقد ورد في النقش ما يلي:

«الملك القوي، ملك العالم، ملك آشور، ملك المناطق الأربعة»

(. . . . . .) ثم اعتباراً من السطر السابع يتابع النص متحدثاً عن الملك:

---

(١) من المرجح أن (أخزيا) ملك (ياؤدو) هو الذي طلب معونة تغلات ـ فلصر الثالث لمجابهة حلف آرام دمشق ورفيقه من الشمال الفلسطيني، وأصبح من تابعيه، أي من مسددي الجزية.

ملاحظة: الإشارة (□) تعني تابعين من سوريا/لبنان/الأردن و(*) فلسطين.

«الذي جَابَهَ ملك عيلام في منطقة دير[١] وكبّده انكساراً، كما أخضع بلد (ياؤدو) الواقع في مكان بعيد[٢] والذي نفى سكان حماتو، كما أسر شخصياً (ياؤب ـ إيدي)[٣] الأمير، وهو الذي جعل بلد (كاكمي)[٤] العدو اللئيم يبدّل موقفه، وأعاد تنظيم فوضى (المانّيين)[٥]، وهو الذي أبهج قلب بلده ووسع منطقة آشور».

ج ـ سرجون الثاني واحتلال وادي العريش (٧١٦):

هذا النص، مأخوذ عن كسرة من موشور عثر عليه في آشور، وفيه تشير الأسطر الأولى إلى احتلال مدينة أو منطقة ضاع اسمها، وتمّ نقل سكانها إلى وادي العريش في الشمال من شبه جزيرة سيناء. وقد يعني ذلك نقلهم إلى قلعة العريش. ويمكن إرجاع نشاط سرجون في تلك المنطقة إلى العام (٧١٦)، مع الإشارة إلى إطلاق اسم (شيلكانّي)[٦] على فرعون مصر. وقد ورد في النص ما يلي:

«إن بريق إلهي، أرهب (شيلكانّي) ملك بلد مصر [وذلك في مكان بعيد] فجاء إليّ بهدية من ١٢ حصاناً كبيراً من مصر لا مثيل لها في البلد (أي في آشور).

د ـ سرجون الثاني يسكن القبائل العربية السامرة (٧١٥ق.م):

ورد في النص حول القبائل العربية ما يلي:

«قبائل التمودني والعبايدي والمارسيماني والهيافا العربية البعيدة، التي تقيم في الصحراء والتي لا تعرف لا رئيساً ولا حاكماً ولا تسدد عائدات لأي ملك (هؤلاء) أطحتهم بالاعتماد على آشور إلهي ونقلت الذين بقوا منهم وأسكنتهم مدينة (سامرينا) (السامرة).

---

(١) (Dêr).

(٢) في تلك السنة نفسها أخضع سرجون الثاني غزة ورفح ولم يشر النص إلى البعد.

(٣) (ياؤب ـ إيدي) (Ya'ub-'idi)، هل هو (إيلوب ـ إيدي) الذي جمع حلف حماه ضد سرجون الثاني؟.

(٤) (Kakmé).

(٥) (Mannéens).

(٦) (Shilkanni).

ومن فرعون ملك مصر، ومن (شمسي) ملكة العرب، ومن (إتأمر) من بلد (سبأ) تلقيت كجزية ذهباً على شكل (تِبْرات) مستخرجة من الجبل وأحجاراً كريمة وعاجاً وبذور شجر الأبنوس وكل أنواع التوابل وأحصنة ونوقاً».

وفي نص موازٍ، يرد في الأسطر (١٩ ـ ٢٠) تذكير بالانتصارات السابقة حيث يقال عن سرجون الثاني:

«الذي هزّ بلد عومري الواسع[١] والذي كبّد انكساراً لبلد مصر في (رفح)، ونقل (حنونو) ملك (غزة) سجيناً إلى آشور، والذي أطاح قبائل تمودي وعباديدي ومارسيماني وهيّافا ونقل ما تبقى منهم وأسكنهم بلد بيت عومري.

هـ ـ تحويل أشدود إلى منطقة آشورية وتحذير المناطق من الخيانة (٧١٢):

كان سرجون الثاني قد تدخّل في أشدود قبل سنة، في العام (٧١٣)، وذلك لإزاحة ملك أشدود (آزوري)[٢] المتّهم بخيانته لآشور. ولدينا هنا نص يشير إلى سقوط أشدود وتحويلها إلى مقاطعة آشورية.

وقد وصلنا نصّان حول الموضوع نفسه، يعود الأول إلى سجلات «الأيام المجيدة»[٣]، والثاني مأخوذ عن موشور نينوى وهو يكمل في بعض النقاط النص الأول الذي يوضح ما يلي:

«عَزمَ (آزوري) ملك أشدود[٤] في قلبه ألاّ يقدم العائدات المتوجبة عليه ووجّه إلى ملوك الجوار رسائل معادية لآشور. وبما أنه ارتكب شرّاً فقد أبعدتُه وعيّنت مكانه شقيقه (أحيميتي)[٥] ملكاً. أما السوريون الذين لا

---

(١) المقصود هو الشمال الفلسطيني الذي بقي في العرف الآشوري يعرف ببيت عومري، وقد شهدنا دخول ابنه (آحاب) في حلف آرام دمشق ضد شلمنصر الثالث في العام (٨٥٣).

(٢) (Azuri).

(٣) من اللافت للنظر تأثر المرويات التوراتية بطريقة التأريخ في أخبار الملوك وأخبار الأيام.

(٤) قرب الشاطئ على بعد حوالى ١٨كلم إلى الشمال من عسقلان.

(٥) (Ahimiti).

يقولون سوى الأكاذيب، فقد كانوا معادين لسلطته وأقاموا (ياماني)[١] وهو شخصيّة لا حق لها بالملك، وكان مثلهم لا يعرف احترام السلطة.

وفي غضب قلبي، لم أقم بجمع كامل جيشي ولم أنظّم حملة كبيرة، إذ توجّهت إلى أشدود مع محاربيّ وحدهم وجميعهم، هم دوماً إلى جانبي حيث يوجد أعداء. أما هو (أي ياماني) عندما علم بقدومي وبينما كنت لا أزال بعيداً، فرّ إلى حدود بلد مصر ومنه إلى أعماق بلد (ملوحا)[٢] إلى مكان لا يمكن معرفته.

حاصرت واحتللت مدن (أشدود) و(جمتو) (چات)، و(أشدود ـ يمّو)، أي (أشدود البحرية). واعتبرت من بين الغنائم آلهته وزوجته وأبناءه وبناته وممتلكاته وكنز قصره وكذلك أفراد بلده. وأعدت تنظيم تلك المدن ونقلت إليها سكاناً من البلاد التي أخضعتها شخصياً من جبل شروق الشمس وأسكنتهم إياها.

عينت على رأسهم موظفاً سامياً من قبلي كحاكم عليهم. واعتبرتهم كرعايا آشوريين وقاموا بجرّ نيري.

أما ملك (ملّوحا) الذي [. . .] وسط [. . .] في مكان يصعب الوصول إليه وعلى طريق [. . .] وهو الذي لم يوجّه آباؤه، منذ أيام بعيدة وحتى اليوم، رسلاً إلى الملوك آبائي للسؤال عنهم. وقد سمع عن بعد (أي ملك ملّوحا)، بقوة الآلهة آشور ونابو ومردوك. وغمره بريقي الملكي الرهيب بالرعب الذي انسكب عليه (ولذلك) قام بتكبيله (أي ياماني) وتقييد حركته بالحديد. وتمّ نقله إلى آشور بعد سفرٍ طويل ليمثل أمامي».

أما نص موشور نينوى، فبدايته مشوهة ويمكن، اعتباراً من السطر (٢٥) قراءة ما يلي:

«إلى ملوك (فلسطين) و(ياؤودو) و(أودومو) و(مآبا) الذين يقيمون على شاطئ البحر، ويقدّمون العائدات والهدايا إلى آشور الإله [. . .]

---

(١) (Yamani).

(٢) ملّوحا هي هنا بلاد النوبة.

هناك أقاويل كاذبة وكلمات غبية تحاول تحويل الذين هم معي لمعاداتي، وقد قدّموا هداياهم لفرعون ملك مصر، أميراً لا يستطيع إنقاذهم ولم يفتأوا يطالبونه بالمساعدة.

أنا شاروكين (سرجون الثاني) الأمير العادل الذي يحترم القَسَم أمام الآلهة (نابو) و(مردوك) والذي يحافظ على نظام آشور، قمت باجتياز الفرات في فترة فيضه الأعلى، في الربيع، وكأنه أرض صلبة. وهو، (يماني) ملكهم الذي اعتمد على قوته هو، ولم يخضع لسلطتي، ولكنه عندما علم بقدومي، وحين كنت بعيداً، فإن بريق آشور قَلَبَهُ [. . .] (بقية النص غير واضحة).

و ـ سرجون يعدد هداياه من فلسطين ويتباهى بانتصاراته:

في النص التالي، الذي نقش على أبواب قصر سرجون الثاني في قصره الجديد الذي أقامه في خورساباد (دُور شاروكين) نقرأ ما يلي:

«قصر شاروكين، الملك العظيم، الملك القوي، ملك العالم، ملك آشور وحاكم بابل، ملك سومر وآكاد الخ. . .».

وقد ورد في الأسطر (٣١ ـ ٣٣):

«الذي احتل مدينة (سامرينا)، وكلّ بلد بيت عروي، الذي نهب مدينة أشدود [. . .]».

وفي الأسطر (٣٨ ـ ٤١) ورد ما يلي:

«الذي كبّد (رافيحا) (رفح) انكساراً في بلد مصر[1]، وأخذ سجيناً لديه هو (حنونو) ملك (غزاتو)» [. . .].

ثمّ في الرسالة التي وجهها حاكم كلخو إلى سرجون يعلمه بالهدايا التي أُرسِلت إليه من قبل تابعيه نقرأ ما يلي:

«تلقيتُ ٤٥ حصاناً من [. . .]. وجهاء مصر[1] و(غزاتو) و(ياؤدو)

---

(١) في عرف آشور كانت (رفح) تمثل محمية مصرية ووجهاء مصر في ما بعد هم وجهاء (رفح).

و(مآبا) و(بيت عمّانا) وصلوا إلى كلخو في الثامن عشر، وبأيديهم جزيتهم: رجل غزاتو مع ٢٤ حصاناً بيده، وجماعة (أودومو) و(أشدود) و(أنقرونا) (عقرون) وصلوا . . .

وجيه (أشدود) [. . .] غادر كلخو [. . .] ذاهباً إلى (زابان)[١] يرافقه ضابط بتكليف من قبل رئيس الجنرالات».

في ما يلي لائحة بالهدايا ومرسليها:

«الذين أرسلوا هدايا إلى الملك سيدي: مِن أهالي (بيت عمّانا)، وزنتا ذهب، من بلد (مؤابا)، وزنة واحدة؛ من بلد (ياؤودو)، عشر وزنات، من بلد (أودومو) [. . .] وزنة فضة؛ من بلد چوبلا [. . .].

حاشية: من المستغرب احتلال كل ما يحيط (بأوروسالم) ولم يُشَرْ إليها.

ز ـ حملة سنحريب (٧٠٤ ـ ٦٨١) على فلسطين واحتلال مدن ياؤدو:

تعود هذه الحملة إلى العام (٧٠١ق.م)، والنص مسجل في المحفوظات الآشورية، ويروي فيه سنحريب وقائع حملته كما يلي:

«في حملتي الثالثة، توجّهت إلى ساحل (حاتي)، أي ساحل سورية الشمالية. بريق سيادتي الرهيب، قَلَبَ (لولّي) ملك (صيدونو) الذي هرب بعيداً إلى عرض البحر وبعدها، ذهب إلى جَبَلِهِ (أي توفي)، كما أن جلالة سلاح آشور إلٰهي، قَلَب مدن (صيدونو الكبيرة) و(صيدونو الصغيرة) و(أخزيبي) و(عكا) مدنه الحصينة ذات الأسوار، حيث كان يوجد علف ونقاط مصادر مياه. وهي أماكن ارتكازه، (جميعها) وَضَعَت نفسها عند قدميّ. جَعَلْتُ (إيطّو بعل)[٢] على رأسها وأجلسته على عرش ملكي وفرضت عليه في كل سنة، ولأجلٍ غير محدّد عائدات وجزية متوجبة لسيادتي.

أما (مينيهيمّو) ملك سامرونا (السامرة) و(إيطّو بعلو) صيدونو

---

(١) (Zabban).

(٢) (Ittobaal) ملك صيدون ووالد (جيزابيل) زوجة (آحاب) الكنعانية.

و(عبدي ليثيتي)[١] (أروادا) و(أوروميلكي) ملك (چوبلا) و(فودوإيلو)[٢] ملك بلد (بيت عمّانا) وميتيتي ملك (أشدود) و(كاموشو نادبي) ملك (مؤابا) و(أيارامّو) من بلد (أودومّو) وملوك بلد (آمورو)[٣]، فجميعهم قدّموا أربع مرات أمامي هبات سخية وهدايا ثمينة وقبّلوا قدمي.

أما (صِدقا) ملك (عسقلونا) الذي لم يخضع لنيري، فإنني سلبت تماثيل آلهة بيته الأبوي، وهو شخصياً وزوجته وأبناءه وبناته وإخوته، وأفراد ذريته الأبوية وأخذتهم إلى آشور. ثم وضعت (شارولوداري)[٤] بن (روكيتو) ملكهم السابق على رأس أهالي (عسقلونا). وكتقدمةٍ موجهة إلى سيادتي، فرضت عليه جزية لكي يجرّ نيري.

خلال حملتي، حاصرت واستوليت على مدن (بيت دجن) و(يافو) و(بانيابرقا)[٥] و(أزورو) مدن (صِدقا) الذي لم يخضع عفوياً على قدمي، وأخذت منها سجناء.

أما حكام وأهالي (عقرونا)[٦] الذين كَبّلوا بالحديد ملكهم (فادي)، الذي كان مرتبطاً بقسم مع آشور وسلّموه عدائياً إلى (حزا قيّاؤ)[٧] من بلد (ياؤدو)، (وفي نص موازٍ: من مدينة ياؤدو)، تملك قلبهم الخوف بسبب الأفعال السيئة التي ارتكبوها، فوجّهوا نداءً إلى ملوك مصر ولفرقة النشابة وللمركبات والأحصنة العائدة لملك (ملّوحا)[٨]: قوى لا يحصى عددها جاءت لمساعدتهم. وبعد أن نظّموا صفوفهم أمامي للمعركة في موقع (ألتاقو)[٩] المسطح. أعدّوا أسلحتهم. واثقاً أنا، بآشور إلٰهي، قاتلت

---

(١) ('Abdi-Li'iti).

(٢) (Puduilu).

(٣) أمورو = منطقة سهل عكار اللبنانية بين (طرطوس وجبيل) على الساحل.

(٤) (Sharuludari).

(٥) (Baniabarqa).

(٦) (عقرون) على بعد حوالى ٢٠كلم من الشاطئ إلى الغرب من (القدس).

(٧) (Ezechias) (حزقيّا).

(٨) (ملوخا) هي هنا النوبة.

(٩) (Altaqu) أو (Eltéqué).

ضدّهم وفرضت عليهم انكساراً. وبيدي شخصياً، أسرت منهم أحياءً في خضم المعركة، محاربين على عربات، وأبناء ملكيين مصريين، كذلك محاربي (ملّوحا) على مركباتهم.

حاصرت واحتللت (ألتاقو) و(تمنا)[١]، واعتقلت منهما سجناء. ولدى وصولي إلى عقرونا، أعدمت الحكام والوجهاء الذين كانوا مسببين للجريمة. وعلقت جثثهم على أبراج أسوار المدينة. واعتبرت من بين السجناء الأشخاص المسؤولين عن أخطاء وأعمال سُوء، وأمرت بصرف الذين بقوا والذين لم يرتكبوا أخطاء أو سوءاً.

أخرجت (فادي) ملكهم من (أورشاليمّو)[٢]، ونصّبته على رأسهم على العرش الملكي، وفرضت عليه الجزية المتوجبة لسيادتي. أما (جزقياؤ) من بلد/مدينة (ياؤدو)[٣] الذي لم يخضع لنيري، فحاصرت واحتللت ٤٦ (؟) مدينة محصنة بأسوار من مدنه وعدداً كبيراً من مدنه الصغيرة وضواحيها بواسطة تكويم مصاعد اقتراب ترابية وأكباش دفع ومهاجمة مشاة ونقب وفتح ثغرات، واستعمال أدوات حصار. أخرجت منها وعددت من الغنائم (٢٠٠١٥٠) صغيراً وكبيراً، رجالاً ونساء وأحصنة وبغالاً وحميراً وجمالاً وثيراناً ودواب صغيرة بأعداد كبيرة[٤].

أما هو، (حزقياؤ) فحصرته في (أورشاليمّو)[٥] مدينته الملكية مثل عصفور في قفص. أقمت تحصينات ضده وحظرت عليه الخروج من البوابة الكبيرة للمدينة.

سلخت من بلده المدن التي سلبتها وأعطيتها إلى (ميتينتي)، ملك

---

(١) (Timna) على بعد ٣٠كلم من الساحل مقابل أشدود.

(٢) نحن في العام (٧٠١) ق.م وهذه هي المرة الأولى التي تسمى فيها (القدس) أورشالم.

(٣) تمّ ذكر (ياؤدو) مراراً كبلد أو كمدينة؟.

(٤) العدد (١٥٠ ٢٠٠) على الرغم من أنه يشتمل على وحدات لا يستحسن جمعها كالأشخاص والدواب فإنه رقم مغالى فيه كما نرجّح، وكذلك احتلال ٤٦ مدينة محصّنة ومدن صغيرة...

(٥) إن وصف سنحريب لحصار ملك (أورشاليمو) مثل عصفور في قفص يثير مشكلة اتساع المدينة آنذاك، وهذا ما نحاول تحليله في ما بعد.

و(عبدي ليثيتي)[١] (أروادا) و(أوروميلكي) ملك (چوبلا) و(فودوإيلو)[٢] ملك بلد (بيت عمّانا) وميتينتي ملك (أشدود) و(كاموشو نادبي) ملك (مؤابا) و(أيارامّو) من بلد (أودومّو) وملوك بلد (آمورو)[٣]، فجميعهم قدّموا أربع مرات أمامي هبات سخية وهدايا ثمينة وقبّلوا قدمي.

أما (صِدقا) ملك (عسقلونا) الذي لم يخضع لنيري، فإنني سلبت تماثيل آلهة بيته الأبوي، وهو شخصياً وزوجته وأبناءه وبناته وإخوته، وأفراد ذريته الأبوية وأخذتهم إلى آشور. ثم وضعت (شارولوداري)[٤] بن (روكيبتو) ملكهم السابق على رأس أهالي (عسقلونا). وكتقدمةٍ موجهة إلى سيادتي، فرضت عليه جزية لكي يجرّ نيري.

خلال حملتي، حاصرت واستوليت على مدن (بيت دجن) و(يافّو) و(بانيابرقا)[٥] و(أزورو) مدن (صِدقا) الذي لم يخضع عفوياً على قدمي، وأخذت منها سجناء.

أما حكام وأهالي (عقرونا)[٦] الذين كَبَّلوا بالحديد ملكهم (فادي)، الذي كان مرتبطاً بقسم مع آشور وسلّموه عدائياً إلى (حزا قيّاؤ)[٧] من بلد (ياؤدو)، (وفي نص موازٍ: من مدينة ياؤدو)، تملك قلبهم الخوف بسبب الأفعال السيئة التي ارتكبوها، فوجّهوا نداءً إلى ملوك مصر ولفرقة النشابة وللمركبات والأحصنة العائدة لملك (ملّوحا)[٨]: قوى لا يحصى عددها جاءت لمساعدتهم. وبعد أن نظّموا صفوفهم أمامي للمعركة في موقع (ألتاقو)[٩] المسطح. أعدّوا أسلحتهم. واثقاً أنا، بآشور إلٰهي، قاتلت

(١) ('Abdi-Li'iti).
(٢) (Puduilu).
(٣) أمورو = منطقة سهل عكار اللبنانية بين (طرطوس وجبيل) على الساحل.
(٤) (Sharuludari).
(٥) (Baniabarqa).
(٦) (عقرون) على بعد حوالى ٢٠كلم من الشاطئ إلى الغرب من (القدس).
(٧) (Ezechias) (حزقيّا).
(٨) (ملوخا) هي هنا النوبة.
(٩) (Altaqu) أو (Eltéqué).

ضدّهم وفرضت عليهم انكساراً. وبيدي شخصياً، أسرت منهم أحياء في خضم المعركة، محاربين على عربات، وأبناء ملكيين مصريين، كذلك محاربي (ملّوحا) على مركباتهم.

حاصرت واحتللت (ألتاقو) و(تمنا)[١]، واعتقلت منهما سجناء. ولدى وصولي إلى عقرونا، أعدمت الحكام والوجهاء الذين كانوا مسببين للجريمة. وعلقت جثثهم على أبراج أسوار المدينة. واعتبرت من بين السجناء الأشخاص المسؤولين عن أخطاء وأعمال سُوء، وأمرت بصرف الذين بقوا والذين لم يرتكبوا أخطاء أو سوءاً.

أخرجت (فادي) ملكهم من (أورشاليمّو)[٢]، ونصّبته على رأسهم على العرش الملكي، وفرضت عليه الجزية المتوجبة لسيادتي. أما (جزقياؤ) من بلد/ مدينة (ياؤدو)[٣] الذي لم يخضع لنيري، فحاصرت واحتللت ٤٦ (؟) مدينة محصنة بأسوار من مدنه وعدداً كبيراً من مدنه الصغيرة وضواحيها بواسطة تكويم مصاعد اقتراب ترابية وأكباش دفع ومهاجمة مشاة ونقب وفتح ثغرات، واستعمال أدوات حصار. أخرجت منها وعددت من الغنائم (٢٠٠١٥٠) صغيراً وكبيراً، رجالاً ونساءً وأحصنة وبغالاً وحميراً وجمالاً وثيراناً ودواب صغيرة بأعداد كبيرة[٤].

أما هو، (حزقياؤ) فحصرته في (أورشاليمّو)[٥] مدينته الملكية مثل عصفور في قفص. أقمت تحصينات ضده وحظرت عليه الخروج من البوابة الكبيرة للمدينة.

سلخت من بلده المدن التي سلبتها وأعطيتها إلى (ميتينتي)، ملك

---

(١) (Timna) على بعد ٣٠كلم من الساحل مقابل أشدود.

(٢) نحن في العام (٧٠١) ق.م وهذه هي المرة الأولى التي تسمى فيها (القدس) أورشالم.

(٣) تمّ ذكر (ياؤدو) مراراً كبلد أو كمدينة؟.

(٤) العدد (١٥٠ ٢٠٠) على الرغم من أنه يشتمل على وحدات لا يستحسن جمعها كالأشخاص والدواب فإنه رقم مغالى فيه كما نرجّح، وكذلك احتلال ٤٦ مدينة محصّنة ومدن صغيرة...

(٥) إن وصف سنحريب لحصار ملك (أورشاليمو) مثل عصفور في قفص يثير مشكلة اتساع المدينة آنذاك، وهذا ما نحاول تحليله في ما بعد.

(غزّاتو)، وقلّصتُ بذلك بلده وفرضت عليها كتقدمة متوجبة لسيادتي، جزية أضفتها إلى العائدات السابقة التي كانوا يقدمونها سنوياً.

أما هو، (حزقياؤ)، فإن بريق سيادتي الرهيب أخافه فأرسل بعد مغادرتي إلى نينوى مدينة سيادتي، المرتزقة وجنود النخبة الذين جلبهم إلى (أورشاليمّو) مدينته الملكية لدعم مقاومتها والذين اتخذهم كفرقة مساعِدة، أرسلهم مع ٣٠ وزنة ذهبية و٨٠٠ وزنة من الفضة وإثمد منخوب وكتل كبيرة من العقيق الأحمر، وأسِرّة من العاج والابنوس والبقس وأشياء أخرى عديدة، كنز ثمين، وبناته ونساء من قصره ومنشدين ومنشدات. وقد أوفد رسولاً له على حصان لتسليم الجزية وتقديم الولاء وقبول التبعية».

وفي نص آخر مسجّل على أسطوانة من الآجر تتكرر الرواية نفسها مع خلاف بسيط حول الغنائم، حيث ورد فيه:

«ألبسة مزركشة متعددة الألوان وكتان وأرجوان أزرق وأرجوان أحمر وأوانٍ من البرونز والحديد والنحاس والقصدير ومركبات وتروس ورماح ودروع وسيوف من الحديد (تحمل على الخصر) وسهام ومعدات قتال بأعداد كبيرة».

وفي ما يلي نص موازٍ نُقش على جسم ثيران ضخمة تزيينية وردت فيه مُختَصَرةً المعلومات التي أوردها بالتفصيل النص السابق ويحتوي هذا النص ما يلي:

«لولي، ملك (صيدونو) تملكه الرعب من حَملتي. فرّ إلى بلد (يادانا) (قبرص) الذي هو في عرض البحر حيث وجد ملجأً، وفي السنة نفسها ذهب إلى جَبَلِه (توفي). وذلك بتأثير جلالة سلاح آشور إلٰهي. أجلستُ (طو بعلو) على عرشه الملكي وفرضتُ عليه الجزية المتوجبة لسيادتي.

دمّرت منطقة (ياؤدو) وأخضعت تحت قدمي (حزا قياؤ) القوي والصعب التعامل كي يجر نيري».

نلاحظ أن تسمية (أورشاليمو) (القدس) وردت للمرة الأولى في العام ٧٠١ ق.م وليس قبل ذلك، على الرغم من كل ما دار حول المدينة في المدن المجاورة وفي الجنوب الفلسطيني بصورة عامة، ما يقتضي اقتراح تفسير لذلك.

أما بالنسبة لعدم ورود اسم القدس، بعد أن تمّ احتلال المدن المحيطة بها، لا بد لنا إذن من محاولة فهم أسباب ذلك. ولدى العودة إلى النصوص المعروضة يمكننا التذكير بأن شلمنصر الثالث يعدّد بين الذين فرض عليهم جزيته ممالك (ياؤدو) و(عسقلان) و(غزة)، ورد هذا في النص (أ) للعام ٧٢٩، ويعود سرجون الثاني في العام (٧٢٠) ليعلمنا بأنه أخضع بلد أو مدينة (ياؤدو) (النص ب)، ثمّ يحوّل (أشدود) إلى منطقة آشورية بسبب خيانة ملكها، كما يُحذِّر (ياؤدو) و(فلسطي) ومدن شاطئ البحر من الخيانة (النص هـ). ويشير سرجون الثاني أيضاً من ضمن نقوش قصره في (دور - شاروكين) وهو قصر (خورساباد) إلى أنه احتل (رفح) (مصر) ونهب (أشدود) وأسر (حنونو) ملك (غزّة)، وكذلك تلقى هدايا (غزة) و(ياؤدو) و(أشدود) و(عقرون).

وأخيراً نشهد في العام (٧٠١) ما حقّقه (سنحريب) في النص (ز)، احتلال (عسقلان) و(بيت دجن) و(يافا)، مشيراً إلى أن ملك (عقرون) كان قد اعتُقِل من قبل رعاياه وسُلِّم إلى (حزقياؤ) من بلد (ياؤدو) ما جعل (سنحريب) يحتل ٤٦ مدينة من مدن (ياؤدو) وعدداً كبيراً من المدن الصغيرة ويأسر آلاف الأشخاص. كما يحاصر (حزقياؤ) في مدينته (أورشاليمّو) ويمنع عليه الخروج، ثم يعود سنحريب فجأة إلى عاصمته نينوى. .

أعادت المرويات التوراتية التي كتبت خلال حكم (جوزياس) وبعده بين (٦٣٩ و٥٨٦ق.م.)، أي بعد مرور أكثر من مائة سنة على الأحداث انسحاب سنحريب مع جيشه بسبب وباء أرسله الإله يهوه لإنقاذ (أورشاليمو)، ولم يذكر النص (ز) الذي قدمنا آنفاً أي وباء، ويرى الباحثان (بريان وسوكس)[١] أن الانسحاب مردّه مشاكل داخلية في آشور أجبرت على الأرجح سنحريب إلى فكّ الحصار والعودة إلى عاصمته، ومع ذلك فإن (حزقياؤ) أرسل إليه وفداً يقدم الولاء ويسدّد الجزية، كما ورد ذلك في النص الآشوري.

أما عن مصير المدن المستولى عليها، فإن سنحريب يعلمنا بأنه قلّص مملكة (ياؤدو) وضم عدداً من مُدنه إلى كلٍ من (أشدود) وملكها (ميتينتي) و(عقرون) وملكها

(١) J. Briend & M. J. Seux: Textes du Proche-Orient Ancien et Histoire d'Israël - Ed. du cerf (1977) (P.122).

(فادي) وكذلك (غزة) وملكها (سيلّيعل) مشتملة على الأراضي الخصبة التي كانت تحت تصرف ملك (ياؤدو)[١].

وهكذا بقيت (لأورشاليمّو) الأراضي الهضابية وجميع المدن والقرى القائمة على سفوح المنطقة الجبلية حيث تقوم مدينة الخليل (حبرون) على ارتفاع (١٠١٠)م، والقدس إلى الشمال على ارتفاع حوالى ٧٩٠م، بينما تنحدر هذه الهضبة نحو الغرب مقدّمة سهلاً منحدراً لا يعلو عن سطح البحر إلا حوالى (٤٣م) ويبلغ عرضه (٤٠)كلم اعتباراً من ساحل أشدود وهي مقابلة للهضبة حيث نجد (بيت لحم) على ارتفاع (٧٧٧)م.

ومن المفيد جداً أن نذكّر بما كانت عليه القدس في ذلك الوقت وقد يفسر ذلك عدم ورود اسمها في النصوص السابقة على اعتبار أنها لم تكن تتمتع بمزايا العاصمة وأن (لخيش) المدينة الكبيرة المحصّنة التي كانت قائمة إلى الغرب من الخليل على بعد حوالي ٢٠كلم، هي المدينة التي حاصرها سنحريب في العام (٧٠١) وتمكن من خرق أسوارها بواسطة أدوات الحصار والمصاعد الترابية. وقد أثبتت الحفريات الأثرية في موقعها على مدى الدمار الذي أحدثه ذلك الاحتلال العنيف، حتى أن فنان آشور الذي رافق المعارك (على الأرجح) تمكّن من تزيين أحد جدران قصر سنحريب في نينوى، بواسطة نقش بارز بطول (٢٠م) وارتفاع (٣م) يمثل هذا الحصار.

بينما كان (حزاقياؤ) ملتجأً إلى قصره الملكي وقد نقول (العائلي)، على هضبة (أوروشاليمو) ونرجح أن إقامته آنذاك في القدس لم تكن تتعدى مساحتها إشغال الهضبة الرئيسية المعروفة تحت اسم الأوفِل[٢] المشرفة على وادي (سيدرون)[٣] في الشرق.

ومن المهم التذكير أخيراً بأن القدس، المدينة التاريخية، لم تشغل الهضبة الجنوبية الغربية قبل عهد (هيرود) الذي ولاه الرومانيون على القدس وضواحيها بين عامي (٤٠ و٤) ق.م، والذي كان إيدومياً أمُهُ عربية، ولم يكن قط «ملك اليهود»، كما يحلو

(١) تفصيل ورد في كتاب: التوراة بدون حجاب .La bible dévoilée Israël finkelstein et Neil .Silberman - Editions Bayard 2002, (P296)

(٢) (Ophel).

(٣) (Cédron).

لمؤرخي التوراة تقديمه. وسوف نعود إلى فترة حكم هيرود وخلفائه في الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب، لدى عرض موضوع «فلسطين والعهد الروماني».

ح ـ سنحريب يجمع جنوده في (لخيش) قبل محاصرة أورشليم:

ذكرنا في التعليق على النص السابق أن سنحريب حاصر مدينة (لخيش) واحتلها ولم يُعثر على نص في المحفوظات الملكية يروي ذلك، ولكن النقش البارز الذي أشرنا إليه والذي يمتاز بواقعية فائقة لا يمكن أن يصدر عن خيال الفنّان، إذ إن الحفريات الأثرية في موقع (تل الدوير) موقع لخيش أثبت مدى التخريب والدمار الذي أصاب المدينة. وهناك شهادة أخرى قدمتها كتابة رافقت نقشاً بارزاً تمّ كشفه هو أيضاً في قصر نينوى يمثل سنحريب وهو جالس على عرشه، وسجناء (لخيش) يمرون أمامه، وكذلك غنائم المعركة. وقد ورد في النقش ما يلي:

> «سنحريب، ملك الكون ملك آشور، جالس على عرشه بينما يتم إمرار غنائم مدينة (لخيش) أمامه».

ط ـ مقتل سنحريب العام ٦٨٠ ق.م:

«في شهر (تيبيت) (كانون الأول ٦٨١/ كانون الثاني ٦٨٠) في العشرين منه، في ما يتعلق (بسنحريب)، فإن ابنه قتله خلال حركة ثورية. مارس سنحريب الملكية على آشور خلال ٢٤ سنة. دامت الحركة الثورية في آشور من اليوم العشرين من شهر (تيبيت) حتى اليوم الثاني من شهر آدار (شباط ـ آذار).

في شهر آدار، في اليوم العاشر (؟) العشرين (؟) ـ اليوم الثامن جلس ابنه (أسرحدّون) على عرش آشور».

وبالإضافة إلى هذا الخبر المقتضب الذي ورد في (أخبار الأيام) البابلية، فإن أسرحدون الملك الجديد لمّح إلى دور إخوته الذين تآمروا عليه وأرادوا الاستيلاء على العرش.

ي ـ تمرّد صيدون وإعدام ملكها:

ورد هذا النص في مصدرين متطابقين، الأول هو (أخبار الأيام) البابلية الذي أشير

إليه في النص السابق (ط)، والثاني هو (أخبار الأيام) العائدة لحكم أسرحدّون. وقد ورد في المصدرين ما يلي:

«في السنة الرابعة (من حكم أسرحدون)، فإن مدينة (صيدونو) تمّ احتلالها وتدميرها. وفي السنة ذاتها، فإن رئيس خدم القصر عمد إلى تعبئة الجنود في آكاد. وفي السنة الخامسة من شهر تشريت (أيلول/ تشرين الأول) في الثاني منه، احتل الجيش الآشوري مدينة (بازّا)[1]. في شهر تشريت، فإن رأس ملك صيدونو تم قطعه واستقدامه إلى آشور».

في ما يتعلق بالتابعين، فإنّ القلاقل الداخلية في بلد الحاكم وخصوصاً تبدّل النظام أو التآمر على الملك وقتله كما حدث لسنحريب، كل ذلك هو عادةً مناسبة لمحاولة التمرد والتخلص من نير الحاكم، وعدم دفع الجزية. وهذا ما حاوله ملك صيدون (عبدي ـ ميلكوتّي)[2]، ما اضطر أسرحدون إلى التدخل وتحويل مملكة صيدون إلى منطقةٍ آشورية. وهذا ما يرويه لنا بشكل مفصّل، النص المسجل على الموشور الفخاري الذي عثر عليه في نينوى. وفي ما يلي محتوى هذا النص:

«أما (عبدي ـ ميلكوتّي) ملك (صيدونو) الذي لم يكن ـ يخشى سلطتي، والذي لم ينصتْ إلى الأمر الصادر من شفتيّ، والذي كان يعتمد على البحر الهائج (؟) والذي نبذ نير آشور، فقمت بمسح مدينة (صيدونو)، نقطة ارتكازه، والتي هي في عرض البحر (سوَّيْتُها كما لو فعل الطوفان ذلك). قمت بتفكيك سورها ورميته في البحر، وكذلك المساكن، ودمّرت موقعها.

ملكها (عبدي ـ ميلكوتّي) الذي فرّ إلى عرض البحر أمام أسلحتي، وبأمر من آشور إلٰهي، قبضت عليه وهو في عرض البحر مثل سمكة وقطعت رأسه.

أخذت كغنيمة امرأته وأبناءه وبناته وجماعة قصره و(كذلك)، ذهباً وفضة وممتلكات وأحجاراً كريمة وألبسة ذات زركشةٍ متعددة الألوان وكتّاناً

---

(١) (Bazza).

(٢) (Abdi-Milkutti).

وجلد فيلة، وعاجاً وأبنوساً وبقساً وأشياء عديدة كانت تشكل كنز قصره بكميات كبيرة. كما نقلت إلى آشور جمهوراً لا يحصى من سكانه وثيراناً ودواب صغيرة وحُمُراً بأعداد كبيرة.

عند ذلك جمعت كل ملوك حاتي (أي سُورية الشمالية) وملوك ساحل البحر (أمورو ولبنان) وأمرت ببناء مدينة في مكان آخر وأطلقت عليها تسمية (كار ـ أسرحدون)[١]، وأسكنت فيها أهالي من مدن وضواحي محيطة بصيدونو (ويعدّد النص هنا بعضاً من المواقع المحيطة بصيدون).

وبحسب التقليد الآشوري، فتلك كانت حالة قصوى تستوجب ضم المدينة أو المملكة والمنطقة إلى الامبراطورية. وهذا ما حدث بالنسبة لصيدون، إذ اعتبرها أسرحدون منطقة آشورية. عيّن لإدارتها موظفاً سامياً من قبله، كحاكم عليها وفرض عليه عائدات وجزية تفوق ما سبقها. ويضيف النص ما يلي:

«ومن بين مدنه، أي مدن (عبدي ـ ميلكيتو)، سلّمت (مأروبتو)[٢] و(صاريفتو)[٣] إلى (بعلو) ملك (صورو)، وزدت جزيته بالنسبة لما كان يقدمه آنفاً».

ك ـ تابعو أسرحدّون في الغرب ومن بينهم ياؤدو (٦٧٣) ق.م:

من أجل بناء قصره، أمر (أسرحدون) الملوك تابعيه، بتزويده بالخشب والصخور الرخامية وغيرها من لوازم بناء، ويعدّد (١٢) ملكاً من ساحل المتوسط وشرق الأردن و١٠ ملوك من قبرص، وهم الذين نقلوا من جبالهم، حتى نينوى تلك المواد الثمينة والوازنة. أما ملوك ساحل البحر، فقد ورد ذكرهم كما يلي:

ـ بعلو	ملك مدينة	صورو	□
ـ ميناسّو	ملك مدينة	ياؤدو	*
ـ تاؤشچابري	ملك مدينة	أودمو	□
ـ موصوري	ملك مدينة	مآبا	□

---

(١) تتضح هنا أيضاً العقلية التجارية الآشورية، إذ إن أسرحدون بنى مدينة مرفأية.

(٢) (Ma'rubtu).

(٣) (Çariptu) = Sarepta.

ـ صِلْبِل	ملك مدينة	غزاتو	*
ـ ميتِنتي	ملك مدينة	عسقلونا	*
ـ إيكاشمو	ملك مدينة	عقرونا	*
ـ ميلكي أشافا	ملك مدينة	جوبلا	□
ـ ماتان بعل	ملك مدينة	أرواد	□
ـ أبي بعل	ملك مدينة	شمسي مورّونا	□
ـ فوديلو	ملك مدينة	بيت عمّانا	□
ـ أبي ميلكي	ملك مدينة	أشدود	*

* مواقع فلسطينية

□ مواقع سورية/ لبنانية/ أردنية

في هذا النص أيضاً الموافق لحكم منسّى في ياؤود (٦٩٨ ـ ٦٤٢ق.م)، لم يرد ذكر أورشاليمّو (القدس) مع أن النصّ يشير بالنسبة للملوك إلى المدن وليس إلى المنطقة أو البلد. ومنسّى مصنّفٌ بالنسبة للتوراتيين الذين يوزّعون الأحكام على ملوكهم، كملك دموي، هَدَر دماء الأبرياء وعمل ما يغضب يهوه (أي عَبدَ آلهة كنعانية) وهو يدفع الجزية إلى آشور.

ل ـ أسرحدّون وإخضاع مدينة صور (٦٧١):

في العام (٦٧١) شنّ أسرحدون حملته على مصر التي أوصلته إلى (ممفيس)، وعلى اعتبار أن بعلو ملك مدينة صور، مدفوعاً من قبل فرعون مصر (طاهارقا)[١]، نسي طيةَ أسرحدّون والمعاهدة التي عقدها معه التي وصلنا نصّها، وحاول ملك صور التحرر من نير آشور. وقد ورد في بداية النص ما يلي:

«في شهر نيسان، في اليوم الأول منه، خرجت من مدينَتي آشور، اجتزت دجلة والفرات وهما في أوج فترة الفيض، قطعت مثل ثور وحشي، الجبال الوعرة، وخلال حملتي أقمت تحصينات ضد (بعلو)، ملك (صورو) الذي وضع ثقته في صديقه (طاهارقا) ملك بلد (كوشو)

---

(١) كل ذلك لم يمنع بعلو ملك صور من أن يثور من جديد على الحكم الآشوري خلال فترة حكم آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٧) ق.م.

(النوبة) ونبذ نير آشور إلهي. وما فتِئ يجيبني بهجومية. قطعت عنهم الغذاء والماء الضروريين لحياتهم».

يتابع النص مشيراً إلى أنّ أسرحدّون توجه مباشرة بعد حصار صور، إلى مصر، مروراً بمدينتي (أفقو) = (آفق) ورافيحو (رفح).

وفي نص موازٍ يقول أسرحدّون:

«احتللت مدينة صور التي هي في عرض البحر. أما (بعلو) ملكها الذي وضع ثقته بملك بلد (كوشو)، فانتزعت منه مدنه وممتلكاته».

ويوضح نص آخر:

«بعلو ملك صورو الذي كان يسكن في عرض البحر [. . .] والذي نبذ نيري [. . .] فإن جلال آشور ملك الآلهة وبريقي كصاحب سيادة قَلَبَاه [. . .] سَجَد عند قدمي باعتباري سيّده [. . .] فرضتُ عليه عائدات سَنوية وكل ما تخلّف عن تسديده وجزية كبيرة وبناته مزودات بمهرهنّ.

قبّل قدميّ [. . .] وسلخت منه مدنه القائمة في الأرض الصلْبة [. . .] وضممتها إلى المنطقة الآشورية.

م ـ آشور بانيبال يقود حملة ضدّ مصر (٦٦٧/ ٦٦٦ق.م):

يكرر هنا آشور بانيبال، أثناء حملته الأولى ضد مصر (أي منطقتها الشمالية) تعداد الملوك تابعيه، كما فعل من قبله والده أسِرحدّون، ونجد أيضاً (ياؤدو) من بين التابعين. ويمكن تلخيص النص كما يلي:

«(طاهارقا) ملك بلد مصر وكوشو (النوبة) الذي فرض عليه أسرحدون ملك آشور الأب الذي ولدني، (. . .)، نسيَ قوى آشور وعشتار الآلهة العظام أسيادي، واعتمد على قواه الخاصة»، (يلي ذلك خبر ثورة (طاهارقا).

ثم يضيف:

ـ صِلْبِل	ملك مدينة	غزاتو	*
ـ ميتيتي	ملك مدينة	عسقلونا	*
ـ إيكاشمو	ملك مدينة	عقرونا	*
ـ ميلكي أشافا	ملك مدينة	جوبلا	□
ـ ماتان بعل	ملك مدينة	أرواد	□
ـ أبي بعل	ملك مدينة	شمسي موزَونا	□
ـ فوديلو	ملك مدينة	بيت عمّانا	□
ـ أبي ميلكي	ملك مدينة	أشدود	*

* مواقع فلسطينية

□ مواقع سورية/ لبنانية/ أردنية

في هذا النص أيضاً الموافق لحكم منسّى في ياؤود (٦٩٨ ـ ٦٤٢ق.م)، لم يرد ذكر أورشاليمّو (القدس) مع أن النصّ يشير بالنسبة للملوك إلى المدن وليس إلى المنطقة أو البلد. ومنسّى مصنّفٌ بالنسبة للتوراتيين الذين يوزّعون الأحكام على ملوكهم، كملك دموي، هَدَر دماء الأبرياء وعمل ما يغضب يهوه (أي عَبدَ آلهة كنعانية) وهو يدفع الجزية إلى آشور.

ل ـ أسرحدّون وإخضاع مدينة صور (٦٧١):

في العام (٦٧١) شنّ أسرحدون حملته على مصر التي أوصلته إلى (ممفيس)، وعلى اعتبار أن بعلو ملك مدينة صور، مدفوعاً من قبل فرعون مصر (طاهارقا)[١]، نسي طيبةَ أسرحدّون والمعاهدة التي عقدها معه التي وصلنا نصّها، وحاول ملك صور التحرر من نير آشور. وقد ورد في بداية النص ما يلي:

«في شهر نيسان، في اليوم الأول منه، خرجت من مدينَتي آشور، اجتزت دجلة والفرات وهما في أوج فترة الفيض، قطعت مثل ثور وحشي، الجبال الوعرة، وخلال حملتي أقمت تحصينات ضد (بعلو)، ملك (صورو) الذي وضع ثقته في صديقه (طاهارقا) ملك بلد (كوشو)

(١) كل ذلك لم يمنع بعلو ملك صور من أن يثور من جديد على الحكم الآشوري خلال فترة حكم آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٧) ق.م.

(النوبة) ونبذ نير آشور إلٰهي. وما فتئ يجيبني بهجومية. قطعت عنهم الغذاء والماء الضروريين لحياتهم».

يتابع النص مشيراً إلى أنّ أسرحدّون توجه مباشرة بعد حصار صور، إلى مصر، مروراً بمديتني (أفقو) = (آفق) ورافيحو (رفح).

وفي نص موازٍ يقول أسرحدّون:

«احتللت مدينة صور التي هي في عرض البحر. أما (بعلو) ملكها الذي وضع ثقته بملك بلد (كوشو)، فانتزعت منه مدنه وممتلكاته».

ويوضّح نص آخر:

«بعلو ملك صورو الذي كان يسكن في عرض البحر [. . .] والذي نبذ نيري [. . .] فإن جلال آشور ملك الآلهة وبريقي كصاحب سيادة قَلَبَاه [. . .] سَجَد عند قدمي باعتباري سيّده [. . .] فرضتُ عليه عائدات سَنوية وكل ما تخلّف عن تسديده وجزية كبيرة وبناته مزودات بمهرهنّ.

قبّل قدميّ [. . .] وسلخت منه مدنه القائمة في الأرض الصلْبة [. . .] وضممتها إلى المنطقة الآشورية.

م ـ آشور بانيبال يقود حملة ضدّ مصر (٦٦٧/ ٦٦٦ق.م):

يكرر هنا آشور بانيبال، أثناء حملته الأولى ضد مصر (أي منطقتها الشمالية) تعداد الملوك تابعيه، كما فعل من قبله والده أسِرحدّون، ونجد أيضاً (ياؤدو) من بين التابعين. ويمكن تلخيص النص كما يلي:

«(طاهارقا) ملك بلد مصر وكوشو (النوبة) الذي فرض عليه أسرحدون ملك آشور الأب الذي ولدني، (. . .)، نبيَ قوى آشور وعشتار الآلهة العظام أسيادي، واعتمد على قواه الخاصة»، (يلي ذلك خبر ثورة (طاهارقا).

ثم يضيف:

«تملك الغضبُ قلبي وثار سخطي بسبب تلك الأحداث، رفعت

يدي ورجوت آشور وعشتار الآشورية، عبأت قوى الجيوش الممتازة التي وضعها آشور وعشتار بين يديّ وتوجّهت مباشرة نحو مصر وبلد كوشو. خلال حملتي، فإنّ:

بعلو ملك صورو

و منّسى ملك ياؤدو

يكرر هنا أسماء الملوك الذين عددهم أسرحدون في النص (ك)، مضيفاً بأنهم جميعهم، الخدم الذين يتطلعون إلى وجهي، جلبوا أمامي، هداياهم الثقيلة وقبلوا قدميّ:

«هؤلاء الملوك وكذلك جنودهم وسفنهم، جعلتهم يسيرون مع جيوشي برّاً وبحراً، يلي ذلك وقائع الحملة».

ن ـ حملة آشورية جديدة ضدّ صور (حوالي ٦٦٦/ ٦٦٤ق.م):

ذكرنا آنفاً أن الحملة التأديبية التي نفذها أسرحدّون ضدّ صور وملكها بعلو وإخضاعه من جديد، لم تحل في ما بعد، خلال حكم آشور بانيبال من أن يثور من جديد وما يلي، يمكن إضافته إلى نص أسرحدون السابق:

«أخضعتهم إلى نيري، وهو (أي بعلو ملك صور)، مثل أمامي مع ابنته وبنات إخوته لكي يضعهنّ كخادمات لي. وأرسل في الوقت نفسه ابنه (ياهيميلكي) لكي يقدّم معالم الخضوع والتبعية. قَبِلتُ منه ابنته وبنات إخوته يرافقهنّ مهر كبير وأشفقت عليه، فرددت إليه الابن المولود من جسده، وهدمت المتاريس الحصارية التي كنت قد أقمتها ضد بعلو ملك صورو، وفتحت على البحر وعلى الأرض الصلبة جميع طرق مواصلاته التي كنت قد أوصدتها، ثمّ ثنيتُ عنان جوادي وعدت سالماً إلى نينوى مدينة سيادتي.

س ـ مصر والدفاع عن آشور لدرء الخطر البابلي ـ الميدي:

نحن في العام (٦٠٤ق.م)، قد بدأت تصعد قوة بابل، محاوِلةً نزع السلطة من

آشور، وذلك بمعاونة الميديين. كانت بابل تسعى إلى الاستيلاء على نينوى وإنهاء الحكم الآشوري.

أما سياسة مصر في زمن الفرعون (نيكاو) الثاني (٦١٠ ـ ٥٩٤)، فكانت تقضي في تلك المناسبة على مساعدة آشور لكي لا تقع تحت سيطرة بابل.

وقد كشفت حفريات تمّت في صقارة قرب ممفيس، رسالة مؤلفة من (٩) أسطر كتبت بالآرامية تتضمّن طلباً للعون إلى (نيكاو) فرعون مصر، وتعلمه بالخطر البابلي. وفي ما يلي ما أمكن قراءته من النص المشار إليه:

١ ـ «إلى سيد الملوك الفرعون، خادمك أدون ملك [. . .].

٢ ـ السماء والأرض وبعل شمايم، الإله [. . .].

٣ ـ لفرعون، الثابت كما أيام السموات [. . .].

٤ ـ جنود ملك بابل أتوا، وصلوا إلى آفق و.

٥ ـ [. . .] استولوا على [. . .].

٦ ـ لأن سيد الملوك الفرعون يعلم أن خادمه [. . .].

٧ ـ لإرسال جيش لتحريري. لا تتخلَّ عني [. . .].

٨ ـ وممتلكاته (؟) حافظ عليها خادمك. وهذه المنطقة [. . .].

٩ ـ حاكم في البلد و[. . .].

يُستنتج من هذا النص المشوّه، خبر تحركات جيوش بابل، كما يعتقد أن (أدون) موجّه الرسالة، هو أمير عسقلان وليس هذا بالمؤكّد، ويمكن التفكير بملك صيدا أوصور، كما يمكن اعتبار أن النداء لا يعود إلى العام (٦٠٤). وفي كل الأحوال، فإن الفرعون (نيكاو)، سجّل في غزة انتصاراً على البابليين العام (٦٠١/ ٦٠٠) ق.م.

ع ـ نهاية آشور على يد نابو بولاصّر ملك بابل:

كانت آشور لا تزال قوية إبان حكم آشور بانيبال، ثم بدأت تضعف بعد وفاته، وبسبب تحالف بابل مع الميديين ضدّها بحيث سقطت آشور بيد أعدائها في صيف العام

(٦١٤ق.م.)، كما سقطت نينوى في صيف العام ٦١٢، وأخيراً جاء دور حرّان وكانت آخر معقل للمقاومة الآشورية على الرغم من مؤازرة الجيش المصري لآشور تحاشياً لانتصار بابل. أما النص الذي يشير إلى المعركة النهائية في حرّان، فقد وَرَد في أخبار الأيام البابلية المرتبطة بفترة حكم (نابو بولاصّر). ونكتفي هنا بالإشارة إلى ذلك النص من دون عرض محتواه لأن الموضوع يخرج عن نطاق هذا البحث.

ف ـ نبوخذ نصر الثاني يسيطر على مدينة (يهودو) ويأسر ملكها:

يقدّم إلينا سجلّ الأخبار البابلية، تفاصيل عديدة ودقيقة عن تحركات جيوش بابل، بعد إنهاء المملكة الآشورية وتحقيق مصر لبعض الانتصارات على جيش بابل في الشمال خلال السنة العشرين من حكم (نابو بولاصر) (٦٢٦ ـ ٦٠٥) واستقرارها في كركميش.

في السنة الحادية والعشرين، قام الابن البكر لملك بابل الأمير (الذي سيصبح نبوخذ نصر الثاني)، بتعبئة جيوش بابل ومشى نحو كركميش، حيث قام بلقاء جيوش مصر التي لم تصمد أمامه، وفرض عليها انكساراً وكبّدها خسائر حوّلتها إلى لا شيء. كما لحق بجنود مصر الذين أداروا له ظهرهم والتقى بهم في ضاحية حماه على العاصي وكسرهم نهائياً. كما احتل حماه.

وفي العام (٦٠٥) توفى نابو بولاصر بعد حكم دام (٢١) عاماً، واضطر نبوخذ نصر إلى العودة إلى بابل لتبوّؤ العرش. ثم عاد في بداية حكمه إلى سورية الشمالية والساحل فاجتازه منتصراً، وعاد محمّلاً بعائدات ضخمة في شهر نيسان (٦٠٤) للاحتفال بعيد الأكيتو[1].

عمد في العام (٦٠٤) إلى تعبئة جيوشه من جديد ومشى نحو سورية الشمالية والساحل حتى نهاية السنة وجميع الملوك جاؤوا إليه يحملون عائداتهم الثمينة.

مشى بعد ذلك إلى (عسقلونا) واحتلّها وأسر ملكها ثم أسلمها للنهب وأخذ منها

---

(١) عيد الأكيتو في بابل هو عيد رأس السنة في بداية الربيع وللملك فيه دور رئيسي بالنسبة للاحتفال، (انظر الكتاب الثالث من ديوان الأساطير لقاسم الشواف، الصادر عن دار الساقي، العام ١٩٩٩).

سجناء، كما ورد في نص أخبار الأيام البابلية بأنه حوّلها إلى تلّ وإلى كومة من الأنقاض»، وفي السنة التالية (شباط ٦٠٣) عاد إلى بابل.

يعود نبوخذ نصر في السنة الرابعة من حكمه (٦٠١) فيجتاز مظفّراً المسار نفسه. كما يتوجّه بنهاية السنة للقاء جيش مصر. وعندما علم بذلك فرعون مصر، عبأ جيشه وتمّ بينهما لقاء، لم يشر إليه نص أخبار الأيام بالتفصيل ويكتفي بالقول إنهما كبّدا بعضهما خسائر ذات أهمية.

عاد (نبوخذ نصّر) في العام (٥٩٩) ق.م لتنفيذ مساره كما في السنوات السابقة، وأضاف إليه هذه المرة أن أرسل جيشه نحو البادية حيث استولى على ممتلكات تخصّ عرب البادية وسلب مواشيهم وتماثيل آلهتهم ثم عاد إلى بابل في بداية ربيع (٥٩٨).

أما السنة السابعة من حكمه وهي التي تهمّ هذا البحث، أي في العام (٥٩٧)، فقد خصّ بها (نبوخذ نصر) مملكة (يهودا)، إذ تمركز أمام مدينة (يهودو)[1] ثم احتل المدينة وقام بأسر ملكها، ثمّ عين عليها ملكاً[2] اختاره هو وفرض عليه عائدات كبيرة رجع بها إلى بابل.

يتأكد اسم الملك المنفي إلى بابل، في سجلات عثر عليها في بابل، تشتمل على توزيع مواد غذائية على المنقولين من مختلف المناطق والذين كان أهمهم يعيشون في القصر، أو في ملحقاته، ويلقون معاملة حسنة، إذ كان يتم إعدادهم وتدريبهم على الإدارة البابلية، وتعيينهم في ما بعد كحكام محليين. أما ملك يهودو المنقول فقد كان (يواكين) الذي لم يكن عمره يتجاوز (٢٣) سنة.

ص ـ يواكين ملك يهودو في بابل على لائحة توزيع المواد الغذائية:

لدينا عدد من اللوائح تشير إلى توزيع مخصصات المواد الغذائية التي عُثِرَ عليها في بابل أثناء حكم (نبوخذ نصر). ومن هذه المواد هناك الزيت والشعير ومن وقت إلى آخر، التمور والتوابل.

وفي ثلاث لوائح تتعلق بتوزيع الزيت، يمكن قراءة اسم ملك (يهودو) الذي كان

---

(١) هنا أيضاً ترد تسمية مدينة (يهودو)؟ ولا يشير النص إلى القدس.

(٢) الملك الذي عينه نبوخذ نصر هو عمه (ماتانيا)، وعرف توراتياً تحت اسم (سيديياس) (Sédécias).

يعيش في القصر الملكي، مع بعض تابعيه أو أفراد عائلته، وقد ورد في اللوائح ما يلي:

«(سوتو) واحد[١] من الزيت لياؤكين، ملك بلد (يهودو) و٢½ (قو)[٢] لأبناء ملك (يهودو) الخمسة».

أما اللائحة الثانية فقد تضمنت ما يلي:

«سوتو واحد إلى ياؤنياكين و٢½ (قو) لخمسة أبناء [. . . .]».

وتكرر اللائحة الثالثة المعلومات نفسها مع تعديل في كتابة اسم الملك وفق (ياكوكينو) والبلد (ياكودو).

ق ـ أواخر أيام نابونيد وسقوط بابل:

عرفت بابل في أيامها الأخيرة، ملكاً ساهم في إضعاف المملكة، كما كان الأمر في مصر في زمن أمينوفيس الرابع، الذي ترك عاصمته واستقرّ في عاصمة جديدة (العمارنة) مهتماً بنشر ديانته الجديدة. والملك الذي يحق لبابل اتهامه هو (نابونيد) (٥٥٦ ـ ٥٣٩) لأنه هجر مدينته بابل وإلٰهها (مردوك) وعاش عشر سنوات من أيامه الأخيرة في واحة (تيماء)[٣]، وتنقل في الجزيرة العربية حتى موقع (يثربو) (يثرب). وعندما كان نابونيد لا يعود إلى بابل، فإنّ الاحتفال بعيد (الأكيتو) لرأس السنة في بداية الربيع، كان لا يتمّ بسبب تغيّبه، مع العلم أن الآلهة المجتمعة بمناسبة الاحتفال كانت تقرر مصير المملكة سنوياً.

ولكي نفهم تصرف (نابونيد) يكفي أن نتعرف إلى ما ورد عنه في المحفوظات البابلية وخصوصاً في النقش الذي تركه متحدثاً عن نفسه، إذ يقول:

«أنا نابونيد، الابن الوحيد الذي لم يكن أحد معه. والذي في قلبه، لم تأت رغبة الملكية، والذي لم يتضرّع للآلهة والإلٰهات من أجل ذلك، ولهذا فإن الإلٰه (سين) (إلٰه القمر) دعاني إلى الملكية».

يضيف النقش بأن الإلٰه (سين) أَمره في حلمه أن يعيد بناء معبد (حرّان)، مشيراً

---

(١) (Sutu) (السوتو) يساوي حوالى ٥ ليترات.

(٢) (qu) (القو) يساوي ٢,١٠٥ لتر.

(٣) الواقعة على حوالى ٤٠٠كلم إلى الجنوب الشرقي من خليج العقبة.

إلى عدم تقوى وسوء أهالي بلاد بابل، المعارضين لهذا المشروع، وإلى المرض والمجاعة التي نتجت عن ذلك بالنسبة إليهم، ويتابع النص قوله:

«لهذا فإنه (أي الإله سين) جعل عدد سكان البلد يتقلص، وأما أنا فإنه جعلني أبتعد عن مدينتي بابل، وخلال عشر سنوات، فأنا أسلك فيما بينها طرق مدن (تيماء) و(دادانو) و(باداكو) و(هيبرا) مدينة (ياديهو) حتى (يثربو) ولم أعد أدخل مدينتي بابل».

يكفي النص المثبت أعلاه لفهم عقلية نابونيد وتمسكه الديني بإلهه (سين) الذي أراد التفرد بعبادته بعيداً عن بابل، بعيداً عن مملكته، ما أغضب الإله (مردوك) إله بابل. وقد ترك نابونيد إدارة جيش بابل لابنه (بِل شارَصَر)، وهكذا تصارعت مملكة بابل مع المجاعة والأوبئة، وضعُف الجيش لفقدان الرغبة في الحكم، وضَعُفت بابل، ويئس شعبها بينما كان الجار الشرقي يقوى بقيادة (كورش) الفارسي. وعلى الرغم من أن (نابونيد) عاد إلى بابل في العام (٥٣٩) وهي السنة (١٧) من حكمه وبدأ الاحتفال بعيد رأس السنة، كان جيش بابل، يجابه جيش (كورش) على شاطئ دجلة في موقع (أوفو)[١] حيث خسر المعركة وقتل خلالها أو تمّ إعدامه.

تذكر المحفوظات البابلية عن حملة كورش ما يلي:

«في اليوم الرابع عشر، دخل (كورش) مدينة (سيبار)[٢] من دون قتال وفرّ (نابونيد). وفي اليوم السادس عشر، فإن (أوجبارو) حاكم كورش، دخل بلد (غوتيوم)[٣] إلى الشرق من مجرى دجلة الأوسط.

دخل جيش كورش مدينة بابل من دون معركة».

وقضت حنكة كل من كورش وحاكمه بتطويق معابد المدينة وحمايتها من قبل حَمَلة التروس في جيش كورش لكي تستمر الاحتفالات بعيد رأس السنة، وتضيف المحفوظات بأنه:

---

(١) (Upu) على الضفة الشرقية لدجلة وعلى بعد حوالى ٣٠كلم إلى الجنوب الشرقي من بغداد.

(٢) (Sippar) (أبو حبّه) إلى الشمال من بابل بين دجلة والفرات في مكان تقاربهما وهي مدينة الإله شمش.

(٣) (Gutium).

«لم يتوقف أي احتفال ديني».

عاد نابونيد إلى بابل، وتمّ أسره ولم يعرف مصيره في ما بعد، ويرجح نفيه.

دخل كورش بعد ذلك شخصياً مدينة (بابل)، وأمر بالأمان بالنسبة للمدينة، عيّن ابنه (قمبيز) حاكماً على بابل، كما عيّن (أوجبارو)[1] نائباً عنه، وعين حكاماً على مختلف المناطق. كان ذلك في نهاية العام (٥٣٩)، وأبقى كورش على جميع التنظيمات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية في بابل ومحمياتها على ما هي عليه، ودام ذلك خلال نصف قرن، ما ساعد بابل على متابعة نشاطها الاعتيادي، مستفيدة من فترة الاستقرار الفارسية.

وما يهم فلسطين هنا، هو أن المنتصر (كورش)، وقد يكون ذلك بسبب طلب بعض المهجّرين من مملكة (يهودا) من قبل نبوخذ نصر الثاني، أصدر قراره بالسماح بالعودة إلى فلسطين لمن يريد ذلك. وكما بيّنا آنفاً، فكثيرون لم يعودوا.

ومع الأسف فإن الذين عادوا هم قلّة من المتعصبين والمتزمتين الذين لم ينجحوا في جمع ثروة اضطرتهم إلى البقاء في بابل للمحافظة عليها.

ندخل بعد ذلك في مرحلة بناء الامبراطورية الفارسية التي يعرض الفصل الثاني عشر علاقتها بفلسطين.



نابونيد نصب في حرّان

(١) (Ugbaru).

الفصل الثاني عشر

(١٢) فلسطين خلال الفترة الفارسية

(١٢ ـ ١) حول تاسيس الامبراطورية الفارسية

(١٢ ـ ٢) ماذا عن التقسيمات الإدارية لفلسطين والساحل خلال الفترة الفارسية

(١٢ ـ ٣) الحفريات الأثرية في فلسطين العائدة للفترة الفارسية

(١٢) فلسطين خلال الفترة الفارسية

(١٢ ـ ١) حول تاسيس الامبراطورية الفارسية:

أشرنا في الفصل السابق، إلى أن كورش الفارسي احتل بلاد بابل في نهاية العام ٥٣٩ ق.م، وحافظ فيها على التنظيمات الدينية والإدارية والاجتماعية كافة. وخلال قرنين أصبحت بلاد بابل إحدى المناطق المركزية للامبراطورية الفارسية (٥٣٩ ـ ٣٣١ق.م)، وكأن ذلك كان استمراراً للامبراطورية البابلية ـ الجديدة (النيو ـ بابلية) التي حلّ محلّها الحكم الجديد متبنّياً حتى آلهتها.

اتجه الفرس بعد ذلك نحو آسيا الوسطى والهند باتجاه الشرق، واحتل قمبيز، ابن كورش، مصر في الاتجاه الغربي. إلا أنّ وفاته أحدثت اضطرابات في بلاد بابل، وبدأت حركات تحرّرية تظهر في العام ٥٢١ قادها كل من (نيدينلي ـ بل)[١] ثم (آراك)[٢] اللذين تبنّيا اسم (نبوخذ نصر) الثالث و(نبوخذ نصر) الرابع. ولكنهما لم يحكما سوى أشهر عدة، إذْ تمت تصفيتهما من قبل من سيصبح المؤسس الحقيقي للامبراطورية الفارسية وهو (داريوس) الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ق.م.)، وهو الذي اعتمد خلال كامل حكمه، حاكماً واحداً على المجموعة المؤلفة من بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين (الهلال الخصيب). وداريوس هو الذي أسّس نظام «الخدمة المتوجبة

---

(١) (Midinli-Bêl).

(٢) (Arak).

للملك»، القاضي، بتقديم مساهمة مالية منتظمة من قبل الأفراد، كما أمر باستصلاح أراضٍ في المنطقة الوسطى من بلاد بابل، في منطقة ديالا من روافد الدجلة، واستقدم إليها جنوداً أجانب للاستقرار فيها.

خلال حكم خليفته (كْزيزِكِيس)[1] (٤٨٦ ـ ٤٦٥ق.م.) أصبحت بلاد ما بين النهرين وخصوصاً منطقتي سومر وآكاد، مركز إنتاج زراعي بالدرجة الأولى، واستمر ذلك حتى العام (٤٠٤ق.م.)، عند ذلك فُصِلت سومر وآكاد عن الساحل الغربي. أما الحكم الفارسي في الهلال الخصيب فينتهي، مع الاسكندر الكبير، بدخوله مدينة بابل وذلك قبل اغتيال داريوس الثالث (٣٣٦ ـ ٣٣٠) من قبل رعاياه، ونهاية الامبراطورية الفارسية التي دامت قرنين ونيفاً.

نعود الآن إلى تتبع بعض ما قدّمه الساحل الكنعاني وفلسطين خلال فترة الحكم الفارسي.

(١٢ ـ ٢) ماذا عن التقسيمات الإدارية لفلسطين والساحل خلال الفترة الفارسية:

يمكن التعرف، بالنسبة للتقسيمات الداخلية، التي لا تمثل جميعها محافظات أو مناطق إدارية، يديرها حاكم معيّن من قبل الفرس، إلى منطقة ساحلية أولى، اعتباراً من جنوب نهر الليطاني بين صور وعكا، حتى تل أبو خوّام وحيفا.

وإلى الشرق منها نجد منطقة الجليل الواقعة غربي بحيرة طبريا، مشتملة على (ماجدّو) و(بيت شان) في جنوبها.

كما يمكن متابعة المنطقة الساحلية اعتباراً من (عتليت) و(دور) حتى (يافا) و(بيت يمّ)، وتشمل هذه المنطقة شرقاً السهل الساحلي الواقع بين دور ويافا.

تأتي بعد ذلك منطقة السامرة الممتدة شرقاً من السهل الساحلي المشار إليه حتى نهر الأردن مشتملة على مدن عدة أشهرها خربة الحمام في الشمال و(شكيم) في الوسط و(اللّد) في الجنوب.

---

(١) (Xerxés).

ثم إلى الجنوب من يافا تتابع المنطقة الساحلية من (بيت يمّ)، مروراً (بالنبي يونس) وعسقلان، ويحدها من الشرق (أزيقا)[١] و(جازر).

وما عرف بمنطقة (يهودا)، فيشمل بيت إيل بالقرب من رام الله و(أريحا) شرقاً و(أورسالم) (القدس) و(بيت لحم) حتى نهر الأردن وجزء من ساحل البحر الميت الغربي حتى (عين جدي).

أما ما بقي من ساحل كنعان، حتى حدود مصر والبحر الميت شرقاً، مشتملاً على (غزة) و(خان يونس) و(رفح) و(بير سبع)، فيمثل المنطقة الجنوبية. وإلى الشرق من بحيرة طبريا من جهتي نهر اليرموك، نجد منطقة (القرنين)، كما يمكن في شرق الأردن تحديد منطقة (بيت عمّون)، وفي جنوبها كل من (عمّان) و(عراق الأمير) و(حسبان).

ثم في جنوبها، إلى الشرق من البحر الميت ندخل منطقة (مؤاب) التي من بين مدنها (ديبان) و(الكرك).

كما أنه من المرجح أن تكون منطقة ما سمّي «بعبر النهر»، أي نهر الأردن، وغرب نهر الفرات، قد فصلت إدارتها عن إدارة بلاد بابل، وذلك نتيجة التمرّد البابلي في العام (٤٧٩ق.م.) الذي قام به كل من (بل ـ شيماني)[٢] و(شمش ـ إيريبا)[٣]. ولا ندري إذا ما كانت (دمشق) أم (صيدون) عاصمة لمنطقة «عبر النهر»، وليس لدينا سوى ما ذكره المؤرخ اليوناني (هيرودوت) في منتصف القرن الخامس، معتبراً أن المحافظة الخامسة، أي (النوم)[٤] الخامس «كانت تشمل فينيقيا وسورية المسماة فلسطين وقبرص» وتمتد على طول شاطئ المتوسط من حدود كيليكيا وسورية حتى مصر. وخلال تلك الفترة كان الحاكم (ساتراب)[٥]، أي محافظ عبر الفرات، تخوله صلاحياته العسكرية إخماد ثورة كل من مصر وقبرص (هيرودوت).

وإذا ما كان القرن الخامس قبل الميلاد، قد عرف فترة هدوء في فلسطين، فإن القرن الرابع، عرف اضطراباً، إذ نجحت مصر بين أعوام ٤٠٤/٣٩٨ حتى ٣٤٣ بإطلاق

---

(١) (Azéqa).

(٢) (Bel-Šimani).

(٣) (شمش ـ إيريبا) (Shamash-Eriba).

(٤) (Nome) = تسمية بمعنى المحافظة.

(٥) (Satrape) لقب الحكام.

حركات تمرّد في فلسطين والساحل، ما استلزم حملات عسكرية مصرية وفارسية عدّة في فلسطين، وكذلك ثورات محلية مختلفة وخصوصاً تمرد مدينة صيدون في الشمال.

ويعتقد أن تلك الأحداث، كانت سبباً لإعادة تنظيم إداري في الجنوب الفلسطيني خلال النصف الأول من القرن الرابع ق.م. وإلى تلك الفترة يمكن إعادة ظهور العملات الفلسطينية بالاعتماد على ما تركه عن الساحل السوري ـ الفلسطيني الملاح اليوناني الجوّال (سيلاكْس)[١].

خلال شتاء (٣٥١ ـ ٣٥٠ق.م)، فشل جيش فارس في إعادة احتلال مصر، ونتج عن ذلك الفشل، ثورة المدن الكنعانية بقيادة صيدون ما أدّى إلى تدميرها خلال صيف (٣٤٥)، وكان إخْماد الثورة على ما يظهر، قد أدّى إلى تبديل ملك صيدون.

في العام (٣٤٣) أُعيد احتلال مصر من قبل (أرتاكْزِيزْكيس)[٢] الثالث، بقيادة أحد جنرالاته، إلا أن هذا الأخير اغتصب السلطة بعد أن دس السمّ لملكه العام (٣٣٨). ولم تمضِ مدة طويلة بعد ذلك، حتى يصل الاسكندر المقدوني في بداية العام (٣٣٢ق.م) أمام صور ويحتلها بعد حصار دام سبعة أشهر، ثم يحتل مدينة (غزّة)، على الرغم من مقاومة حاكمها الفارسي (باتيس)[٣].

(١٢ ـ ٣) الحفريات الأثرية في فلسطين العائدة إلى الفترة الفارسية:

تعرفنا في الفقرة السابقة إلى الأحداث التي عرفتها فلسطين خلال الفترة الفارسية والتي لم تكن تتعدى بعض محاولات التمرد على الحكم الفارسي بتشجيع من مصر أو بتضامن مع حركة تمرّد قادتها صيدون في منتصف القرن الرابع (٣٤٥ ق.م). وإلى أن ظهر الاسكندر في المنطقة، لم تؤدي فلسطين دوراً فاعلاً في السياسة الإقليمية بصورة عامة.

وبقصد التعرف بشكل أفضل إلى تلك الفترة الفارسية كما عاشتها فلسطين، ليس أمامنا سوى الحفريات الأثرية التي تمت، وتعود مكتشفاتها إلى كلٍ من القرنين الخامس

(١) (Scylax).
(٢) (Artaxerxes).
(٣) (Baltis).

والرابع ق.م. ومن تتبع تلك المكتشفات، نستنتج أنها لم نظهر ما من شأنه أن يلفت نظر الباحث الذي لا يرى أمامه سوى بعض الكتابات التي سنحاول استعراضها في ما يلي، للتعرف إلى بعض ما كان عليه المجتمع الفلسطيني خلال تلك الفترة. ويمكن القول منذ الآن إن هناك فروقاً عديدة بالنسبة لكثافة المكتشفات من موقع إلى آخر فيما يتعلق بالكتابات.

أ ـ في الضفة الشرقية للأردن:

عُثِر على كتابات بالآرامية خُطَّت على ألواحٍ فخّارية (أوستراكات) وجرار وأختام، بشكل خاص في وادي الأردن الأوسط، إذْ دلّت حفريات (تل السعيدية) على وجود هيكل صغير من الحجر الكلسي يحمل كتابةً تشير إلى صاحبه وهو (زكّور)[١] يعود تاريخه إلى حوالى ٥٠٠ ق.م، كما عُثر على بقايا لوح حجري مكسّر عليه كتابة بالآرامية يصعب قراءتها وقد يتعلق الأمر بتسجيل كميات شعير.

- في تل دير علاّ، عُثِر على لوح حجري عليه كتابة تدل على تسجيل كميات أحجار (أبنن)[٢].
- أما حفريات تل المزار فقد كشفت عن لوح حجري عمّوني، وآخر يعود إلى القرن الخامس ويحمل سبعة أسماء علم عمّونية أو كنعانية، منها ثلاثة أسماء يدخل في تركيبها اسم الإله إيل (ثيوفورية)[٣]، واسم واحد فارسي، واسم واحد يهوي من بين تسعة أسماء. هذه المواقع الثلاثة أعلاه متقاربة وتنحصر في الضفة الشرقية للأردن مقابل مستوى شكيم.
- في الجنوب الغربي من عمّان عُثر في (تل نمرين)[٤] على لوح حجري عليه كتابة آرامية تعود إلى القرن الرابع لما قبل الميلاد.
- وفي (تل العميري) إلى الشرق من (تل نمرين) عُثِر في العام ١٩٨٩ على ثلاث جرار

---

(١) (LZkwr) = لزكّور.

(٢) ('bnn).

(٣) (Théophore) يحمل اسم إله في تركيبه.

(٤) (Tell Nimrin) يقع على بعد ١٢كم إلى الشمال من البحر الميت و١٦كم إلى الشرق من أريحا.

عليها أختام آرامية تعود إلى القرنين السادس والخامس، منها اثنان يحملان ختم (شبأ عمَن)[١]، والثالث يحمل اسماً غير كامل بدايته وليعل...».

ب ـ في الضفة الغربية:

مكتشفات الضفة الغربية هي أكثر غزارة وتغلب عليها الكتابات الكنعانية التي رافقت الفترة الفارسية.

- ففي (الزيب)[٢] تمّ العثور على جرّة عليها كتابة بواسطة تحزيز تعود إلى القرن الخامس ـ الرابع لما قبل الميلاد، تشير إلى «لـ[؟] دنّ ملك».
- وفي (حاصور) عُثِر على كتابة محزّزة كنعانية تعود إلى نهاية القرن السادس.
- كما عثر في موقع (حاريميم) على نقش كنعاني سُجِّل على محيط حامل من البرونز وهو عبارة عن تقدمة للإلهة عشتروت.
- أما تل عكا فقد كشف عن لوحين حجريين ووعاء يحمل كتابة كنعانية.
- وكشف تل (كيسان)[٣] عن بعض كِسَر فخارية تحمل تحزيزات كتابة كنعانية.
- أما جبل الكرمل إلى الغرب قرب حيفا فقد عُثِر فيه على كتابات كنعانية عدّة على جرار تعود إلى نهاية الفترة الفارسية وبداية الفترة الهلنستية.
- في (تل أبو حوام)[٤] وفي تل البير الغربي (تل البروة)[٥] عُثِر بين العام (١٩٢٩ و١٩٣٣) على كتابة كنعانية وعلى ختمين ضريبيين يعودان إلى النصف الثاني من القرن الرابع، ويحملان اسم «لبيت [.؟..] بالنسبة للختم الأول، و«[ب]يت بطن» على الختم الثاني.
- أما في (عتليت)[٦]، فقد كشفت الحفريات عن ختم كُتِب عليه «ع و ت م» =

---

(١) (Šb' 'mn).

(٢) (Akzib) أو (Ezzib) على الساحل إلى الشمال من عكا.

(٣) (Tell Keisan) إلى الجنوب الشرقي قرب عكا.

(٤) (Tell Abou Hawwam) على الشاطئ غربي حيفا في الكرمل.

(٥) (Tell Al barwé) أو (تل البير الغربي).

(٦) (عتليت) على الساحل إلى الجنوب من حيفا.

(عوْتم) أو (عوتام)، كما عُثر على كتابات كنعانية وآرامية عدة على طاسات معدنية عليها اسم «عَشْتَرَن»[١].

- وفي (تل دور) عُثِر على كتابات كنعانية عدة لم تكن نتائجها قد نشرت بعد في العام ١٩٩٤ لدى نشر التقرير الذي هو بين أيدينا.
- أما موقع (أرسوف) فقد قدّم كتابتين محزّزتين غير كاملتين بلغة كنعانية.
- في (عسقلان) كشَفَتْ الحفريات عن أوزان عدة من البرونز تعود إلى القرن الرابع وعليها تحزيزات لكتابة كنعانية.
- أما منطقة (غزة) فقدْ قدّمت كتابات على جَرّتين تعودان إلى نهاية الفترة الفارسية، أو بداية الهلنستية، وأمكن قراءة الكتابة على الجرة الثانية كما يلي: «بـ[؟] ل لملك»، و«في السنة الحادية عشرة لملك».

يتَّضح مما قدَّمته الحفريات عن المكتشفات العَائدة إلى الفترة الفارسية حتى الفترة الهلنستية التي تلت فتح الاسكندر، إن جميع الحفريات في المنطقة الشمالية من فلسطين وحفريات الساحل إلى الجنوب من عكا مشتملةً على الجليلين الأعلى والأدنى وكامل الساحل حتى عسقلان وغزّة، لم تقدّم ما يشير إلى عمران جديد ذي أهميةٍ ما، أو ما يشير إلى أحداث تاريخية معينة، ولا بد من الملاحظة إلى أنها لم تقدم سوى كتابات كنعانية، وليس هذا بمستغرب، فالمنطقة الشمالية والساحل الفلسطيني بَقيا على كنعانيتهما في مختلف مراحل تاريخهما، وهما اللذان يشملان سهل يزْرِإيل وإيلي يقم، وبيت إيل وبيت يم وبيت حورون[٢] وبعل شاليشا وبني إيل وبيت عناة. . . وكلّها مواقع كنعانية لم تعدل منذ تأسيسها الذي يعود إلى ما قبل الألف الثاني لما قبل الميلاد، وبقيت كما هي في جميع مراحل تاريخها وحتى الفترتين الفارسية والهلنستية، وهي التي تشهد على وجود بعضها اليوم، تلالٌ أثرية بصورة عامة.

ولا بد لنا هنا من التساؤل لماذا لم تغلب الكتابة الآرامية على المكتشفات الكتابية التي بقيت كنعانية، مع أن اللغة الآرامية قد تمكنت من الانتشار في جميع أنحاء

---

(١) عشترن أو عشتر: إله الأمطار الصحراوي وله دور في أوغاريت عند اختفاء بعل بموته وغياب أمطاره.
(٢) حورون: إله الطاعون الكنعاني.

الامبراطورية الفارسية، فهل يعني ذلك أن فلسطين، لم تشترك في العالم الجديد الآرامي اللغة والثقافة؟ وهل كانت معزولة عن السياسة الدولية في تلك الفترة؟ لا يسعنا تقديم أجوبة على هذه التساؤلات في الوقت الحاضر بانتظار اكتشافات جديدة تدعم الانعزالية الفلسطينية في الحقبة الفارسية، أو تظهر عدم صحتها.

ج ـ ماذا عن الكتابة العبرية خلال الفترة الفارسية؟

نلاحظ قبل كل شيء، أن الكتابة، التي هي عبرية بشكلٍ كامل، أي التي نتجت كتابتها عن تطور الكتابة العبرية القديمة (الباليو ـ عبرية) هي نادرة جداً. يعود ذلك في رأينا إلى سببٍ واحد وهو أن الاتجاه نحو تعلم الكتابة، بدأ قبيل حكم الملك جوزياس (٦٣٩ ـ ٦٠٩ق.م.) على اعتبار أن مملكة (يهودا) الجنوبية كانت شبه أمّية في عهد الملك منسّى الذي كان خاضعاً لآشور، والذي صُنِّفَ في المرويات التوراتية بأنه شرس وأراق دماء الأبرياء. وأنه هو وابنه (آمون) الذي خلفه (٦٤١ ـ ٦٤٠ق.م.) عَمِلا ما يغضب الإله يهوه، وفقاً للتعبير التوراتي، فاغتيل (آمون) بعد سنة من حكمه، وتمّ تعيين جوزياس (المصلح الديني) ملكاً وكان لا يتعدى سنّه الثماني سنوات. وقد أشرنا إلى قصة إصلاحاته في بداية هذا الكتاب، وسنعود إليها في الملحق رقم (٣).

بعد تقديم الإيضاحات أعلاه نعود إلى موضوع الكتابة بالعبرية خلال الفترة الفارسية بين العامين ٥٣٩ (سقوط بابل) و٣٣١ (غزو الاسكندر). ولا بد من التذكير بأن مملكة يهودا، تمّ احتلالها بعد أربع سنوات من وفاة ملكها (جوزياس)، وتمّ سبي ملكها الأخير (يواكين) إلى (بابل) من قبل نبوخذ نصر الثاني في العام (٥٨٧ق.م.)، وسقطت بابل بعد مرور أقل من ربع قرن (٢٣ سنة) على وفاة نبوخذ نصر الثاني في العام ٥٦٢ق.م. ويعني ذلك أن الوقت لم يتسع أمام الجنوب الفلسطيني في (يهودا) لانتشار الكتابة العبرية على الرغم من التساهل الفارسي بما سمّي «السماح بالعودة» التي كانت بدورها أكثر من جزئية.

وتؤكد الحفريات، أن الكتابات العبرية كانت نادرة جداً، وقد حاولنا تقديم التفسير لذلك ونضيف هنا أنه في حال توافرها، كان يظهر عليها الطابع القديم، أي (البدائي). وقد ظهرت بشكلٍ رئيسي على قطع العملة والأختام التي كانت هي أيضاً نادرة.

والعدد القليل من العملات اليهودية (نسبة إلى يهودا) حَمَل كتابة عبرية ـ قديمة مثال (ي هـ د)[١]، و(يوحنن)[٢]، و(ي ح ز ق ي هـ)[٣]. نلاحظ في هذه التسميات دخول اسم الإلٰه (يهوه).

كما أنه عثر على سدادتين من الفخار تحميان عقدين عُثِر عليهما في مغارة واقعة في وادي الدالية إلى الشمال الشرقي من (بيت إيل) على مقربة من الأردن ويحملان في ما أمكن قراءته: «[. . .] ياه بن سانبلاّت»[٤] و«ل ي [. . .] أ»[٥]، ويمكن القول في تلك المرحلة إن الكتابات العبرية ـ القديمة تعتبر استثنائية، لأن كل العملات السامرية، وعلى الأقل عملة (يهودا) تحمل كتابة آرامية. بينما كانت الأختام المطبوعة على الجرار في الفترة الفارسية تستعمل هي أيضاً بشكل عام كتابة آرامية. ولدينا مثال جرّة تعود إلى القرنين السادس ـ الخامس طبع عليها «م ص هـ»[٦]، وكذلك (ي هـ و د)، و(ي هـ و. ع ز ر)، و(ي هـ و د. ح ن ن هـ)، و(ي هـ و د. أ و ر. ي و)[٧]. وقد عثر في «رامات راحيل» (المرتفعات بين القدس وبيت لحم) على (ي ع ل. ب ر. ي ش ع)[٨].

جميع الكتابات المشار إليها أعلاه هي آرامية ويقدمها الباحث[٩] بأنها عبرية ـ آرامية (؟).

وبصورة عامة يمكن الاستنتاج أن اللغة الآرامية هي الغالبة في الجنوب الفلسطيني (مملكة يهودا) في القرنين الخامس والرابع لما قبل الميلاد. ولا ضرورة للتذكير بأن

---

(١) (y h d).

(٢) (y w ḥ n n).

(٣) (y ḥ z q. y h).

(٤) (yh. bn. Sanbllt).

(٥) (لـ ي [. . .] أ).

(٦) (m ṣ h).

(٧) (y h w'z r) و(y h w d ḥ n n h) و(y h w d. 'w r. yw).

(٨) (y 'l. b r. y š').

(٩) André Lemaire, la Palestine à l'époque Perse-Edition du cerf (1994).
واعتباراً من محتويات الملحق رقم (١) يحقّ لنا ويحقّ للقارئ أن يشكك في موضوعية الباحث (اندريه لومير).

اللغة الآرامية عمت فلسطين وكامل منطقة الشرق الأدنى، وبقيت فلسطين تتكلم بها وتكتب بها، حتى الفترة المسيحية وما بعدها على الرغم من الاحتلالين اليوناني والروماني. وقد بقيت اللغة اللاتينية لغة الحاكم وقبل تبنّي المسيحية اللغة اليونانية فإن فلسطين تابعت استعمال الآرامية وتكلم بها المسيح وكتب بها تلامذته.

ملاحظة:

حفاظاً على صحّة كتابة الهمزة (ء) والعين (ع) اللتين تستعملهما لهجاتنا القديمة ولغتنا الحالية بالأحرف اللاتينية، لابدّ لنا من التوضيح بأن القاعدة المتباة هي:

(’) للهمزة و(‘) للعين.

مثال: ‘(adad) = أدد

و(ba‘l) = بعل.

ونظراً لافتقار طابعاتنا دون تعديلات خاصة لأداء حرف العين بشكل صحيح كان لابد لنا من تنبيه القارئ إلى ذلك.

الفصل الثالث عشر

(١٣) فلسطين مع فتح الاسكندر والسلوقيين من بعده

(١٣ ـ ١) عرض سريع لفتوحات الاسكندر

(١٣ ـ ٢) فلسطين والفترة السلوقية

(١٣ ـ ٣) فلسطين الهلنستية

(١٣ ـ ٤) انتشار الثقافة الهلنستية في المنطقة

(١٣) فلسطين مع فتح الاسكندر الكبير والسلوقيين من بعده

(١٣ ـ ١) عرض سريع لفتوحات الاسكندر:

من الطبيعي أن نبدأ هذا الفصل بعرضٍ مختصر وسريع لفتح الاسكندر الكبير واتخاذه بابل، عاصمة العالم القديم، عاصمةً له، مع التذكير بأن بابل كانت أيضاً عاصمة للامبراطورية الفارسية.

خَلَفَ الاسكندر والده في العام (٣٣٦ق.م)، وخلال مدة خمس عشرة سنة فقط، احتل الامبراطورية الفارسية (الأخمينية)، وفتح العالم الشرقي أمام اليونان، وكان يؤمن بحضارة بابل، وكذلك بحضارة مصر الفرعونية.

بعد أن احتل الاسكندر الأناضول، كانت غايته تحرير المنطقة الآسيوية اليونانية من «النير الفارسي»، فاتّجه في العام (٣٣٤ق.م.) نحو الشرق الأوسط الغربي، بما في ذلك مصر، وبفضل انتصاره في معركة إيسّوس (تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ٣٣٣ق.م.)، على جيش فارس، بقيادة داريوس الثالث شخصياً، دَانَتْ له مختلف المدن المتوسطية وانضمت إليه ما عدا (صور) و(غزة)، ما اضطره إلى محاصرتهما واحتلالهما.

اجتاز الاسكندر الفرات في تموز من العام (٣٣١ق.م.) وتغلّب أيضاً على الجيش الفارسي في منطقة شمال آشور ودخل بابل في ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر من العام



الاسكندر الكبير المؤله وعلى رأسه قرنا الكبش

(٣٣١ق.م.)، بينما انسَحبَ داريوس الثالث بعد انكساره إلى بلده الأصلي كي يعيد تنظيم جيشه. وتجمع المصادر كافة على أن الاسكندر دخل بابل من دون معركة، على اعتبار أن البابليين توقّعوا دخوله نهاية الاحتلال الفارسي، وأصبحت مدينتهم المركز الرئيسي للامبراطورية الجديدة التي كانت قيد التأسيس. كما أن المعتقدات الدينية تمّ احترامها.

لم يمكث الاسكندر في بابل إلاّ زمناً قصيراً، ولكنه أطلق بعض المشاريع لتجميل المدينة وترميم المعبد الرئيسي في بابل (الإيساچيل)، ثم تابع معاركه في بلاد فارس وتعدّاها حتى حدود الهند، محتلاً معظم العواصم الأخمينية مثل (سوز) و(برسيبوليس) و(إكباتان)، ثم طارد داريوس الثالث الذي اغتيل من قبل تابعيه. وهكذا طالب الاسكندر لنفسه بألقاب الملك الكبير.

أمضى بعد ذلك سنوات عدّة في إخضاع المنطقة الشرقية من بلاد فارس، ودامَ ذلك حتى العام (٣٢٧ق.م.)، ثم جابه في ربيع (٣٢٦ق.م.)، فيلة الملك الهندي على ضفاف نهر (الأندوس)، إلا أن جيشه رَفَضَ مرافقته لمتابعة المعارك في منطقة الغانج، ما اضطره إلى العدول عن رأيه، وعاد أدراجه نحو بابل في خريف (٣٢٦ق.م.). ولدى وصوله إلى الخليج، كانت المناسبة مواتية بالنسبة إليه للتعرف إلى كامل بلاد بابل، فقام بصعود دجلة على سفينة حتى (أوبيس)[١]، ثم زار شمالي المنطقة المنخفضة مما بين النهرين (شمال سومر) بقصد التعرف إلى احتياجات المنطقة ولحظ بعض مشاريع تحسين أقنية الريّ، وأصبحت بابل لعدة أشهر عاصمة امبراطوريته الواسعة.

---

(١) (Opis) عند التقاء نهر ديالا بالدجلة.

وهنا يدخل الاسكندر في مشروع لم يفكر أحد الفاتحين فيه من قبله وهو الذي خلق تفاعلاً حضارياً وتفاهماً اتحادياً بين البابليين واليونانيين، ويذكر بعض المؤرخين، بأنه عقد زيجات جماعية بين جنوده وبابليات، معتبراً أن مثل هذا الاتحاد مع الذين يمثلون حضارة العالم القديم، هو أفضل السبل لإدارة امبراطوريته الشاسعة.

أعدّ الاسكندر بعد ذلك مشاريع احتلالات أخرى، ولكنه أُصيب بمرض أقعده في صيف (٣٢٣ق.م.) وهو نوع من الملاريا. وفي العاشر من حزيران/يونيو من العام (٣٢٣ق.م.) قضى الفاتح الكبير. وفي بابل نفسها، تمّ اتفاق أوّلي بين جنرالاته على اقتسام الامبراطورية، ونُصّبَ ملكاً على الجميع (فيليب أرهيدي)[1]، شقيق الإسكندر ومن بعده ابن الاسكندر الذي لم يكن ولد بعد والذي اتخذ لقب الاسكندر الرابع. كما سُمّي آنتيپاتير[2] وصياً عليه.

تقرر بعد ذلك، نقل جثمان الاسكندر إلى مقدونيا لدفنه في وطنه، لكن (بطليموس) القائد (الجنرال) الذي كانت مصر حصته من الامبراطورية صادر الجثمان وأمر بدفنه في الاسكندرية المدينة التي تحمل اسمه في مراسم فخمة تليق به، ولم يعثر حتى اليوم على قبر الاسكندر.





(١) و(٢) المملكتان اللتان تنافستا على فلسطين

انطيوخوس الثالث الكبير (٢٢٣ ـ ١٨٧ق.م.)

بطليموس الأول (٣٠٥ ـ ٢٨٣ق.م.)

(١) (Philippe Arhidée) وهو فيليب الثالث.

(٢) (Antipater) آنتيپاتروس وهو أحد الجنرالات وكان يحكم مكدونيا أثناء غياب الاسكندر.

كان لا بد لنا من عرض قصة الاسكندر، الذي كانت علاقته مع مدن الساحل الكنعاني بعيدة عن الاحتلال، في ما عدا مقاومة صور وغزّة كما أسلفنا، وفي ما يتعلق بفلسطين، فإن الفترة القصيرة التي عاشها الاسكندر، وجّه ديناميكيّتها نحو الشرق إلى أقصاه حتى الهند. ومن المفيد متابعة مصير امبراطورية الاسكندر في الهلال الخصيب بشكل خاص وفلسطين هي جزء من وجهه البحري ثم ندخل في استمرارية عرضنا مع وَرَثة هذا الجزء من الامبراطورية «الاسكندرية»، وهم القادة السلوقيون بينما، تسلم البطالسة حصة مصر الفرعونية.

(١٣ ـ ٢) فلسطين والفترة السلوقية:

قلنا إن مصير الامبراطورية، بعد وفاة الاسكندر، تقرر في بابل من قبل نوّابه الرئيسيين الذين أسسوا معه امبراطوريته بحيث تمّ تعيين فيليب الثالث ملكاً، بالإضافة إلى الاسكندر الرابع ابن الاسكندر الكبير الذي لم يكن ولد بعد، كما عيّن (پيرْديكاس)[١] حاكماً إدارياً للامبراطورية. إلا أن هذا الحل الأول لم يكفِ لتبديد الخلاف بين هذا الأخير ومجموعة تمثل مصالح (آنتيپاتير)[٢] المكلّف بإدارة مقدونيا أثناء غياب الاسكندر الكبير، وكل من (بطليميوس) ومنافسه (كراتير).

ثمّ اغتيل (پيرديكاس) من قبل ضبّاطه، ومن بينهم (سلوقس)[٣] الذي سيؤسس في المستقبل المملكة السلوقية: نقلت هذا الحادث مجموعة «الأخبار البابلية» التي بقيت مستمرة في التأريخ لما يحيط بها.

خلال فصل الخريف من العام (٣٢١ق.م.)، تمّ الاتفاق في سورية على تقسيم جديد للامبراطورية وحصل (سلوقس) على (ساترابية)[٤]، أي قطاع أو إقليم بلاد بابل، كما حصل (آنتيغون)[٥] على إقليم (فريجي)[٦] الكبير، وكُلّف بالقيادة العامة للجيش وبمهمة تصفية آخر مريدي (پيرْديكاس)، اللاجئ إلى منطقة آسيا العليا. وبعد ملاحقته

(١) (Perdicas).
(٢) (Antipater).
(٣) (Séleucos).
(٤) (Satrapie).
(٥) (Antigone).
(٦) (Phrigie).

لمدة سنتين، تمكن من القضاء عليه العام (٣١٦ق.م.) عند ذلك أعلن (آنتيچون) ملكيته على آسيا بكاملها، وبذلك يكون قد اعتدى على إقليم سلوقس، مع أن هذا الأخير استقبله في بابل.

وفي الوقت نفسه، فإن فيليب الثالث، تمّ اغتياله في مقدونيا العام (٣١٧ق.م.)، واضطر سلوقس إلى اللجوء إلى بطليميوس في مصر، بينما قام (آنتيچون) القائد العام للجيش، بإعلان نفسه سيداً على بابل. تشكّل عند ذلك حِلف ضد (آنتيچون) وابنه (ديميتريوس)[١] الذي انتصر عليه بطليميوس في غزّة العام (٣١٢ق.م.). عند ذلك، اغتنم سلوقس الفرصة للعودة إلى بلاد بابل مع فرقة جنود صغيرة، وتؤكّد وثائق بابلية حضوره إلى المدينة بنهاية ربيع (٣١١ق.م.) حتى (٣٠٨ق.م.)، كما عدّل آنذاك نظام التأريخ بالنسبة للملوك بحيث جُعِل بدؤه يُحسب اعتباراً من حكم الاسكندر الرابع، واستمر ذلك حتى العام ٣٠٦، كما استمرت الحرب بين (سلوقس) و(آنتيچون) بين (٣١١ ـ ٣٠٨ق.م.)، وعلى الرغم من ذلك بقي سلوقس، سيداً على إقليم بابل والشرق، وحصّن حدوده الشرقية حين قام من (٣٠٨ ـ ٣٠٣ق.م.) بحملة عسكرية أوصلته حتى حدود الهند.

بعد اتخاذ (أنتيچون) لنفسه لقب ملكِ العام (٣٠٦ق.م.)، وكذلك بقية الحكام (الديادوك)[٢]، فما كان من (سلوقس) إلا أن أعلن ملكيته أيضاً اعتباراً من العام (٣٠٥ق.م.)، ثم ساعد (ليزيماك)[٣] في حربه مع (آنتيچون) وانتصرا عليه في معركة (إفسوس)[٤] العام (٣٠١ق.م.) حيث قتل. واستفاد (سلوقس) بعد ذلك من المناسبة لاسترجاع ممتلكاته السورية، وأصبح بذلك سيّداً على قسم كبير من آسيا من الهند حتى المتوسط، فأسس مدينة (سلوقيا)[٥] على شاطئ دجلة، واستقدم إليها سكاناً يونانيين ومقدونيين وقسماً من سكان بابل على اعتبار أن العاصمة القديمة بابل قد تأثرت كثيراً بسبب الحروب التي عرفتها بين الحكام، كما اعتبر سلوقس أن المدينة الجديدة (سلوقيا) تقع على الطريق المباشر بين الغرب وآسيا.

---

(١) (Démétrios).

(٢) (Diadoques).

(٣) (Lysimaque) حاكم منطقة ترغاس.

(٤) (Ipsos).

(٥) (Séleucie).

قام سلوقس بعد ذلك بتأسيس أنطاكية في سورية الشمالية السنة ٣٠٠ لما قبل الميلاد، وتابع حربه مع (ليزيماك) و(ديميتريوس) في شباط ٢٨١ق.م.، وأصبح أيضاً سيد آسيا الصغرى بعد تغلّبه عليهما.

وعندما عمد سلوقس بعد ذلك إلى استعادة القسم الأوروبي من امبراطورية الاسكندر، تمّ اغتياله من قبل (بطليميوس كيرونوس)[١]، وكان ملكاً على منطقتي (تراس)[٢] ومقدونيا.

خلف (سلوقس الأول) ابنه (انطيوخوس) الأول (٢٨٠ ـ ٢٦١ق.م.) وورث عنه مملكة شاسعة كانت قد بلغت أقصاها في ذلك الوقت، مع أن مركز ثقلها انتقل نحو الغرب من دون أن يعني ذلك إهمال بلاد ما بين النهرين.

في العام ٢٧٣ق.م.، أصدر أمراً ملكياً بنقل سكان من بابل إلى مدينة سلوقيا على دجلة بسبب مجاعة كما يُعتقد. وفي المرحلة الأولى من القرن الثالث بدأ التأثير الهلنستي في البلاد البابلية.

يستمر الملك الجديد في صيانة المعابد التقليدية في بابل مثل (الإيساچيل)، معبد الإله مردوك، و(الايزيدّا)، معبد الإله (نابو) بن مردوك. بينما كان الموظّفون يواصلون عطاءاتهم إلى المعابد.

منذ فترة حكمه، كان (سلوقس) الأول يشرك في الحكم ابنه (انطيوخوس) الأول كنائب ملك، واستمر ذلك من ملكٍ إلى آخر حتى (انطيوخوس) السابع (١٣٠ ـ ١٢٩ق.م.).

نتج عن فترة الحكم السلوقية البابلية، استمرار التقدم الثقافي والفكري الذي عرفته بابل آنفاً، في جميع المجالات، يثبت ذلك ما عثر عليه من وثائق كتبت بالمسمارية على لوحات فخارية، ما عدا النصوص القانونية، التي هي نادرة على اعتبار أن حاملها كان ورق البردي أو الرق. وقد عُثر في مدينة أوروك على الأختام الفخارية التي كانت تمهر بواسطتها الوثائق، كما أدّت مدينة (سلوقيا) دوراً حيوياً في ما بين النهرين.

أما ما يؤسف له في تلك الحقبة التاريخية فأن السلوقيين واللاجيديين البطالسة في

---

(١) (Ptolemée Kéraunos) كان ملكاً على منطقة تراس ومقدونيا.

(٢) (Thrace) المنطقة من أوروبا الشرقية بين اليونان وتركيا وبلغاريا.

مصر كانوا على منافسات مستمرة لامتلاك المنطقة التي تطلق عليها تسمية (الكولي ـ سيري)[١]، والتي تشمل تجويف سهل البقاع وغور الأردن في فلسطين، كما يتضح من مراحل المدّ والجزر بهذا الخصوص في مراحل مختلفة من الممتلكات السلوقية واللاجيدية حتى العام ١٨٠ق.م.

بدأت بعد ذلك المناطق الشرقية من الممتلكات السلوقية الانفصال، فاستقلت (باكتريان)[٢]، وهي المنطقة الواقعة إلى الشمال من أفغانستان، وذلك بعد وفاة انطيوخوس الثاني العام (٢٤٦ق.م.).

كما أن الاضطرابات العنيفة التي تلت وفاة الملك نفسه، جعلت بطليميوس الثاني يتقدم نحو مدينة (سلوقيا) على الدجلة. وفي (ميديا) من بلاد فارس ثار الحاكم (مولون)[٣] بين العامين (٢٢٢ ـ ٢٢٠ق.م.) عى انطيوخوس الثالث (٢٢٢ ـ ١٨٧ق.م.)، ولكن هذا الأخير تمكن من إخماد ثورته وأدى ذلك إلى انتحاره.

عمد انطيوخوس الثالث بعد ذلك إلى التوجه نحو الشرق من (٢١٢ ـ ٢٠٥ق.م.)، وقام بإعادة تنظيم المناطق وخلق «ساترابية» جديدة في منطقة البحر الأحمر.

بداية الحكم السلوقي في الهلال الخصيب

بدأت فترة الحكم السلوقي اعتباراً من نيسان ٣١١ ق.م

- سلوقس الأول .... (٣٠٥ ـ ٣٨١)
- أنطيوخوس الأول .... (٢٨٠ ـ ٢٦١)
- أنطيوخوس الثاني (كاليتوس) .... (٢٦٠ ـ ٢٤٦)
- سلوقس الثاني .... (٢٤٥ ـ ٢٢٦)
- سلوقس الثالث .... (٢٢٥ ـ ٢٢٣)
- أنطيوخوس الثالث .... (٢٢٢ ـ ١٨٧)

---

(١) (Cœle-Syrie) التسمية الأصلية اليونانية هي (Koilé-Suria)، أي سورية المجوفة، وهي المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال لبنان الغربية والشرقية يكملها غور الأردن.

(٢) (Bactriane) المنطقة الواقعة إلى الشمال من أفغانستان.

(٣) (Molon).

- سلوقس الرابع .... (١٨٦ ـ ١٧٥)
- أنطيوخوس الرابع (إيفان) .... (١٧٤ ـ ١٦٤)
- أنطيوخوس الخامس .... (١٦٣ ـ ١٦٢)
- ديميتريوس الأول .... (١٦٢ ـ ١٥١)
- إسكندر بالاس .... (١٥٠ ـ ١٤٦)
- ديميتريوس الثاني .... (١٤٥ ـ ١٤١)
- أنطيوخوس السابع .... (١٣٠ ـ ١٢٩)
- سلوقس الخامس (نيكاتور) .... (١٢٥ ـ ؟)
- سلوقس السادس (إيفان) .... (٩٦ ـ ٩٥)

ولكن اهتمام الملوك السلوقيين كان يضطرّهم إلى الانتباه إلى الغرب حيث ظهر الرومان اعتباراً من الأيام الأخيرة للقرن الثالث، ولذلك تابعت مناطق شرقية الانفصال. حاول أنطيوخوس الرابع (١٧٤ ـ ١٦٤ق.م.) إعادة احتلال أقسام المنطقة الشرقية المنفصلة في العام (١٦٥ق.م.) من دون نجاح. كما اتبع في بابل سياسة «الهلنستة» ورمّم المسرح اليوناني فيها. وحدثت في فترة حكمه حركة المكابيين في فلسطين[١].

أما الاضطرابات التي تلت وفاة أنطيوخوس الرابع، فكان لها أثر بالنسبة لبابل، إذْ أعلن الحاكم (تيمارك)[٢] تمرّده، ولكن الملك السلوقي (ديميتريوس الأول)[٣] (١٦٢ ـ ١٥١ق.م.) تمكّن من التغلب عليه. أمّا (سلوقيا) فقد سقطت في أيدي (البارتيين)[٤]، وعلى الرغم من محاولة أنطيوخوس السابع في العام (١٣٩ق.م.) استعادة الأقسام الشرقية فإن كامل البلاد البابلية تمّ احتلاله من قبل البارتيين في العام (١٤١ق.م.)، وأصبحت بابل منفصلة سياسياً عن العالم الغربي.

نستخلص مما سبق، أن فلسطين لم تكن في قلب الاهتمامات السلوقية إلا في ما يتعلق بالمنافسة مع البطالسة، إذْ عرفت في غزّة أول لقاء بين بطليموس الأول ملك

---

(١) سوف يرد تفصيل هذه الحركة في المقطع (ج) من الفقرة (١٣ ـ ٣).
(٢) (Timarque).
(٣) (Demétrios Ier).
(٤) (Les Parthes) انظر المقطع (ج) من الفقرة (١٣ ـ ٣) الحاشية (١).

مصر و(ديميتريوس) الأول ابن (آنتيجون) في العام ٣١٢ق.م. (انظر الفقرة ١٣ ـ ٢ أعلاه)، بالإضافة إلى الحركة المكابية التي سنعود إليها.

(١٣ ـ ٣) فلسطين الهلنستية:

تبدأ الفترة الهلنستية في كل من مصر والهلال الخصيب، بعد وفاة الاسكندر، وبالنسبة إلى هذين الإقليمين، أشرنا آنفاً إلى التنافس بينهما على الساحل الجنوبي للمتوسط، ولم يكن لفلسطين آنذاك أي دور في الأحداث السلوقية.

وبالعودة إلى الوراء يمكن القول إنه من الصعب تفسير مقاومة كل من صور وغزّة وحدهما جيش الاسكندر، بينما انفتحت أمامه جميع مدن الساحل الكنعاني.

كما نعلم أن الاضطرابات التي حدثت بعد وفاة أنطيوخوس الثاني السلوقي العام (٢٤٦ق.م.) جعلت بطليميوس الثاني يتقدم غازياً نحو مدينة (سلوقيا)، العاصمة الجديدة السلوقية على نهر الدجلة، قرب بغداد. وبالطبع شهدت فلسطين آنذاك مرور الجيوش المصرية لا أكثر.

السلوقيون المتمركزون في كلٍ من (أنطاكية) على العاصي و(سلوقيا) و(لاوديسّا) (موقع اللاذقية) و(أفاميا) كانت قوتهم تعتمد بشكل خاص على الإقليم السوري حيث الحركة الهلنستية[1] كانت متقدمة، وكذلك كان الأمر في عاصمة المملكة اللاجيدية في الاسكندرية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدداً من مسبيي بابل حين سمح لهم (كورش) بالعودة فضّلوا الانتقال من ضفاف الفرات والخابور إلى ضفاف النيل والدلتا.

كل تلك المرحلة، كانت تميّزها، قبل قيام المملكة السلوقية اللغة الآرامية، ويمكن القول إن اللغة العبرية، منذ بداية الحكم الفارسي قد بطل استعمالها أمام الآرامية التي استمر استعمالها بالتوازي مع اللغة اليونانية، من دون أن ننسى، أن فلسطين والساحل المتوسطي بشكل عام أمَّتهما بعد فتح الاسكندر جاليات يونانية ومقدونية، بالإضافة إلى الاتنيات المتعددة التي كانت متمركزة فيه من قبل. ولا ننسى كذلك، أنه منذ السبي الآشوري واحتلال مملكة السامرة من قبل سرجون الثاني العام (٧٠١ق.م.)

---

(١) يعني ذلك انتشار اللغة اليونانية والثقافة اليونانية حتى أن الفلاسفة والكتاب المحليين ألّفوا بها.

تم توزيع عدد كبير من سكان السامرة على أراضي الامبراطورية الآشورية، وحلّ محلهم سكان من إتنيات مختلفة. كما نقلت إليها العام (٧١٥ق.م.) قبائل عربية عدّدتها الفقرة (١١ ـ ٢) المقطع (د) من الفصل الحادي عشر من هذا العرض. تلا ذلك بالنسبة لمنطقة يهودا في الجنوب الفلسطيني سبي نفّذه نبوخذ نصر الثاني في العام (٥٨٧ق.م.).

أ ـ حول معبد القدس:

نتوقف الآن عند حكم أنطيوخوس الرابع إيبفان (١٧٤ ـ ١٦٤)، وقد أشرنا إلى أن التاريخ السلوقي، منذ العام (٣٠٥)، لم يسجّل حوادث تذكر بالنسبة لفلسطين. إلا أنه منذ العام (١٦٨ق.م.)، بعد أن كانت الثقافة الهلنستية ولغتها قد عرفتا تقدماً ملموساً في أنحاء المنطقة كافة، بدأت حركة مقاومة للحكم السلوقي في القدس[١] قادها كاهن أسموني هو (ماتاتياس مكّابي)[٢]، واعتماداً على المرويات التوراتية، يعتبر معظم البحاثة أن المقاومة كان سببها إقامة الإلٰه اليوناني (زيوس) في معبد القدس، وكان (زيوس) قد اعتبر معادلاً لإلٰه العواصف والأمطار (بعل) الكنعاني الذي كانت عبادته منتشرة على كامل الساحل الكنعاني، ما حدا بالكاهن (مكّابي) على اعتبار ذلك مخالفاً لمعتقده هو.

كما أن الدراسة المقدمة من قبل أحد باحثينا[٣]، والتي اعتمدت بكاملها على المرويات التوراتية من دون غيرها، بقيت بعيدة عن الحقيقة التاريخية وعن واقع ممارسات العبادة كما عرفتها منطقة الشرق الأدنى بكاملها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العبادة في فلسطين وبشكل خاص في القدس، لم تكن لتختلف عن العبادة في الكعبة قبل الإسلام، حيث كانت تماثيل آلهة القبائل كافة تتلقى عبادة مريديها. وكل القبائل، أي كل المعتقدات القبلية، كانت آلهتها «بصحة جيدة»، والحرب والتنافس بين القبائل لم يكن إلا لأسباب اقتصادية تتعلق بالدخل أو بالثأر، ولا علاقة لها بالمعتقد الديني. وهكذا كان معبد القدس منذ أن أقيم في تلك المدينة.

ويمكننا القول إن أفضل بحث قرأناه عن معبد القدس، هو الذي قدّمه باللغة

---

(١) أي (أوروسالم)، وسوف نتبنى تسهيلاً متابعة تسمية القدس.

(٢) (Matathias Maccabée).

(٣) وهو يواكيم مبارك في بحثه المخصص للقدس في كتاب: Jerusalem: Le Sacré et le Politique, Editions Sindbad (Acte Sud): Octobre 2000.

الفرنسية أحد الباحثين المصريين وهو ثروت أنيس الأسيوطي، في كتاب من جزءين عن المسيحية البدئية والإسلام الأول[١]، نلخّص في ما يلي ما أورده هذا الباحث تحت عنوان معبد القدس، ومن أهم ما ورد في عرضه هو:

- أن معبد (أورسالم) كان منذ بداية الألف الثاني ق.م، وقبل تسرُّب العبريين إلى فلسطين معبداً، أقيم في مدينة اشتقّت تسميتها من اسم الإله العربي (سالم)، وهو الإله الذي ورد اسمه مع الإله سَحَر في النصوص الميثولوجية الأوغاريتية (نسبة إلى رأس ـ شمرا أوغاريت)[٢] التي تروي قصة ولادة الإلهين (سحر وسالم) وهما نجم السحر ونجم المساء. والأسيوطي يفسّر (أور ـ سالم) بمعنى «جمْر أو أوار ـ السلام»، ولن ندخل هنا في تحليل لغوي آخر. وهذه التسمية للمدينة هي قديمة بدلالة ذكرها في وثائق فرعونية تعود إلى القرن التاسع عشر ق.م، وفي مراسلات تل العمارنة التي قدمت إلينا ما كتبه ملك أورسالم في القرن الرابع عشر متوجهاً إلى الفرعون المصري[٣].
- كان معبد القدس، منذ تأسيسه يضم عبادة الإله (إيل) الإله العليّ الكنعاني، و(بعل) إله الأمطار والعواصف، يضاف إليهما عبادة عشيرة وتموز البابلي. وبعد تسرّبهم إلى كنعان كان العبريون يوجهون عبادتهم في الوقت نفسه إلى إلههم وإلى الآلهة الكنعانية الحاضرة في المعبد، ودام هذا الحال حتى السبي.
- بعد العودة من السبي، استمر تقديم الأضاحي إلى (إيل)، الإله العلي وإلى (بعل)، إله الأمطار والعواصف وإله الخصب (الخضر) وإلى (يهوه) إله يهودا، كما كانت تُوجَّهُ فيه صلوات لصالح ملوك الفرس.
- من المفيد التوضيح أن إعادة بناء المعبد بعد العودة من السبي تمّت بواسطة اعتمادات مالية، قدّمها الملك الفارسي على اعتبار أن البناء هو مكان العبادة لجميع الأمم.
- لم يتغير الحال أثناء السيطرة اليونانية السلوقية، حيث استمر وجود آلهة عدّة في

---

(١) Recherches Comparées sur le Christianisme primitif et l'Islam premier Editions le touzey et Ané 1987 (PP 98-100).

(٢) تعود النصوص إلى القرن الرابع عشر ق.م.

(٣) انظر الفصل السابع الفقرة (٧ ـ ٢).

المعبد ومن بينها (زيوس الأولمبي) الذي اعْتُبر مماثلاً لبعل الشمم (جمع شما)، أي بعل السموات. وهنا أيضاً نجد الملوك الحاكمين آنذاك يرسلون تقدماتهم إلى المعبد وخصوصاً الاسكندر الكبير وبطليموس الثالث وأنطيوخوس الثالث الكبير وأنطيوخوس السابع.

كل ذلك يعني باختصار أن معبد القدس بقي خلال ٢٠٠٠ سنة معبداً متعدد العبادات. وهنا يدخل الأسيوطي في محاولة تفسير سبب المحاولات للتفرد باستثمار مثل هذين البيتين، الكعبة ومعبد القدس، موضحاً أن بيت الكعبة كان قبل الإسلام هدفاً لمطامع القبائل للانفراد باستثمار دخله مع فارق ذي أهمية وهو عدم طرد بقية الأصنام منه، لأن وجودها هو الذي يؤمن الدخل. يتماثل هذا الوضع مع ما عرفه معبد القدس بغية الانفراد بدخل معبد القدس الذي كان يتمثل بمجموعة لحوم التقدمات (الأضاحي) وأموال النذور وهبات الملوك أو الخاصة الأغنياء، والضريبة على الدخل، وتقديم بواكير ولادات القطيع، وبشكل خاص ضريبة كان يتوجب على الغني والفقير دفعها ثمناً لإدارة المعبد.

ب ـ التيوقراطية السياسية باسم الإصلاح الديني:

ننتقل الآن إلى حكم «المصلح الديني» التوراتي، الملك جوزياس، وهو الذي نقلت إلينا عنه المرويات بأنه طرد من معبد القدس طقوس الإله (بعل)، وقدّم إلى الشعب ضمن حملة إعلامية واسعة ودعاية مدروسة كتاباً «قديماً»[1] لتعاليم الشريعَة، إدعى، هو وكاهنه الأكبر، أنه عُثِر عليه أثناء صيانة المعبد، والكتاب الذي اعتبر كعهدٍ متجدِّد بين يهوه وشعبه، وعَدَ الملك أمام الشعب باحترامه، وطالب الشعب باحترامه أيضاً، هذا الكتاب كان بالطبع من نتاج حركة دينية «تجديدية» كانت مسؤولة عن تأليف الكتب الرئيسية الأولى التي تبلورت في ما بعد، والتي تضمنت الإيديولوجية القومية اليهوية كما عمد جوزياس إلى نشرها اعتباراً من العام ٦٢٢ ق.م، وهي التي أدّت متابعة تطويرها إلى المرويات التوراتية التأسيسية كما نعرفها اليوم. إذ بدأت من هنا قصة ابتداع

(١) لا يمكن تصديق «صفة القدم» بالنسبة للوثيقة التي ادُّعِيَ اكتشافها على اعتبار أن مملكة يهودا في زمن جوزياس لم تكن إلا في بداية تعلمها الكتابة، ولم يقم أي باحث بالتساؤل عن الحامل الذي سجل عليه «الكتاب القديم» المكتَشف؟.

الإيديولوجية السياسية التي اختلقَتْ من العدم قصة «الوعد» والاستيلاء على أرض كنعان، وقصة المملكة الموحّدة وجَعَلت الشعب يصدقها. ويمكننا القول إن جوزياس، هو بدوره صدّقها، حين اعتبر نفسه قادراً على أن يوقف فرعون مصر (نيكاو) عن التقدم نحو كركميش لمحاربة البابليين، لأن يهوه معه وسيحارب إلى جانبه، ولكنه قُتِل في أول لقاء مع الجيش المصري.

ج ـ السلوقيون والحركة المكّابية:

نعود الآن إلى المرحلة السلوقية، وبشكل خاص إلى فترة حكم أنطيوخوس الثالث (٢٢٢ ـ ١٨٧ق.م.)، وقد أشرنا آنفاً إلى أن إدخال تمثال الإله زيوس الأولمپي إلى معبد القدس (المقطع أ) أعلاه، صادَفَ الفترة التي أراد معها الكاهن (ماتاتياس مكّابي) التفرد بجعل معبد القدس ليهوه وحده من دون غيره.

وقد عَرفت منطقة يهودا الضيقة في تلك الفترة السلوقية أوج محاولة «هلنستها»، وكان كبار الكهنة يشجعون المحاولة، ما كان يثير غضب الفريسيين المتعصّبين. وبدأت الخلافات تتصاعد بين أفراد تلك الملّة الصغيرة، مع الإشارة إلى أن ذلك رافق محاولات المملكة السلوقية صدّ هجمات (البارتيين)[1] في الشرق، ما أدّى إلى إضعافها وانشغالها بما هو أهمّ، يضاف إلى ذلك أنّ أحد كبار الكهنة من مشجعي الحركة الهلنستية وافق على بناء قاعة رياضية على الطريقة (الإغريقية) على جبل القدس وعمد إلى إلغاء إقامة الطقوس في المعبد، فتزايدت الخلافات. تلا ذلك محاولة أنطيوخوس الرابع إيپفان (١٧٥ ـ ١٦٣ق.م.) فرض «الهلنسة» بالقوة، وهو الذي اتهمته المرويات التوراتية بتبديد أموال المعبد لأنه كان بحاجة إلى المال (؟).

وقد عارضه الآسّيديون والمكابيون، ما سَاعَدَ ذلك على استمرار إضعاف السلطة المركزية بسبب حرب البارتيين وطالبوه بتركهم يعيشون بحسب عاداتهم، فحصلوا على استجابة جزئية في ما يتعلق بالضريبة، بسبب تقديم هدايا ثمينة إلى الملك السلوقي، وهذا ما تدّعيه المرويات المكابية في الكتابين الأول والثاني.

---

(١) (Parthes) شعب سيتي انصهر في إيران، ومهده هو المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين (خراسان).

أما المكابيون، فهم عائلة كهنة لاويين حاولوا في تلك الفترة «فرض تطبيق الشرع التوراتي بالقوة، وكانوا يغتالون ويعدمون المخالفين لآرائهم» (الأسيوطي المصدر السابق نفسه، ص٩٨).

د ـ استمرار تفكك الممتلكات السلوقية:

أشرنا إلى الخطر الشرقي (البارتي)[١] الذي شغل الحكم السلوقي واضطره إلى الدفاع عن ممتلكاته، وقد بدأت المملكة البارتية بالتوسع على حساب الامبراطورية السلوقية في الشرق.

ثمّ بين العامين ١٢٩ و٦٤ق.م. بَلَغ التفكك مناطق أخرى، حيث تمكن العرب النبطيون من احتلال سورية المجوفة[٢]، وأعلن (أريتاس)[٣] العربي نفسه ملكاً على دمشق.

في تلك الفترة كان جان هيركان[٤] قد حقق في القدس في العام (١٠٩ق.م.) بعض الانتصار على السلوقيين، وساد الاعتقاد بين اليهود في ذلك الوقت بأن جان هيركان هو «المخلص المنتظر» لأنه كاهن من اللاويين، وأُطلِقت الدعاية بأن «المخلّص» يجب أن يكون كاهناً قبل أن يصبح نبياً وملكاً. وذلك لدعم الدعاية حول مزايا اللاويين.

إلا أن الأمل بالمنقذ بدأ يضمحل، لأن الذين خلفوا هيركان أعلنوا أنفسهم ملوكاً من دون انتظار «الخلاص»، وبهذا الصدد يتابع الأسيوطي تقديم التفاصيل التالية (ص٨٩):

● «يُسبّب الملوك الأسمونيون وهم المكابيون استفحال فترة الانحلال التي أطلقتها الحركة المكّابية فيبددون أموال المعبد ويحاول الشعب طردهم ولكنهم يعودون بقوة

---

(١) البارتيون: تمّ التعريف بهم في المقطع السابق (ج).

(٢) أي (Koilé-Suria) باليونانية ومعناها سورية المجوفة وهي التسمية القديمة التي أعطيت للمنطقة الواقعة بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية (أي البقاع)، يكملها غور الأردن، واسمها باللاتينية (Cœlé-Syrie).

(٣) (Aritas).

(٤) هيركان: كاهن لاوي خلف والده سيمون المكابي (١٣٤ ـ ١٠٤ق.م.).

السلاح (تاسيت)[١]. و(ألكسندر جاني)[٢]، الملك الأسموني (١٠٣ ـ ٧٦ق.م.)، كان يجابه بعنف ثورة يهودية ضدّه، معتمداً على فرقته من المرتزقة، فيذبح النساء ويصلب السجناء ويجبر اليهودي المعارض على مغادرة يهودا. هكذا كان يجرؤ الملوك الأسمونيون على ارتكاب كل ما يجرؤ عليه عنف الملوك كتهجير الناس وتدمير المدن بالإضافة إلى قتل الأخوة والزوجات والأهل، كما كان هؤلاء الملوك يستثمرون مركزهم الديني (الطقوسي) لترسيخ سلطتهم، ومنهم من ضَرَبَ عملة باسمه لم تجد لها تداولاً[٣].

في تلك الفترة أيضاً وصل الانحلال الخلقي الذي مارسه الكهنة أوجه، إذْ كانوا يسرقون لحوم الأضاحي ويتقاسمونها مع المومسات. وبدأوا يتلقون المال لتعليم التوراة، كما أخذوا بإغراء النساء المتزوجات وفضّ بكارة العذارى واتخذوا لأنفسهم زوجات من «الأجنبيات»، أي غير اليهوديات، وكانوا يستولون على الأرزاق ويعبدون الآلهة التي يمقتها (يهوه)، كما كانوا يتهاوون في اللواطية بكل حيوانية، وانتشر بفضلهم الجنس الحرام مثل علاقة الابن مع أمه والأب مع ابنته، وكل رجل كان يشتهي امرأة الآخر (الأسيوطي ص٩٠).

هكذا أدت المعارك الأخوية بين الأسمونيين إلى زوالهم، وهكذا انطفأ حلم «المنقذ» من بيت لاوي. بذلك يُنهي الأسيوطي عرضه للفترة المكابية، معتمداً على وثائق موازية لم ترد في التوراة وهي «عهد لاوي» و«مزمار سليمان الثامن» والمؤرخ اليهودي جوزيف[٤] والإضافات إلى عهد يهوذا.

بعد هذا العرض التاريخي المفجع من الصعب القول إن العودة بعد السبي إلى ما كان يسمى مملكة يهودا يمكن اعتباره من الفترات التي يمكن الدفاع عنها توراتياً من دون تقديم مبرّرات ستكون حتماً غير مقنعة، أو بإخفاء الحقائق بقصد اعتبار أن تلك الفترة كانت مجيدة بالنسبة لكتبة التوراة.

---

(١) (Tacite) مؤرخ لاتيني ولد في روما حوالى العام ٥٥م.

(٢) (Alexandre Janée).

(٣) إذ عثر في مغاور قمران في القرن الأول ق.م على عملة سلوقية ورومانية ولم يعثر على عملة يهودية.

(٤) (Flavius Josephe) مؤرخ يهودي (٣٧ ـ ١٠٠) ميلادية، اشتهر بمؤلفه: (Les Antiquités Judaïques).

يمكننا إذن بعد هذا العرض الدخول في المرحلة الرومانية من تاريخ فلسطين، التي عرفت بداية الديانة المسيحية.

واعتباراً من تلك الفترة التي عرضنا، وشذوذها من كل النواحي، يمكن فهم الآسينيين[١] وهجرهم المعبد ومدينة المعبد والتمركز في قمران لممارسة عبادة خاصة بهم بعيدة عن كل ما ورد أعلاه.

(١٣ ـ ٤) انتشار الثقافة الهلنستية في المنطقة:

منذ ما قبل الاسكندر، كانت عناصر عديدة من الثقافة اليونانية، قد انتقلت من قبل جيوش الامبراطورية الفارسية والتجارة والفنون التي تمكنت من الولوج بقوة في أنحاء الامبراطورية كافة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الحكام الهلنستيين، بعد زوال امبراطورية فارس، نشروا بحماسة ثقافتهم. تَمَّت آنذاك معادلة الآلهة المحلية مع الآلهة اليونانية، وكما عرضنا آنفاً فإن الإله «بعل السموات» أصبح معادلاً للإله زيوس وعشتار (عشتروت) وهي أفروديت... أما في فلسطين وبصورة عامة على الساحل الكنعاني فإن الحكام السلوقيين من محبّي «العمران» قاموا بإعادة بناء المدن القديمة وفق أسلوب جديد، وأُعطيت لها أسماء جديدة، فأصبحت مدينة رامات عمّان (فيلاديلفيا)، وعكا (بتوليمايوس)، كما أصبحت بيت شان/ بيسان (سيتوپوليس)[٢]، وبُنيت أفاميا[٣] إلى الشرق من العاصي، و(لأوديتي)[٤] على الساحل السوري وهي اليوم اللاذقية، وكذلك (سلوقيا)[٥] على مصب العاصي، ولا ننس طبعاً أنطاكية مقر الملوك السلوقيين.

في تلك الفترة أيضاً، أخذ المثقفون يجتمعون في الملاعب الرياضية أو في ميادين سباق المركبات ويهتمون بالأمور الفلسفية وبالثقافة بصورة عامة.

في فلسطين، عرفت منطقتُها الجنوبية انقساماً بين فريقين من الأقلية اليهودية في

---

(١) (Esséneens).
(٢) (Sytopolis).
(٣) (Apamée).
(٤) (Laodicée).
(٥) (Séleucie).

القدس: فريق أول تبنى الثقافة الجديدة وكان يضم الأغلبية وهم المنفتحون الذين يشكّلون النخبة المتعلمة. أما الفريق الثاني، فهو فريق المحافظين الذين كانوا يرفضون بتعصّب كلّ تأثير يوناني، مع أن الاسكندرية لم تعرف مثل هذا الانغلاق حيث تُرجمت إلى اليونانية الكتب المقدسة اليهودية على الرغم من تحسّر المحافظين على ولوج كتبهم عالم (الغوييم)[١] من غير اليهود.

---

(١) (Goïm) أو (Goyim)، وهي التسمية التي أطلقها العبريون القدماء على الشعوب غير اليهودية.

الفصل الرابع عشر

(١٤) فلسطين والعهد الروماني

(١٤ ـ ١) استمرار تفكك الامبراطورية السلوقية وتدخل روما

(١٤ ـ ٢) مساعي هيرود في روما

(١٤ ـ ٣) بعد وفاة هيرود

(١٤ ـ ٤) ما تلا هدم المعبد وتطورات الامبراطورية الرومانية

(١٤ ـ ٥) زوال الحكمين الروماني والساساني أمام الفتح العربي

(١٤) فلسطين والعهد الروماني

(١٤ ـ ١) استمرار تفكّك الامبراطورية السلوقية وتدخل روما:

تعرفنا آنفاً إلى الأحداث والاضطرابات التي رافقت بداية تفكّك الامبراطورية السلوقية، التي أدّى استفحالها إلى التدخل الروماني.

فقد كان مرد حقد روما على السلوقيين، بالإضافة إلى فكرة التوسع وبناء الامبراطورية الرومانية، تقديم أنطيوخوس الثالث (٢٢٢ ـ ١٨٧ق.م.) الملجأ لهافي بعل العدو الأكبر لروما، بعد انكساره في موقع (زاما)[١] من (نوميديا)[٢]، من قبل الروماني (سيبيون)[٣] الملقب بالأفريقي في العام (٢٠٢ق.م.).

توفي أنطيوخوس الثالث، وهو في طريقه إلى ما بين النهرين بقصد نهب كنوز المعابد القديمة للتمكن من تسديد الجزية الثقيلة التي فرضتها عليه روما. كما أن سلوقس الرابع (١٨٦ ـ ١٧٥ق.م.) عرف المعاملة نفسها من قبل الرومان وتمّ الحجر على أحد أبنائه (أنطيوخوس) في روما، كرهينة لمدة أربع عشرة سنة، ثم أمضى بعض الوقت في أثينا قبل أن يعود إلى تسلّم العرش بعد وفاة والده، متخذاً لقب أنطيوخوس الرابع إيبفان (١٧٤ ـ ١٦٤ق.م.) وهو الذي تمكن من تحقيق انتصارات على بطالسة

---

(١) (Zama) موقع في نوميديا.

(٢) بلد في أفريقيا الشمالية بين قرطاجة وموريتانيا.

(٣) (Scipion) (٢٣٥ ـ ١٨٣) هو الذي انتصر على هاني بعل.

مصر، وكاد يضم مملكتهم إلى مملكته، ولكنه أُخرِجَ من مصر، هو وجيشه من قبل القنصل الروماني (پوپيليوس لايناس)[١]. وتدّعي المرويات التوراتية، أنه عاد إلى فلسطين ووجه غضبه على القدس، ما يدل ذلك على النفوذ الروماني الذي كان فاعلاً من جهتي الممر الفلسطيني.

لخصنا آنفاً بداية الحركة المكابية مع (جان هيركان) ومعارضة المكابيين للسلوقيين، ولا بد من التذكير أن هؤلاء الكهنة المدافعين عن «معبد القدس» لم يدعم حركتهم سوى قسم ضئيل من أهالي القدس اليهود وهم البسطاء المتعصبون للشريعة. أما الطبقات المتعلمة والكثير من العائلات المكلّفة بإقامة الطقوس فكانت بالعكس تستقبل بانفتاح الثقافة الهلنستية الجديدة ومعها الحكام السلوقيون، ما يدلّ على انعزال المعارضين المكابيين مع العلم أنهم كانوا يعتمدون في معارضتهم على المرتزقة «الأجانب»، كما كان الحال مع جان هيركان[٢] ما أدى ذلك إلى تكتّل الفريسيين[٣] ضدّه، وزادت معارضتهم أثناء حكم شقيقه (أريستوبول) الأول[٤] (١٠٤ ـ ١٠٣ق.م.)، الذي وجّه المرتزقة ضد يهود طائفته وأعدم الكثيرين منهم.

خَلفَه شقيقه (الكسندر جاني)[٥] (١٠٣ ـ ٧٦ق.م.) وهو أيضاً اعتمد على المرتزقة وحَصَدَ حقد الفريسيين وكراهيتهم لأنه استعمل أيضاً مرتزقة ضد اليهود أنفسهم، وبعد وفاته عهدت أرملته (الكسندرا) (٧٦ ـ ٦٧ق.م.) بابنها (هيركان) إلى كبير الكهنة الفريسيين بقصد إشراكهم في الحكم ولإعداد ابنها لدور يناسب الكهنة. حكم ابنها الآخر بعد وفاة والدته وهو (أريستوبول الثاني) (٧٦ ـ ٦٣ق.م.)، ودخل أخوه الأكبر (هيركان) في صراع معه، وكان الصدوقيون وهم خصوم الفريسيين التقليديين يقفون إلى جانب (أريستوبول) الثاني.

بناء على نصيحة (آنتيپاتر)، والد هيرود[٦]، طلب (هيركان) نَجْدَة النبطيين الذين كانوا جمعوا في البتراء جيشاً له أهميته وأتوا فعلاً لمساعدته.

---

(١) (Popilius Laenas) القنصل الروماني الذي منع أنطيوخوس الرابع من احتلال مصر.

(٢) (Jean Hyrcan) الكاهن المكابي الذي خلف والده سيمون العام ١٣٥ ق.م

(٣) (Pharisiens) مجموعة كهنة متزمتين في تطبيق شريعة موسى بحرفيتها.

(٤) (Aristobule).

(٥) (Alexandre Janée).

(٦) (Hérode) سوف يكون له دوره في ما بعد.

وبينما كان أريستوبول الثاني يحارب ضد هيركان والفريسيين تساعده النجدة النبطية، انتشر خبر أن پومپيوس[١] الجنرال الروماني في سورية، قام بضمّ (يهودا)، وهي آخر ما بقي للحكم السلوقي، إلى الامبراطورية. تمّ ذلك في العام ٦٤ق.م. بغية إيقاف جميع المشاكل والاضطرابات والحروب الطائفية التي ما فتأت تتزايد في المنطقة.

ما تلا عملية الضمّ هذه، جدير بإعطاء فكرة عن حالة الفوضى والتفكك في (يهودا) آنذاك، إذْ تشكّلت ثلاث بعثات من (يهودا)، ذهبت لتقديم خضوعها واحترامها إلى القائد الروماني (پومپيوس):

- البعثة الأولى، قادها أريستوبول وحلفاؤه الصدوقيون وطلبوا من القائد الروماني التدخل.
- البعثة الثانية قادها الإيدومي (آنتيپاتر) وطلب من (پومپيوس) مساعدته من أجل هيركان الثاني ومعه الفريسيون.
- البعثة الثالثة تشكلت من الأفراد العاديين وقدمت رجاءها إلى القائد الروماني، وبكل بساطة، أن يخلص البلد من حكم الأسمونيين (المكابيين) الذين لم يجلبوا إلا الفوضى والدمار.

يدلّ ذلك على مدى انهيار سمعة المكابيين وانحطاط حكمهم، ويدلّ أيضاً، وهذا أمر له أهميته، على أن من يريد الحصول على سلطة ما أو المحافظة عليها في منطقته، يجب عليه أن يضمن دعم روما له.

اقتحم إذن القائد الروماني (پومپيوس) القدس في العام ٦٣ق.م. وهَدَمَ أسوارها ولكنه حافظ على المعبد[٢] بحسب ما كتبه كل من تيت ـ ليڤ[٣] وسترابون[٤]، وحصر اليهود في منطقة ضيقة من يهودا.

اعترف القائد (پومپيوس) (بهيركان) الثاني ككبير للكهنة (٦٣ ـ ٤٠ق.م.) إلا أنه

---

(١) (Pompée).

(٢) لدينا هنا أيضاً دلالة على أن المعبد في القدس كان لعبادة جميع الأمم ولم يكن لليهود وحدهم.

(٣) (Tite-Live) مؤرخ لاتيني ولد في إيطاليا (پادو) (حوالى ٦٠ ق.م ـ ١٧م) ألّف كتاب تاريخ روما منذ البداية حتى ٩ ق.م.

(٤) (Strabon) مؤرخ وجغرافي يوناني من الكاپادوي (حوالى ٥٨ق.م ـ ٢١م).

قلّص مجال عمله ولم يعد له الحق بإطلاق رتبة ملك على نفسه، وأصبحت فلسطين في تلك الفترة مؤلفة من السامرة و(پيري)[١] في شرقي الأردن، والجليل، بالإضافة إلى (يهودا) التي أُخضعت إلى مراقبة دقيقة من قبل (سكوروس) قائد القطاع السوري.

في العام ٤٧ ق.م عيّن قيصر روما الإيدومي (أنتيپاتر) حاكماً على فلسطين، وكلّف هذا الأخير ابنه (فزاإيل)[٢] بإدارة القدس، كما كلّف ابنه الآخر (هيرود) بإدارة الجليل.

(١٤ ـ ٢) مساعي هيرود في روما:

في العام ٤٠ق.م. ، قام البارتيون، وهم أشدّ أعداء روما في الشرق، باحتلال سورية وفلسطين، وسمّوا مكانه (آنتيغون)[٢] (٤٠ ـ ٣٧) وهو ابن (أريستوبول) عدوّ هيركان.

أما هيرود، الذي كان مكلّفاً من قبل والده (آنتيپاتر) بإدارة الجليل، فدلَّ منذ ذلك الوقت على حِنكةٍ ورثها عن والده حين أبحر إلى روما ونجح في إقناع (أنطوان)[٣] و(أوكتاف)[٤] بحقّه في الحكم في فلسطين، ووعد روما بأنه سوف يحقق في فلسطين الولاء لها، ويدعم محاربة أعداءها البارتيين.

في العام ٤٠ ق.م قَبِلَ مجلس الشيوخ الروماني بناء على إلحاح (أنطوان) نفسه، تسمية (هيرود) ملكاً على فلسطين شرط تنفيذ وعوده لأنطوان. ولا بد بهذه المناسبة من الإيضاح بأن (هيرود)، كأبيه هو إيدومي عربي، ولم يكن يهودياً. وبالإضافة إلى ذلك فإن أمه كانت هي أيضاً عربية، ونذكّر بأن والده (أنتيپاتر) هو الذي نصح (هيركان) الثاني بطلب نجدة الجيش النبطي.

بالإضافة إلى كونه إيدومياً، كانت ثقافة (هيرود) هلّنستية، وقد قام بتشييد العديد

---

(١) (Perée) شريط من شرقي الأردن موازٍ للنهر يمتد من نهر أرنون باتجاه الشمال بطول ١٠٠كلم وعرض ٢٠كلم تقريباً.

(٢) (Phasa ël).

(٣) (Antigone).

(٤) (Antoine).

(٥) (octave).

(٤)و(٥) (Antoine) و(Octave) كلفا عام ٤٣ مع ثالثهم (ليبد) بإعادة تنظيم الدولة خلال ٥ سنوات.

من الأبنية الرسمية، وجمّل مدناً عديدة، وزودها بمعابد فخمة، كما رمّم معبد القدس، وبنى لنفسه قصراً جمع بين الضخامة والفخامة، أمَّهُ عدد من العلماء اليونان ومن بينهم المؤرخ الدمشقي (نيقولا) الذي كتب بأن «كل شيء عند هيرود، كان يونانياً حتى أن العملة التي ضربها كانت تحمل كتابة يونانية دون غيرها».

عمد هيرود إلى نقل الحضارة اليونانية إلى جميع سكان فلسطين، وجرّهم تدريجاً إلى الهلنسة والثقافة اليونانية ـ الرومانية، وذلك بإبراز مظاهرها الفخمة، وبالطبع فإنه «لم يلقَ من قبل يهود القدس القلائل إلا الحقد والعناد المنغلق والمتَعَصّب» (الأسيوطي ص٩١)[١].

أ ـ شخصيّة هيرود ومساره:

بغية التعرف إلى شخصية هيرود بشكل أكمل، نذكُر بأنه، منذ أن تمَّت تسميته ملكاً في العام ٤٠ق.م.، كانت مملكته، لا يزال البارتيّون يسيطرون عليها وهم الذين كانوا قد احتلوا سورية وفلسطين. وكان على هيرود إذن الاستحصال عملياً على مملكته بعد زيارته لصديقه أنطوان في روما. عندما شنّ أنطوان حملته ضد البارتيين استفاد هيرود من وجود الجنود الرومانيين لاحتلال (يهودا) والقدس وتخلص فيهما من خصومه، وخلال حكمه الفعلي من العام (٣٧ ـ ٤ق.م.)، كان هيرود يبذل كل دبلوماسيته للمحافظة على ثقة أنطوان من جهة، ومن جهة أخرى، كان عليه أن يقاوم مناورات (كليوباترا) عشيقة أنطوان التي كانت تطمح للحصول منه على الحكم الثلاثي: (مصر ـ سورية ـ فلسطين)، كما كان الحال في زمن البطالسة الأول. لكن أمل كليوباترا ضاع عندما كَسَرَ (أوكتاف) أنطوان في معركة (آكتيوم)[٢] العام (٣١ق.م.)، وهذا هو هيرود يتخلى عن أنطوان ويقدم ولاءه (لأوكتاف) المنتصر. ويعرف الجميع قصة نهاية كليوباترا وأنطوان وانتحارهما.

في العام (٢٧ق.م.) أصبح أوكتاف في روما «سيباستوس»[٣]، ويعني هذا التعبير

---

(١) المصدر نفسه المشار إليه آنفاً.

(٢) (Actium) موقع في البحر الايوني، وفيه نشبت المعركة البحرية بين أسطول كليوباترا وأسطول أوكتاف التي انتهت بانتصار أوكتاف واستسلام أنطوان.

(٣) (Sebastos).

اليوناني: «الرفيع الذي هو فوق البشر والإلٰهي»، يدلّ ذلك على أن روما هي أيضاً اعتمدت الهلنستية.

ب ـ مشاريع هيرود العمرانية:

اتضحت شخصية هيرود عبر الفقرات أعلاه ولكنه لم يكن فقط دبلوماسياً محنكاً وواقعياً، بل عَمَدَ خلال سنيّ حكمه من (٣٧ ـ ٤ق.م.) إلى تشجيع الزراعة والتجارة والصناعة، كما زوّد الشاطئ بمرفأ جديد جيّد الاستقبال أطلق عليه تسمية (سيباست)[١]، كما أغنى الشاطئ بمدينة جديدة سماها (قيصرية)[٢]، وأصبحت في تطورها العاصمة الفعلية عوضاً عن القدس التي لم يكن موقعها المعزول يسمح لها بأن تكون عاصمة تتمتع بالتسهيلات التي يجب أن تتوافر في عاصمةٍ بالنسبة لسهولة المواصلات منها وإليها وإمكانيات التوسع... إلخ... كما أن مدينة القيصرية أصبحت مقراً للمسؤولين الرومان عند وجودهم في المنطقة وسكنها عدد كبير من السوريين.

قام هيرود أيضاً ببناء مدينة جديدة على هضبة السامرة وسماها هي أيضاً (سيباست)، تقرباً من الامبراطور الروماني الملقب (بالسيباستوس)، كما أوضحنا آنفاً (أي الإلٰهي). وعلى (أكروبول) تلك المدينة، أي الحي المرتفع فيها، أقام هيرود معبداً مخصصاً لطبيعة الامبراطور الإلٰهية، كل ذلك اعترافاً من هيرود بفضل رُوما على وجوده على رأس السلطة.

ج ـ هيرود دخيل على تاريخ «بني إسرائيل»:

إذا ما تصفّحنا قاموس (لاروس) مثلاً، نقرأ فيه أن هيرود هو ملك اليهود، عوضاً عن القول إنه ملك على فلسطين عيّنه الرومان! أما المؤرخون والمؤلفون المدافعون عن «نقاوة مملكة يهودا» منذ داود وعلاقته بإلٰه إسرائيل (يهوه) فهم يعتبرون هيرود دخيلاً على تاريخ «بني إسرائيل»، وهذا صحيح، ونقدم في ما يلي ما كتبه مؤلّف ما سُمّي بـ«الأطلس التوراتي للجميع»، الصادر عن دار نشر (سيكويا)[٣]، باريس ـ بروكسل العام ١٩٦٣. يقول المؤلف:

---

(١) (Sebaste) نسبة إلى لقب القيصر الإلٰهي.

(٢) (Césarée) الواقعة على الشاطئ في السامرة إلى الجنوب من دور ومقابل ماجدّو.

(٣) (Editions Séquoya).

«إن هيرود كان مكروهاً من قبل تابعيه وخصوصاً من قبل الذين لا يقسمون إلا بالتقاليد القديمة (أي اليهود)، ليس فقط لأنه كان يقتطع ضرائب كثيرة يستلزمها بذخه ولكن على اعتبار أن هيرود، لم يكن يهودياً حقيقياً لأنه قدم من (إيدوم) من فرع الإيدوميين التي أصبحت تسميتهم وكأنها مرادفة لأعداء قاتلين للإله (أي يهوه إله إسرائيل)...

وهذا الدخيل، يتابع التقديم، كان يحكم باسم الرومان، ومنهم كان يستمدّ سلطَتَهُ، ولم يحافظ على تلك السلطة إلا بالاعتماد على مرتزقة، هم من الرعاع غير المختتنين (ص١٥١)».

ومنذ توليه السلطة، يتهم مؤلف الأطلس المشار إليه أعلاه، هيرود بأنه تجرأ على التدخل في تسمية كبار الكهنة من أشخاص غير جديرين بالاحترام، ويقوم بعزلهم أو تصفيتهم إذا ما لزم الأمر، دونما تردّد، إذا كان ذلك يخدم سياسته. ولكنّه في الوقت نفسه أراد أن يستجلبَ إليه الأتقياء الذين يعتبرون أن هيرود، لم يقم فقط ببناء جدار إحاطة رائع حول المغارة حيث دفن (أبراهام في حبرون)، أي إبراهيم الخليل، ولكنه قام أيضاً بتجديد معبد القدس وتوسيع مساحته بتزويده بساحة كبيرة تثير الإعجاب حتى اليوم.

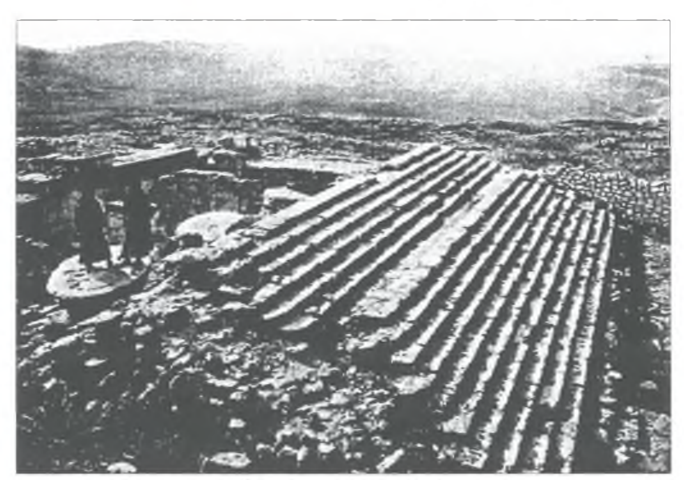
وقد أقام هيرود قصراً يُشرف على الساحة هو (أنطونيا)[١] تقرباً من صديقه الروماني (أنطوان).

ويضيف المعلق، ولا نرى ما يبرر حشر كل ذلك في أطلسٍ نُشر في العام ١٩٦٣، ولا ندري عمن يدافع:

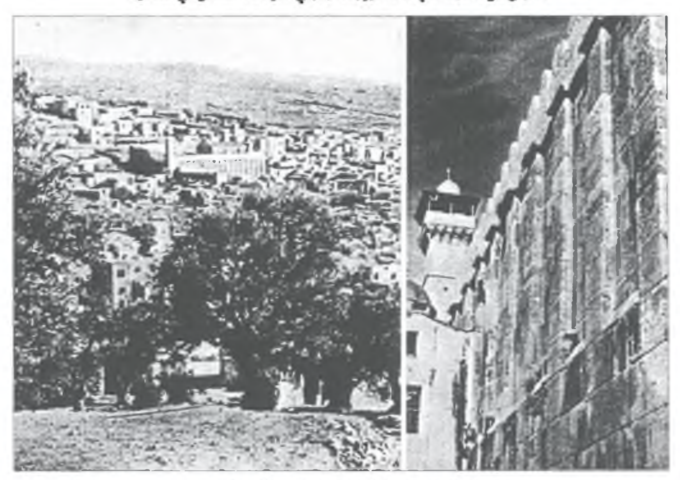
«كان هيرود ذا طبيعة شكّاكة، لا تنقصها الغيرة، وكان يعرف كراهية الناس له (وهم اليهود المتعصّبون) حتى أنه بنى لنفسه خارج القدس قلاعاً ورمم قلاعاً أخرى وخصوصاً في مناطق صعبة المنال منها ما هو في محيط البحر الميت وهي: مسعدة وماكيرونت وهيركانيوم، وأضاف إليها قلعتين جديدتين إحداهما (الهيروديوم) حيث دفن، وزائر الأماكن المقدسة اليوم،

---

(١) (Antonia).



ما تبقى من المعبد الذي أقامه هيرود الأيدومي تكريماً لأغسطس في السامرة



قبر إبراهيم في الخليل وجدار التحويط عن قرب

حين يزور بيت لحم حيث ولد المسيح الراعي الطيب، يمكنه أن يرى بعيداً في ما وراء المدينة قبر هيرود المنسي، المرتزق السيئ».

هكذا يختم المؤلف تقديمه لشخصية هيرود الذي كرهه اليهود الأصوليون المتعصبون وكرهه بالتالي المدافعون عنهم، في وعيهم الكامل، أو لا وعيهم، تلك هي ثقافة الانغلاق وعدم الموضوعية التي يبثها التعصب الأعمى.

إغتيل هيرود في العام (٤ق.م.) وتوزع ملكه على أبنائه الثلاثة الذين أُنقذوا من الاغتيال وحكموا بين العامين (٦) و(+٤١)، وهي الفترة التي عرفت ميلاد المسيح وحياته بكاملها.

(١٤ ـ ٣) بعد وفاة هيرود:

في السنة الرابعة قبل الميلاد تمّ اغتيال هيرود الكبير، ولا تقول المصادر التي هي تحت تصرّفنا عن الجهة التي دبّرت هذا الاغتيال، بل يقال إن أبناءه الثلاثة تمّ إنقاذهم من الاغتيال.

بعد ذلك أصدر القيصر أمره بتوزيع مملكة هيرود بين أبنائه الثلاثة، فأصبحت منطقة يهودا آنذاك، تحت القيادة الرومانية يحكمها مسؤول من طبقة الفرسان وهو تابع للحاكم العام في سورية كمسؤول أعلى، له حقّ التدخّل في يهودا في حال وقوع اضطرابات، مستفيداً من جيشه الروماني المتمركز في أنطاكية.

استمرت القيصرية في كونها عاصمة يهودا، وكان يسكنها كما أسلفنا سوريون، ثقافتهم هلّنستية، وكانت القيصرية هي أيضاً مركز الحاكم المحلي الروماني، والسلطة في يهودا بصفتها مقاطعة رومانية بقيت من اختصاص الحاكم الروماني المحلي، وذلك على الرغم من تسمية (أركيلايوس)[١] أحد أبناء هيرود لإدارتها، وكان الحاكم الروماني في الوقت نفسه قائداً للجيش المؤلف من مساعدين تمّ تجنيدهم من مناطق مختلفة، وهم بصورة أكيدة من غير اليهود لأن هؤلاء لم يقبلوا الخدمة العسكرية على اعتبار أنه لا يحق لهم السفر يوم السبت ولا أكل وجبات طعام غير مسموح بها. ولذلك كان معظم الجنود المتمركزين في القيصرية من السوريين. وهذا ما يؤكده المؤرخ اليهودي

---

(١) (Archélaüs).

(فلافيوس جوزيف)[١] الذي كتب عن اليهود بأنهم: «حتّى لو كانوا مواطنين رومانيين فإنهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية» للأسباب التي بيناها أعلاه، وكانت هناك فرقة رومانية متمركزة في قلعة أنطونيا التي بناها هيرود، تشرف على معبد القدس، وذلك كان هو وضع منطقة يهودا بعد وفاة هيرود.

أما عن توزيع مملكته على أبنائه، فقد حدث ذلك خلال حكم الامبراطور (أوغست)[٢] الذي سمّى:

- (أركيلايوس)، على يهودا والسامرة.
- (هيرود أنتياس)، على الجليل، وپيري[٣] في شرقي الأردن.
- (فيليب)، على إيتوري[٤] و(چولينيتيد)[٥].

لم يحصل أبناء هيرود على لقب ملك، بل أُعطي لقب (إيتنارك)[٦]، بمعنى «أمير الشعب» لأركيلايوس الذي لم يحسن إدارة يهودا والسامرة وأبعد عنهما في العام (٦)م، وأصبحتا تحت إشراف الحاكم العام لسورية.

أما هيرود أنتيپاس الابن الثاني، فقد حكم مدةً أطول من مدة حكم أخيه، وكان «تيترارك»[٧] وهو لقب من يحكم منطقة صغيرة، ولكن في العام (٣٩) تمّ في روما التشكيك بولائه، فعُزِلَ ونُفي إلى مدينة ليون الفرنسية.

أكثر الإخوة نجاحاً، هو (فيليب) الذي توفي العام ٣٩ ولم يترك أبناء، وسُلّمت منطقة حكمه إلى (آغريپا)[٨] وهو حفيد هيرود الكبير الذي تمّت تربيته في روما، ونجح بذكائه أن يُسَمّى على رأس منطقة فيليب من قبل (كاليغولا)[٩]، كما أن صداقَتَه مع

---

(١) (Flavius Josephe) (٣٧ ـ ١٠٠م)، المؤرخ اليهودي المعروف.
(٢) (Auguste).
(٣) (Pérée) في شرقي الأردن.
(٤) (Iturée) منطقة تقع إلى الشمال الشرقي من فلسطين.
(٥) (Gaulanitide) إلى الشمال من نهر اليرموك وإلى الشرق من بحيرة طبريا.
(٦) (Ethnarque).
(٧) (Tétrarque).
(٨) (Agrippa).
(٩) (Caligula) (٣٧ ـ ٤٢).

(كلوديوس)[١] أدت إلى تسليمه منطقة يهودا والسامرة في العام (٤١م) فحكم آنذاك كملكٍ حاملاً لقب (آغريپا) الأول من عام (٤١ ـ ٤٤) ميلادية، وقد توصل إلى حكم جميع المناطق التي كانت تحت حكم جده هيرود الكبير.

كما أن أحد أخوته وهو يحمل اسم هيرود، سُمّي ملكاً على (شالكيس)[٢] في البقاع.

توفي (أغريپا) الأول العام ٤٤، وانتقلت معظم مناطق حكمه إلى ابنه (أغريپا) الثاني الذي كان لا يزال صغير السن، لكنه في العام (٤٨م) تسلّم منطقة حكم عمّه هيرود في (شالكيس)، وفي العام (٥٣) عيّنه الامبراطور (كلوديوس) على المنطقتين اللّتيْن كان يحكمهما فيليب، أي (إيتوري وچولينتيد)، وفي العام ٦٤ أضاف (نيرون) إلى ملكه أجزاءً من (ألپيري والجليل).

وهذا الأمير ذو التربية الرومانية البحتة حكم على ما يظهر حتى العام (٩٠م)، وكان في البداية قد عُيِّن كمراقب على العبادة اليهوية في القدس. وهو الذي حاول في العام (٦٦م) قمع ثورة الجماعة اليهوية المتعصبة، العديمة المعنى، التي ما فتأت تزداد عنفاً، ما أدى في العام (٧٠م) إلى تدخل الجيش الروماني بقيادة (تيتوس)[٣] القائد من (٣٩ ـ ٨٢) والامبراطور من (٨٠ ـ ٨٢).

أدّى ذلك إلى تدمير المعبد. وتضيف بعض المصادر أن مدينة القدس دُمِّرت أيضاً وأُعيدَ بناؤها على الطريقة الرومانية، وحول هذه الأحداث يمكن قبول هدم المعبد ولكننا نميل إلى استبعاد هدم المدينة بكاملها.

(١٤ ـ ٤) ما تلا هدم المعبد وتطوّرات الامبراطورية الرومانية:

بعد العام (٧٠) لهدم معبد القدس، وقبل ذلك، كانت القدس قد فقدت كونها عاصمة، على اعتبار أن العاصمة الجديدة كانت مرفأ القيصرية، المدينة التي أمر بتشييدها هيدور وأقام فيها المسؤولون الرومان.

---

(١) (Claudius) (٤٢ ـ ٥٥).

(٢) (Chalkis).

(٣) (Titus).

أما ما سمي بالقدس الجديدة الجزئية، التي أطلق عليها الرومان تسمية (آيليا كاپيتولينا)[١] واعتبرت مستعمرة رومانية[*] يمكن التوضيح وفقاً لتلك التسمية أنها كانت مقامة على جبل أو هضبة كما كان كابيتول[٢] روما حيث شُيِّد في ما بعد، معبد (جوپيتير)[٣] من قبل هادريان حاكم سورية (انظر الحاشية ٤).

في العام (١٠٦م) قام الامبراطور (تراجان)[٤] بتوسيع الامبراطورية الرومانية من جهة الشرق، فاستولى على المملكة النبطية وعاصمتها (البتراء) بما في ذلك كامل (سيناء)، كما أكمل احتلال منطقة (شرقي الأردن) وضمّها إلى قسم الساحل المُستَعْمر سابقاً على اعتبار أن السامرة ولبنان وسورية الشمالية حتى عمق تدمر شرقاً كانت منذ العام (١٠٠) تابعة لمناطق الامبراطورية الرومانية.

بعد اجتياز كامل الساحل الكنعاني، توجّه (تراجان) نحو الشرق وضمّ إلى الامبراطورية كامل بلاد (ما بين النهرين) (١١٥ ـ ١١٧م) (وأرمينيا) (١١٤ ـ ١١٧). أما حاكم سورية آنذاك (هادريان)[٥]، فإنه في العام (١١٦م)، قَبِلَ بالتخلي عن قسم من المناطق الجديدة التي احتلها (تراجان) بمناسبة عقد معاهدة صلح مع البارتيين إلى الشرق من الهلال الخصيب وكانوا يشكلون مملكة قوية دامت حتى العام (٢٢٤م) وقاومت (تراجان) في محاولته لكسرها، و(البارتيون)، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، هم شعب سيتي، تأثر بفارس، وكان مهد مملكتهم المنطقة التي عُرِفَت في ما بعد بمنطقة (خراسان) إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين.

بعد تلك المعاهَدة، توقفت حدود الامبراطورية الرومانية عند الفرات، حيث تمت إقامة تحصينات حدودية.

قام بعد ذلك الحاكم (هادريان) بجولة في أنحاء الامبراطورية دامت حتى العام (١٢٩م)، وكما أسلفنا، فإن مدينة القدس آنذاك لم تعد عاصمة، وكان معبد القدس

---

(١) (Aélia Capitolina).

(*) يعني ذلك أنه لا يحق لغير المواطنين الرومان دخولها.

(٢) الـ (Capitole): أحد هضاب روما السبع حيث أقيم معبد (جوبيتر): حاشية (٥).

(٣) (Jupiter) كبير الآلهة في الميثولوجيا الرومانية ويقابل (Zeus) زيوس اليوناني.

(٤) (Trajan) امبراطور (٩٨ ـ ١١٧م).

(٥) (Hadrien) (١١٦ ـ ١٣٨).

آنذاك مخصصاً (لجوبيتير). ثمّ عادت جماعة من المتعصبين اليهود بنشر الاضطرابات من جديد بين العامين (١٣٢ و١٣٥م) بقيادة (بار كوكبا)[١]، ولكن هذه الحركة أُخمدت فوراً، على اعتبار أن مثيري الاضطرابات كانوا قلائل، وكان سكان فلسطين والقدس في تلك الفترة وقبلها يتألفون بشكل رئيسي من السوريين ـ الفينيقيين والعرب والمصريين والبابليين، وكانوا جميعهم يعيشون في مدن متأثرة بالثقافة الهلّنستية. وهم «الأمم» التي يطلق عليها المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيف تسمية يونانيين أو سوريين.

أ ـ بداية تفكك الامبراطورية الرومانية:

اعتباراً من العام ١٩٣م عرفت الامبراطورية الرومانية توزيعاً بين أربعة أباطرة: الأول جوليانوس[٢] في روما، والثاني نيجير[٣] في سورية والثالث ألْبينوس[٤] في بريطانيا، و(سبتيم سڤير)[٥] في منطقة (پانونيا)[٦] على نهر الرين إلى الجنوب من ألمانيا.

لكن سبتيم ـ سڤير تغلب على الآخرين، وبعد انتصارٍ على (البارتيين) بين العامين (١٩٧ ـ ١٩٩) تمكن من استعادة المستعمرات الشرقية، وعند ذلك عامل تدمر بشكل مميّز، كما عرفت قرطاجة في زمنه أهمية جديدة، وفقدت روما وإيطاليا آنذاك بشكلٍ عام أهميتهما المركزية حين بدأ المجلس الروماني يفقد أهميته أيضاً.

وفي حربه ضد بريطانيا التي أطلقها سبتيم ـ سڤير بين (٢٠٨ ـ ٢١١)، كان يرافقه ابنه كاراكلا[٧] مع أمّه (جوليا ـ دومنا)[٨]. وكان (كاراكلاّ) مشاركاً في الحكم مع أبيه منذ العام (١٩٨). أما أخوه (جيتا)[٩] فقد كان يحمل لقب الامبراطور المشارك الثاني (٢٠٩).

---

(١) (Bar-Kokeba) بمعنى ابن النجمة.
(٢) (Didius Julianus).
(٣) (P. Niger).
(٤) (Albinos).
(٥) (Septime-Sevère) امبراطور (١٩٣ ـ ٢١١).
(٦) (Pannonia).
(٧) (Caracalla) (٢١١ ـ ٢١٧).
(٨) (Julia Domna) من حمص، وكان لها تأثير كبير في السياسة الرومانية.
(٩) (Géta).

أما ما سمي بالقدس الجديدة الجزئية، التي أطلق عليها الرومان تسمية (آيليا كاپتولينا)[١] واعتبرت مستعمرة رومانية(*) يمكن التوضيح وفقاً لتلك التسمية أنها كانت مقامة على جبل أو هضبة كما كان كابيتول[٢] روما حيث شُيِّد في ما بعد، معبد (جوپيتير)[٣] من قبل هادريان حاكم سورية (انظر الحاشية ٤).

في العام (١٠٦م) قام الامبراطور (تراجان)[٤] بتوسيع الامبراطورية الرومانية من جهة الشرق، فاستولى على المملكة النبطية وعاصمتها (البتراء) بما في ذلك كامل (سيناء)، كما أكمل احتلال منطقة (شرقي الأردن) وضمّها إلى قسم الساحل المُستَعْمر سابقاً على اعتبار أن السامرة ولبنان وسورية الشمالية حتى عمق تدمر شرقاً كانت منذ العام (١٠٠) تابعة لمناطق الامبراطورية الرومانية.

بعد اجتياز كامل الساحل الكنعاني، توجّه (تراجان) نحو الشرق وضمّ إلى الامبراطورية كامل بلاد (ما بين النهرين) (١١٥ ـ ١١٧م) (وأرمينيا) (١١٤ ـ ١١٧). أما حاكم سورية آنذاك (هادريان)[٥]، فإنه في العام (١١٦م)، قَبِلَ بالتخلي عن قسم من المناطق الجديدة التي احتلها (تراجان) بمناسبة عقد معاهدة صلح مع البارتيين إلى الشرق من الهلال الخصيب وكانوا يشكلون مملكة قوية دامت حتى العام (٢٢٤م) وقاومت (تراجان) في محاولته لكسرها، و(البارتيون)، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، هم شعب سيتي، تأثر بفارس، وكان مهد مملكتهم المنطقة التي عُرِفَت في ما بعد بمنطقة (خراسان) إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين.

بعد تلك المعاهَدة، توقفت حدود الامبراطورية الرومانية عند الفرات، حيث تمت إقامة تحصينات حدودية.

قام بعد ذلك الحاكم (هادريان) بجولة في أنحاء الامبراطورية دامت حتى العام (١٢٩م)، وكما أسلفنا، فإن مدينة القدس آنذاك لم تعد عاصمة، وكان معبد القدس

---

(١) (Aélia Capitolina).

(*) يعني ذلك أنه لا يحق لغير المواطنين الرومان دخولها.

(٢) الـ (Capitole): أحد هضاب روما السبع حيث أقيم معبد (جوپيتر): حاشية (٥).

(٣) (Jupiter) كبير الآلهة في الميثولوجيا الرومانية ويقابل (Zeus) زيوس اليوناني.

(٤) (Trajan) امبراطور (٩٨ ـ ١١٧م).

(٥) (Hadrien) (١١٦ ـ ١٣٨).

آنذاك مخصصاً (لجوبيتير). ثمّ عادت جماعة من المتعصبين اليهود بنشر الاضطرابات من جديد بين العامين (١٣٢ و١٣٥م) بقيادة (بار كوكبا)[١]، ولكن هذه الحركة أُخْمدت فوراً، على اعتبار أن مثيري الاضطرابات كانوا قلائل، وكان سكان فلسطين والقدس في تلك الفترة وقبلها يتألفون بشكل رئيسي من السوريين ـ الفينيقيين والعرب والمصريين والبابليين، وكانوا جميعهم يعيشون في مدن متأثرة بالثقافة الهلّنستية. وهم «الأمم» التي يطلق عليها المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيف تسمية يونانيين أو سوريين.

أ ـ بداية تفكك الامبراطورية الرومانية:

اعتباراً من العام ١٩٣م عرفت الامبراطورية الرومانية توزيعاً بين أربعة أباطرة: الأول جوليانوس[٢] في روما، والثاني نيجير[٣] في سورية والثالث ألبينوس[٤] في بريطانيا، و(سبتيم سفير)[٥] في منطقة (بانونيا)[٦] على نهر الرين إلى الجنوب من ألمانيا.

لكن سبتيم ـ سفير تغلب على الآخرين، وبعد انتصار على (البارتيين) بين العامين (١٩٧ ـ ١٩٩) تمكن من استعادة المستعمرات الشرقية، وعند ذلك عامل تدمر بشكل مميّز، كما عرفت قرطاجة في زمنه أهمية جديدة، وفقدت روما وإيطاليا آنذاك بشكل عام أهميتهما المركزية حين بدأ المجلس الروماني يفقد أهميته أيضاً.

وفي حربه ضد بريطانيا التي أطلقها سبتيم ـ سفير بين (٢٠٨ ـ ٢١١)، كان يرافقه ابنه كاراكلا[٧] مع أمّه (جوليا ـ دومنا)[٨]. وكان (كاراكلاّ) مشاركاً في الحكم مع أبيه منذ العام (١٩٨). أما أخوه (جيتا)[٩] فقد كان يحمل لقب الامبراطور المشارك الثاني (٢٠٩).

---

(١) (Bar-Kokeba) بمعنى ابن النجمة.

(٢) (Didius Julianus).

(٣) (P. Niger).

(٤) (Albinos).

(٥) (Septime-Sevère) امبراطور (١٩٣ ـ ٢١١).

(٦) (Pannonia).

(٧) (Caracalla) (٢١١ ـ ٢١٧).

(٨) (Julia Domna) من حمص، وكان لها تأثير كبير في السياسة الرومانية.

(٩) (Géta).

عندما تسلم (كاراكلاّ) الحكم العام (٢١١) أرسل من يغتال شقيقه (جيتا) ومعظم مريديه العام (٢١٢). وفي العام نفسه منح كاراكلاّ المواطنة الرومانية الكاملة جميع أبناء المناطق الأحرار محققاً بذلك وحدة الامبراطورية، ولكنه اغتيل بدوره بعد حربه ضد الألمان.

على شواطئ نهر الرين، وعلى الفرات ضدّ البارتيين، تسلّم الحكم بعده ابن أخيه كاهن الإله السوري (ميترا)[١] واسمه (إيلاچابال)[٢] وهو من حمص، وكان تحت تأثير جدّته (جوليا مايزا)[٣] وهي أخت جوليا دومنا، وهو أيضاً تمّ اغتياله مع والدته من قبل حرسه وتسلم الحكم من بعده ابن عمه الكسندر سيفير[٤] (٢٢٢ ـ ٢٣٥م). وفي العام (٢٣٢) تمرّد عليه جيشه وهو أيضاً كانت تسيطر عليه والدته (جوليا مامّيا)[٥]. أما التمرد فكان بقيادة (ماكسيمان)[٦] وهو ضابط في منطقة (تراسيا)[٧].

تلك الفترة هي التي شهدت الأباطرة العسكريين[٨].

ب ـ الأخطار الخارجية:

عرفت الامبراطورية الرومانية أخطاراً خارجية عديدة:

- من الشمال كان عليها صدّ هجمات الجيوش السكسونية والفرنكية والألمانية وكذلك (الفيزيغوت والأوستروغوت)[٩].
- ومن الشرق عرفت هجمات الجيوش الساسانية التي جَابَهت المعسكرات الرومانية في (نصيبين) و(أوديسّا) وتدمر العام (٢٧٢)، كما هاجمت معسكر الاسكندرية.
- ومن الجنوب وقف ضدها جيش كل من موريتانيا وليبيا في تلك الفترة، ولم يكن

---

(١) (Mithra) أصله إله فارس انتشرت عبادته في اليونان الهلنستية والامبراطورية الرومانية.

(٢) (Elagabal).

(٣) (Julia Maesa).

(٤) (Alexandre Sevère).

(٥) (Julia Mammea).

(٦) (Maximin).

(٧) (Thracia) منطقة واقعة إلى الشرق من مقدونيا.

(٨) (Emperreurs Soldats).

(٩) (Visigothe et Ostrogoth).

على الشاطئ الموريتاني سوى معسكر واحد توجهت لنجدته فرقة من شمالي بلجيكا.

وبسبب الأخطار المحددة أعلاه قام الامبراطور (چاليني)[1] بين العامين (٢٦٠ ـ ٢٦٨) بإعادة تنظيم الجيش الروماني وخلق فرقة احتياطية من الفرسان للتدخل السريع في الأماكن المهدّدة.

أما الامبراطور (أوريليان)[2] (٢٧٠ ـ ٢٧٥)، فبعد انتصاره على الألمان في (بافي)[3] (٢٧١)، أخضع الملكة زنوبيا العام (٢٧٢)، واتخذ لنفسه العام (٢٧٤) لقب «دومينوس ديوس»[4]، بمعنى «سيّد وإله»، وأدخل عبادة الشمس في حمص التي تندمج مع عبادة الامبراطور كديانة دولة.

في العام (٢٩٧) تمّ تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى (١٢) إقليماً إدارياً يحكمها ١٢ ممثلاً إدارياً، يديرون مَائة مقاطعة ومقاطعة في الأقاليم. وعلى أساس هذا التقسيم شبه الديني أصبحت السلطة الامبراطورية مطلقة على اعتبار أنها إلٰهية. وكان يحيط بالامبراطور بورجوازيون يعتبرون رعايا، وأما الفلاحون فهم مضطرون إلى الارتباط بالأرض. وكان على الحرفيين تسجيل أنفسهم إلزامياً في الجمعيات المهنية وهم مضطرون إلى العمل من أجل تأمين احتياجات الجيش.

اعتباراً من العام (٣٠٥) وبعد صراعات داخلية وتسمية حكم رباعي جديد، يتوصل (قسطنطين) في العام ٣١٢ إلى التفرد بالحكم، وندخل بعد ذلك في فترة حكم من عرف بقسطنطين الكبير[5] (٣٢٤ ـ ٣٣٧).

ج ـ تبنّي المسيحية في روما:

تبنّى قسطنطين وأمه هيلانه المسيحية الجديدة، بعد أن سبق وعرف نشرها اضطهادات عديدة وسجون ونفي. كما يمكن القول إن التبشير بالديانة الجديدة كان يتم

(١) (Gallieni).

(٢) (Aurélien) (٢٧٠ ـ ٢٧٥)، تم اغتياله من قبل أحد الذين حررهم من العبودية.

(٣) (Pavie) مدينة إيطالية في لومبارديا.

(٤) (Dominus et Deus).

(٥) (Constantin).

بالدرجة الأولى في أنطاكية والاسكندرية و(نيــا)[١] والقسطنطينية وأفسوس ومنها كان يتمّ الانطلاق نحو المراكز الأوروبية وأفريقيا الشمالية.

خلال مؤتمر (نيــا) الذي دعا إليه قسطنطين الكبير العام (٣٢٥م)، طلب أسقف القدس من قسطنطين الاهتمام بصيانة الأماكن المقدسة من فلسطين المرتبطة بالديانة الجديدة، فأصدر الامبراطور قسطنطين أوامره لإنجاز ذلك، وتم تدشين (كنيسة القيامة) العام (٣٣٥)، كما بوشر اعتباراً من (٣٢٥) بإقامة (كنيسة المهد) في بيت لحم، التي لم تكن قد انتهت أعمالها عند وفاة أم الامبراطور العام ٣٢٩.

ويمكن القول إنه في العام (٣٣٠م) أصبحت بيزنطيا العاصمة المسيحية للامبراطورية الرومانية تحت تسمية القسطنطينية، وبعد وفاة قسطنطين العام (٣٣٧)، تولى ابنه قسطنطين الثاني السلطة العام (٣٣٧ ـ ٣٦١م).

(١٤ ـ ٥) زوال الحكمين الروماني والساساني أمام الفتح العربي:

تابع الحكام الرومانيون بعد اعتناق المسيحية أعمال تجميل القدس وساعدت على ذلك، في إحدى المراحل زوجة الامبراطور البيزنطي (تيودوز) الثاني[٢] (٤٠١ ـ ٤٥٠)، ثمّ عمد الامبراطور (جوستينيوس)[٣] (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) إلى القيام بأعمال تجميل أكثر أهمية، ترافقه زوجته (تيودورا)[٤].

وفي مجال آخر، فإن الامبراطور (جوستينيوس)، عقد صلحاً نهائياً مع الساسانيين العام ٥٣٢ بغية التفرغ لاستعادة الامبراطورية الغربية، وكان ذلك قد سبّب أعباء مالية كبيرة وأضعف الامبراطورية الشرقية البيزنطية، وترك المجال مفتوحاً لتطورات غير مرتقبة.

في العام (٦١٠) بدأ تأسيس ما عرف بالامبراطورية البيزنطية الوسطى من قبل هرقليوس (هرقل)[٥] (٦١٠ ـ ٦٤١)، متخذاً لنفسه لقب (بازيليوس)[٦]، وهو لقب أقل

---

(١) (Nicea) قرب القسطنطينية إلى الجنوب
(٢) (Théodose II).
(٣) (Justinius).
(٤) (Théodora).
(٥) (Heraclius).
(٦) (Basileus).

من امبراطور، وهرقل هو الذي قسّم آسيا الصغرى إلى مقاطعات عسكرية، يدير كلاً منها حاكم ذو سلطة مدنية وعسكرية، كما أن جنوده كانوا في الوقت نفسه يشكلون ميليشيات فلاحية، وهم جنود ـ مستوطنون، يملك كل منهم أرضاً يستثمرها ويعيش من مردودها.

في العام (٦٢٨) م حقّق هرقل نصراً على الفرس، إذْ كانت المملكة الساسانية في طريقها إلى الانهيار بسبب وطأة هجمات (الآفارسيون)[١] والسلافيون[٢]، في الوقت الذي كان فيه الفرس العام (٦٢٦) يتقدمون لاحتلال القسطنطينية، ما اضطر هذه الأخيرة إلى إهمال المناطق البلقانية وتركها للسلافيين.

تحوّل التهديد الفارسي بعد ذلك إلى تهديد عربي إسلامي، حين هاجم العرب القسطنطينية من دون نجاح في العامين (٦٤١ و٧١٧).

وكان البيزنطيون اعتباراً من العام (٧١٧) وحتى العام (٧٤٠) يتلهّون بخلافات داخلية أطلقتها تأثيرات سورية في آسيا الصغرى (كيليكيا والكابادوس) حول قبول المسيحية أو عدمه للتمثيل الصوَري لآباء الكنيسة وقدّيسيها، وكانت الاتجاهات المسيحية السورية ضدّه، وكان يدعمه البابا (غريغوار) الثالث[٣] على اعتبار أنه رمز وواسطة للتبجيل.

وكما عمد الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس اعتباراً من العام (٧٤٠) إلى تشديد الوجود الدفاعي على حدود القسطنطينية، تحول الفتح العربي آنذاك، نحو الغرب إلى أفريقيا الشمالية وأسبانيا. وكان قبل ذلك، لدى خروجه من الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول العام (٦٣٢) وترسيخ الدين الجديد، حيث نزلت الآية الكريمة وفيها أبلغ تشجيع لذلك في: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً»، ما جعل المسلمين يعتمدون على أنفسهم ويتوجّهون إلى نشر الإسلام مكمّلين بدورهم ما بدأ به الرسول.

لن ندخل هنا في تفاصيل بداية نشر الرسالة الإسلامية، ونودّ إيقاف سرد وقائع

---

(١) (Avars) من شعوب آسيا الصغرى، كانوا يقومون بأعمال تخريبية في أوروبا خلال ثلاثة قرون إلى أن ضمّ شارلمان بلادهم إلى امبراطوريته.

(٢) (Slaves)من شعوب أوروبا الوسطى والشرقية ومنهم في الجنوب الصرب والكروات والسلوفين والبلغار.

(٣) (Grégoire).

التاريخ القديم لفلسطين كما سبق وأعلنا، عند هذا الحدّ، مع الاعتراف بأن تاريخ فلسطين اعتباراً من الفتح العربي الإسلامي يستحق دراسة خاصة وكتاباً آخر، يوصلنا حتى اليوم المشؤوم بوعد بلفور وقرار التقسيم الذي لا ينقص عنه شؤماً والذي دفع ثمنه فلسطينيون لا يزالون يعيشون في مخيماتهم حتى اليوم، بعد فشلنا في حروب عدة لاسترجاع حقوقهم....

ولكننا، نرى قبل التوقف، أنه من المفيد تلخيص الجدول الزمني لبدايات الفتح العربي حتى زوال الخلافة العباسية، وفق علامات الطريق التالية:

- بين العامين (٦٣٢ ـ ٦٣٤) عمد الخلفاء الراشدون (أبو بكر الصديق) إلى توحيد القبائل العربية باعتناق الإسلام، ثم التوجّه نحو سورية وفارس.

- بين الأعوام (٦٣٤ ـ ٦٤٤) بدأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، بتحويل الدولة الإسلامية الأولى إلى امبراطورية. وتمكّن الخليفة عمر من تحرير سورية وفلسطين، فدخلت الجيوش العربية دمشق العام (٦٣٥) والقدس العام (٦٣٨).

  وفي العام (٦٤٢) تمّ احتلال العاصمة (ستيزيفون)[1] وفيها القصر الشتوي للملوك الساسانيين.

- ثم في العام ٦٤٢ بعد الانتصار في معركة نهوند تمّ احتلال الجزء الغربي من بلاد فارس. وفي الوقت نفسه، كان القائد عمرو بن العاص يتوجه نحو الاسكندرية التي غادرها البيزنطيّون وذلك بعد أن كانت الجيوش العربية قد احتلت القاهرة وهليوبوليس العام (٦٤٠)، ثم تابعت نحو ليبيا العام (٦٤٢).

- تابع الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) سياسة الفتح، وكان معاوية آنذاك حاكم دمشق يحارب البيزنطيين، عندما هاجمت السفن البيزنطية الاسكندرية وهدّدتها، ما حدا بمعاوية على تأسيس أسطول بحري عربي اشتهرت قوته.

- في العام (٦٥٦) تمّ اغتيال الخليفة عثمان وخلفه علي بن أبي طالب (٦٥٦ ـ ٦٦١) الذي استقر في الكوفة ولكن معاوية، أراد الثأر لاغتيال ابن عمه عثمان، فنشبت

---

(١) ستيزيفون (Stésiphon) الواقعة على الدجلة الأوسط، وكانت العاصمة الساسانية آنذاك بعد أن كانت عاصمة البارتيين.

معركة صفّين ذات النتائج غير الواضحة في العام ٦٥٧، تلا ذلك، التحكيم العام (٦٥٨) الذي تمّ بموجبه التخلي عن عليّ الذي اغتيل في ما بعد.

- بدأت الخلافة الأموية في العام (٦٦١) ودامت حتى (٧٥٠)، وكان معاوية أول الخلفاء الأمويين (٦٦١ ـ ٦٨٠). ومن أهم ما حققه معاوية، بعد أن جعل من دمشق عاصمة الخلافة، هو تنظيم الإدارة والجباية وإنشاء البريد...

لم تنجح في عهد معاوية محاولات غزو القسطنطينية اعتباراً من العام (٦٦٧)، إلا أن التوسّع العربي تقدم في الاتجاه الشرقي فكان احتلال (كابول) و(بُخارى) و(سمرقند).

- في العام (٦٨٠) خلف معاوية ابنه يزيد، وحقق بين العامين (٦٨٠ و٦٨٣) نصراً على الحسين بن علي في معركة كربلاء.
- تولّى الخلافة بعد يزيد، عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥)، فقام بدوره بترسيخ احتلال أفريقيا الشمالية، فسقطت قرطاجة العام (٦٩٨)، وصُكّت في زمنه أول عملة عربية.
- أما الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥)، فقد نجح في تحقيق أوج الخلافة الأموية، حيث بلغت الجيوش العربية، الهند شرقاً (٧١١)، واجتاز طارق بن زياد المضيق الذي يحمل اسمه اليوم محتلاً أسبانيا بعد انتصاره على جيش رودريك.
- توقف الفتح العربي في الغرب بين مدينتي (تور)[١] و(پواتيه)[٢] العام (٧٣٢) بعد احتلال مدينة (تولوز)[٣] العام (٧٢١)، لأسباب اقتصادية واجتماعية.

بدأت بعد ذلك ثورات الخوارج والخلافات بين الأمويين والعباسيين ما أدى إلى انهيار الخلافة الأموية.

- في العام (٧٥٠) حدث انكسارُ آخِر الخلفاء الأمويين مروان الثاني على نهر الزاب، تلا ذلك اغتيال جميع الأمويين ما عدا عبد الرحمن الداخل الذي نجا وأسس في أسبانيا إمارة قرطبة العام (٧٥٦).
- بدأت بعد ذلك الخلافة العباسية ودامت من (٧٥٠ حتّى ١٢٥٨)، أسسها أبو العباس

---

(١)، (٢)، (٣) (Tours) (Poitiers) و(Toulouse).

جميعها مدن في جنوب فرنسا الحالية.

الذي توفي العام (٧٥٤)، وخلفه المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥)، ويمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لتلك الخلافة

- نقل المنصور العاصمة إلى بغداد وتبنّى تنظيمات البلاط الفارسي، ونظم الإدارة وفقاً للطريقة البيزنطية والفارسية، كما أحاط نفسه بأعضاء الدولة.
- خلف المنصور، هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) الذي على الرغم من الانتصارات التي حققها على البيزنطيين، فإن التدهور السياسي للامبراطورية بدأ في مراكش حيث استقل عن الخلافة حكم الايدريسيين (٧٨٨)، وفي قيروان استقل الحكم الإغلابي.
- في القرن التاسع نشبت اضطرابات وثورات داخلية نتجت عنها ملكيات محلية أخرى في (خراسان)، وتقلّص بذلك دور الخليفة البغدادي إلى دور روحي، كأمير للمؤمنين، بينما كان الحكم اعتباراً من العام (٩٦٣)، يمارسه «أمير الأمراء» في كل من الإمارات المستقلة. ولم يتأخر بعض الأمراء المستقلين عن اتخاذ لقب خليفة.
- بين العامين (٩٤٠ ـ ١٢٥٦) لم تعد للخليفة العباسي أي أهمية سياسية، تلا ذلك سقوط (بغداد) وتدميرها من قبل المغول في العام (١٢٥٨) ورمي مكتبتها في الدجلة.

لن ندخل في تفاصيل أسباب التدهور والانحطاط واستقلالية الإمارات لأن ذلك ليس من أهداف هذا الكتاب المخصص لفلسطين في تاريخها القديم بين فترات ما قبل التاريخ حتى نهاية الخلافة العباسية.

نترك المجال في ما بعد لتقديم بعض الملاحق التي لم نشأ عرضها في صلب هذا البحث، وبعضها أشار النص الأصلي إلى محتواها باختصار وهي مكمّلة بالنسبة للقارئ الذي يودّ الاستزادة من المعلومات المقدمة وهي كما يلي:

- **الملحق رقم (١)**: التزوير القديم والتزوير الحديث.
- **الملحق رقم (٢)**: سياسة السبي والتهجير في الشرق الأوسط القديم.
- **الملحق رقم (٣)**: ما ورثته المرويات التوراتية عن أكبر تزوير عرفه التاريخ تحقيقاً لأحلام استيلائية.

وقبل تقديم الملاحق المشار إليها أعلاه، فإننا نرى أن نقدم إلى القارئ الفلسطيني والعربي بقصد الحفاظ على حقوق فلسطين، وعدم الوقوع في الأشراك الاعتيادية، في فصلٍ أخير، بعض التوصيات التي أردنا أن نُطَمئِنَ أنفسنا بعد تقديمها، بأننا عملنا ما يقتضيه واجبنا نحو بلدنا السليب الذي يدفع ضريبة الدم، منذ أجيال عرفها الأجداد والآباء، ويذهب ضحيتها أبناؤنا اليوم.

الفصل الخامس عشر

توصيات أخيرة

(١٥) توصيات أخيرة

١ - في فترة تلت مؤتمر مدريد، والمصافحة الأولى، وتمّ الاقتراب من حل سلميّ لمأساة فلسطين، وكدنا نعيش شهر عَسل بين الطرفين، نُمي إليّ خبرٌ مفاده، أن هناك فكرة لتأليف كتاب تاريخ مشترك، يساهم في إعداده الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي.

وبعد اطلاع القارئ على هذه الدراسة، أسمح لنفسي بالتوجه إلى مسؤولي فلسطين وإلى مؤرخينا، الذين يهتمون بأرض فلسطين بتوصية أولى أساسية وهي:

لا تؤلّفوا معهم كتاباً مشتركاً عن تاريخ فلسطين، حتى لو توصّلتم معهم إلى صلحٍ وسلامٍ حقيقيين، لكي لا تنجرّوا إلى الاعتراف بمروياتهم التوراتية ولو جزئياً. فالتوراة العبرية ليست كتاب تاريخ، لأن الزمن أضاف وسوف يضيف بين مرحلة وأخرى حقائق جديدة عن بعد تلك المرويات عن الموضوعية وعن تناقضاتها.

٢ - لا تناقشوا معهم مضمون المرويات، لأن مثل هذا النقاش سيكون عقيماً ولا يدخلنا في أي حقيقة تاريخية، وهو مضيعة للوقت.

٣ - أرض فلسطين لم تفرغ قط من سكانها ومن شعبها منذ ما قبل الألف العاشر قبل الميلاد وحتى اليوم، ولم تكن قط أرضاً مباحة، توزع بين (أسباط) من ادّعوا

احتلالها، ولم يكن ذلك بصحيح، كما أنها لم تكن في يومٍ من الأيام، «الأرض التي لا شعب لها لشعبٍ بلا أرض»، كما ادعت الحركة الصهيونية.

٤ ـ اللهجات التي تكلم بها شعب أرض فلسطين، كانت لهجات عربية قديمة، وليست لهجات ساميّة وفق مصطلحٍ مستوحىً من التوراة لا أساس تاريخياً له، تبناه في العام ١٨٧٥م عالم نمساوي وصُنِّفتْ لهجاتنا القديمة على أساسه.

فاللهجات الكنعانية والآرامية[1] والأوغاريتية والأكادية والسبئية والمعينية والأمهرية.... جميعها لهجات عربية قديمة وليست لغات سامية، لا شرقية ولا غربية... وعلينا تحاشي الوقوع في مثل هذا الخطأ، وهذا التصنيف العرقي.

٥ ـ منذ الاحتلال الصهيوني الحديث لأرض فلسطين، قام المحتلون بحماسة كبيرة، بإجراء حفريات أثرية في جميع الأماكن ولم يعثروا على أي دليل تاريخي يدعم أسس مروياتهم القديمة.

ولو حدث ذلك، لكنت سمعتَ به حتماً أيها القارئ، لأنهم عند ذلك لن يتأخروا عن «التطبيل والتزمير» لاكتشافهم، ولكنتَ سمعت به حتماً يكرّر على مسامع العالم كل يوم.

وما يدل على الحاجة الملحّة لمن يريدون الدفاع عن صحة المرويات التوراتية وتنقصهم الأدلة التاريخية لذلك، هو رواج عدد من القطع المزورة وانتشارها، يعدّها اختصاصيون وتجار عاديات غير شرفاء بقصد الربح المادي وتباع بملايين الدولارات إلى بعض المهتمين وإلى المتاحف، قبل أن تُكشفَ حقيقة تزويرها.

وأخيراً خرجت من إسرائيل، قطع مزوّرة نعرضها في الملحق رقم (١) الذي يلي هذه التوصيات.

٦ ـ إذا كلموكم عن أبرام/إبراهيم، فاعلموا أن (أب ـ رام) يعني الأب العليّ

---

(١) استعرض أحد مذيعي «إذاعة الشرق» في باريس صباح الأحد في الرابع من نيسان ٢٠٠٤ أفلام الأسبوع، ومنها فيلم آلام المسيح (لميل غيبسون) معلناً أن لا لزوم لعرض مقتطف صوتي منه، على اعتبار أن أشخاص الفيلم يتكلمون الآرامية ولن تفهموا منها شيئاً! وفاته مناسبة لتذكير المستمعين بأنهم لو أنصتوا إلى حوار الفيلم، لفهموا قسماً لا بأس به من الكلمات التي لا نزال نستعملها في لغتنا العربية حتى اليوم.

بالكنعانية. و(رام) هو الارتفاع في «رام الله» و«رامات...» بالنسبة للأماكن المرتفعة.

واعلموا أن لا علاقة لهم بإبراهيم «باني الكعبة»، وإذا ما نَسَبوا أنفسهم إليه وتشرفوا به، فذلك لأنهم أرادوا اختلاق جذور لهم في فلسطين! وليس من المستبعد أن يكون ذلك تمّ بعد السبي، وبعد التعرف إلى إبراهيم عرب الجزيرة وابنه اسماعيل، الذي أبعدته أسطورتهم! لكي يرث «العهد» الابن الآخر إسحق!.

«العهد» مع الإله، يكون عادةً، إذا ما حدث ذلك، عهداً روحياً ومناقبياً، يحترم القيم الحياتية. وأي إله غير (يهوه) يعطي أرضاً لمن لا يملكها ويطرد أمامهم شعب هذه الأراضي، أي أرض كنعان؟!.

٧ ـ يهوه إله خاص، لشعبٍ خاص، ولم يكن قط إلهاً كونياً، والإله الكنعاني إيل إيلوه إله الله هو إله الكون خالق السموات والأرض.

٨ ـ انتشرت الديانة المسيحية، فارضة نفسها على امبراطورية روما، وقد أعدّت لذلك معتقدات مصر الفرعونية ومعتقدات الهلال الخصيب في خلق البشر وفي مفهوم الموت والبعث في بعث أوزيريس وتموز وبعل ومردوك وفي ما نشرته عبادة إيزيس في تعاليمها المنفتحة على جميع الشعوب والمساواة في ما بينها من دون التفريق بين غنيّ وفقير وبين عبدٍ وحرٍّ.

على الرغم من كل ذلك تمكنت الدعاية «السنهدرينية» القديمة والحديثة في أشكالها المختلفة، من إقناع المسيحيين بأن جذور ديانتهم هي في اليهودية، فَقَبِل المسيحيون بذلك، ودرجوا على استعمال تعبير «اليهودية ـ المسيحية» دعماً لمثل هذا الارتباط، الذي لا أساس له من الصحة، وهو يعتمد على الإضافات التي أُدخلت على المرويات التوراتية لهذه الغاية. وليس من الصعب إثبات ذلك في بحثٍ مستقل، لا علاقة له بهذا الكتاب.

٩ ـ نظراً إلى خلو المكتشفات الأثرية في فلسطين مما يدعم المرويات التوراتية المؤسِّسة كما أسلفنا، فإن منقِّبين جداً وباحثين من قلب (تل أبيب)، عرضوا في منشوراتهم ما يشير إلى ذلك واعترفوا بخلو أرض فلسطين مما يثبت

المرويات التوراتية، في ما يتعلق بأسس علاقتهم بها وجذورها. تمَّ هذا الاعتراف، تماماً كما اعترف «كولين باول» بخلو أرض العراق، من أسلحة «الدمار الشامل» معترفاً بخطئه، بعد أن أعلن عكس ذلك في الأمم المتحدة. حدث ذلك طبعاً بعد تدمير العراق واحتلال أرضه وإغراقه في طوفان من الفوضى.

١٠ ـ بعد استبعاد أسطورة الخروج من مصر واحتلال أرض كنعان وتوزيعها المزعوم بين الأسباط وأسطورة المملكة الموحّدة لداود وسليمان، لا يبقى أمامنا، كما أثبت هذا البحث سوى مملكة في الشمال الفلسطيني عرفت بمملكة السامرة التي كانت تعمّها المعتقدات الكنعانية، وكان سكانها مزيجاً إتنياً يماثل ما عرفته ممالك الساحل، شجعته على ذلك التجارة والإنتاج المحلي والانفتاح وكذلك التعاون مع آشور. ثم طغت عليه سياسة التهجير الآشورية بعد إبعاد قسم من سكانه ونقل سكان جدد إليه من مناطق بعيدة من الامبراطورية ومن مناطق قريبة مثال القبائل العربية التي أشرنا إليها، حدث ذلك، خلال فترة قصيرة تقع بين ٨٥٣ ق.م، يوم هاجم شلمنصر الثالث حلف آرام دمشق، وحتى تحويل السامرة إلى منطقة آشورية من قبل شلمنصر الخامس في العام ٧٢٢ وسبي أهالي السامرة في العام نفسه من قبل سرجون الثاني.

لم تدم تلك الفترة إذن إلا حوالى ١٣٠ سنة، كانت السامرة خلالها تدفع الجزية إلى آشور قبل أن تختفي نهائياً. هذه هي قصة السامرة (الشمال الفلسطيني) التي كرهتها المرويات التوراتية وألّفت العديد من الأسفار، متّهمة إياها بأنها «تمومَست» أمام فرسان آشور وباعتهم جَسَدَها، بالإضافة إلى كونها كنعانية الانتماء.

١١ ـ المملكة الثانية في الجنوب الفلسطيني: هي مملكة «ياؤدا/ ياؤدو» بحسب التعبيرين الآشوري والبابلي، وهما يتحدثان عنها باستعمال تسمية (بلد) أو (مدينة).

إذا ما استعرضنا في مملكة الجنوب الفترة التي تلت حكم سليمان الذي تتهمه المرويات بأنه «حنى ركبتيه للأجنبيات...» ومن خلفوه اعتباراً من القرن التاسع ق.م وحتى فترة حكم (آخاز) (٧٤٣ ـ ٧٢٧) يمكننا القول على لسان من نقبوا وحفروا من إسرائيليّي اليوم، إنه لم يعثر على أي دليل أثري عن وجودهم،

والدليل الوحيد الذي وصلنا عن (آخاز) = (ياؤخاذو) هو أنه كان من بين التابعين الذين يدفعون الجزية لتغلات فلصر الثالث، وذلك في نص تركه لنا هذا الأخير في العام ٧٢٩ ق.م.

في العام (٧٢٠)، أخضع سرجون الثاني بلد (ياؤدو). أما في العام (٧٠١) فإن سنحريب حرر ملك عقرون الذي أسره سكان مدينته وسلّموه إلى ملك (أور ـ سالم).

وعلى الرغم من استعراضنا لعددٍ كبير من النصوص العائدة إلى ما بين القرن الثاني عشر ق.م (تاريخ الاستيلاء على أرض كنعان بحسب المرويات). والقرن السابع، لم نجد سوى تلك المرة الأولى التي يظهر فيها اسم (أورسالم) كمدينة ملكية! وتساءلنا أين كانت القدس خلال تلك الفترة الطويلة.

ثمّ بعد ذلك، لم تتوقف المملكة المشار إليها عن الخضوع لآشور وبابل، وكانت قد بدأت بالانتعاش اقتصادياً اعتباراً من نهاية القرن السابع. وفي تلك الفترة بدأت بوادر ممارسة الكتابة، وهنا ظهر لكاهن الملك (جوزياس) في العام ٦٢٢ كتاب (اعْتُبِر قديماً) حين لم تكن الكتابة إلا في بدايتها في المملكة! وقد عرضْنا بالتفصيل في الملحق رقم (٣) قصّة هذا الاكتشاف.

حاول هذا البحث تقديم تفسير مقبول عن غياب القدس من النصوص المستعرضة حتى العام (٧٠١) ق.م، معتبراً بأنها لم تكن قبل ذلك مدينة ذات أهمية ولم تكن تتمتع بمتطلبات العاصمة قبل نهاية القرن السابع، إذ كانت تلك المملكة كما أسلفنا، تعمّها الأمّية حتى ذلك الزمن ولم تعرف القراءة والكتابة وتنظيم دواوين الدولة إلا اعتباراً من تلك الفترة.

١٢ ـ ختاماً، وبقصد المقارنة، يمكننا القول إن بلاد ما بين النهرين عرفت الكتابة منذ ٣٠٠٠ ق.م، وإذا ما استعرضنا عبر الهلال الخصيب انتشار الكتابة نضيف أنه:

بينما كانت ابنة سرجون الأكادي، وقد وصلنا أحد نصوصها، تؤلف الأناشيد التمجيدية للإلٰهة عشتار في ما بين النهرين منذ القرن الرابع والعشرين ق.م، كانت أميرات ماري يكتبن لوالدهن المعاصر لحمورابي لإعلامه بأخبارهن وأخبار القصر عندما يكون غائباً في مهمّاته الخارجية.

ولا ننس طبعاً الوثائق التجارية الآشورية القديمة في بداية الألف الثاني التي تركها مركز كانيش التجاري وهي (٢١٠٠٠) لوحة [انظر الفقرة (١٠ ـ ١) من الفصل العاشر.

ولا ننس أيضاً محفوظات مملكة ماري الاقتصادية والإدارية والتجارية (١٤٠٠٠) لوحة ووثائق مدينة (إيبلا) (تل مرديخ) حيث قدّمت (١٧٠٠٠). لوحة وكذلك المكتبات الخاصة لمثقفي أوغاريت وغيرها من المراكز الحضارية في الوطن العربي، ومنذ القرن الثامن عشر، عمد حمورابي إلى نشر تشريعه على البازلت وعرض نسخاً عدّة منه في الأماكن العامة من المملكة «ليستمدّ كل مظلوم العدالة من نصوصه». كما كان ملوك الساحل الشرقي للمتوسط في أوغاريت وأمورو ولبنان وفلسطين يوجهون رسائلهم إلى أخناتون فرعون العمارنة وإلى والده أمينوفيس الثالث من قَبْله، وذلك في القرن الرابع عشر ق.م...

نكتفي بعد ذلك بالتذكير بأن مملكة جوزياس لم تعرف بوادر الكتابة إلا في نهاية القرن السابع ق.م، وكيف يمكن التصديق أن كتاباً «قديماً» ظهر صدفة أثناء صيانة المعبد؟!.

الملحقات

- **الملحق رقم (١)**

التزوير القديم والتزوير الحديث

(أ) رمّانة المعبد

(ب) اللوحة المزورة عن الملك جواس

(ج) حاوية عظام الموتى ذات النقش المزور

- **الملحق رقم (٢)**

سياسة السبي والتهجير في الشرق الأوسط القديم

- **الملحق رقم (٣)**

ما ورثته المرويات التوراتية عن أكبر تزوير عرفه التاريخ تحقيقاً لأحلام استيلائية

(أ) التباين الحضاري بين جزءي فلسطين الشمالي والجنوبي

(ب) عودة مصر إلى الميدان الدولي بعد زوال آشور

(ج) قصة الإصلاح الديني الذي أطلقه جوزياس في نهاية القرن السابع

الملحق رقم (١)

التزوير القديم والتزوير الحديث

تبيّن عبر هذا البحث، كيف أن تزوير التاريخ، أدّى في المرويات التوراتية إلى جعل أرض فلسطين، ضحية لمطامع خاصة أرادت استعمارها وأعطت لنفسها حقوقاً وهمية عليها، ذلك كان التزوير الأول القديم تحقيقاً لأحلام استيطانية، بنشر إيديولوجية غريبة استفادت من كبوتنا التي نتج عنها ضياع فلسطين، فكان الأستيلاء الحديث ونكستُنا في فلسطين.

وإذْ فشل المستعمر في العثور على إثباتات أثرية تشهد بصحة مروياته، نشهد اليوم تزويراً حديثاً، الغاية منه الربح المادي وهو يرتبط في الوقت نفسه، ويَلْقى ترويجاً من قبل من لا يزالون يفتشون عن أي دلائل يدافعون بواسطتها عن أحلام التزوير القديم الإجمالي وفي ما يلي بعض الأمثلة:

أ ـ رمّانة المعبد:

أول تزوير حديث، نقدّمه إلى القارئ حدث في العام ١٩٧٠، عندما أُضيفت كتابة على قطعة عاجية صغيرة على شكل رمانة، تعود إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد (١٥٥٠)، والكتابة هذه هي كنعانية أمكن إعادة شكل حروفها مؤخراً إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

وفي مقالين، نشرهما العالم الفرنسي في الخطوط القديمة اندريه لومير[١] العام

---

(١) André Lemaire: عرضنا دراسته عن حفريات الفترة الفارسية في فلسطين ضمن الفقرة (١٢ ـ ٣) من الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.

١٩٨١ في «المجلة التوراتية»[١]، ثمّ في «مجلة الأركيولوجيا التوراتية»[٢]، أوضح هذا الأخير، بأنه تفحّص القطعة المشار إليها في العام ١٩٧٩ حين عرضها عليه أحد أصدقائه من تجار العاديات، من دون الإشارة إلى اسم ذلك الصديق. وقد اكتسب لومير شهرةً عالمية بسبب تلك الرمانة العاجية، على اعتبار أن شهادته الإيجابية على تاريخيتها كانت لها أهمية كبرى بالنسبة للمدافعين عن صحة المرويات التوراتية لأن محتوى الكتابة، على الرغم من اقتضابه، يشير إلى أن الرمانة تلك هي تقدمة «إلى كهنة معبد يـ...» وطبعاً اعتبر لومير أنها تقدمة إلى كهنة معبد يهوه. وفي ذلك أول شهادة على أنها تمثل إحدى بقايا محتويات معبد سليمان في القدس، وهذا يعني الوجود التاريخي لذلك المعبد! وليس من الصعب عندئذٍ فهم الشهرة العالمية لأندريه لومير بسبب تأكيده هذا.

وبسبب الشهرة التي اكتسبتها الرّمانة العاجية، «رمانة المعبد»، فقد كانت من بين المعروضات في العام ١٩٨٧ في «القصر الكبير»[٣] في باريس، وبعد سنة واحدة من ذلك التاريخ، اشتراها متحف «إسرائيل» ودفع ثمنها مبلغ (٥٥٠٠٠٠) دولار أمريكي، قدّمه إلى إسرائيل أحد الأثرياء الأميركيين.

وبعد ما نسمّيه «التطبيل والتزمير» لأهمية اكتشاف هذه القطعة، وبسبب تقدم معلومات اليوم ووسائلها لكشف التزوير، فقد ثبت بنتيجة تحقيق «السلطة الإسرائيلية للعاديات»[٤]، أن الكتابة تمّت إضافتها حديثاً على رمّانة عاجية قديمة! لا علاقة لها بالعبريين القدماء ولا بسليمان لأنها تعود إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد.

أما في ما يتعلق بنشر خبر هذا التزوير الذي ننقله إلى القارئ العربي، فإنه لم يتمّ إلا في شهر نيسان من العام ٢٠٠٤، حين نشرت مجلة «العلم والمستقبل»[٥] مقالاً عن التزوير بالنسبة للمقتنيات العائدة إلى التوراة في عددها رقم ٦٨٦.

---

(١) Biblical Review.

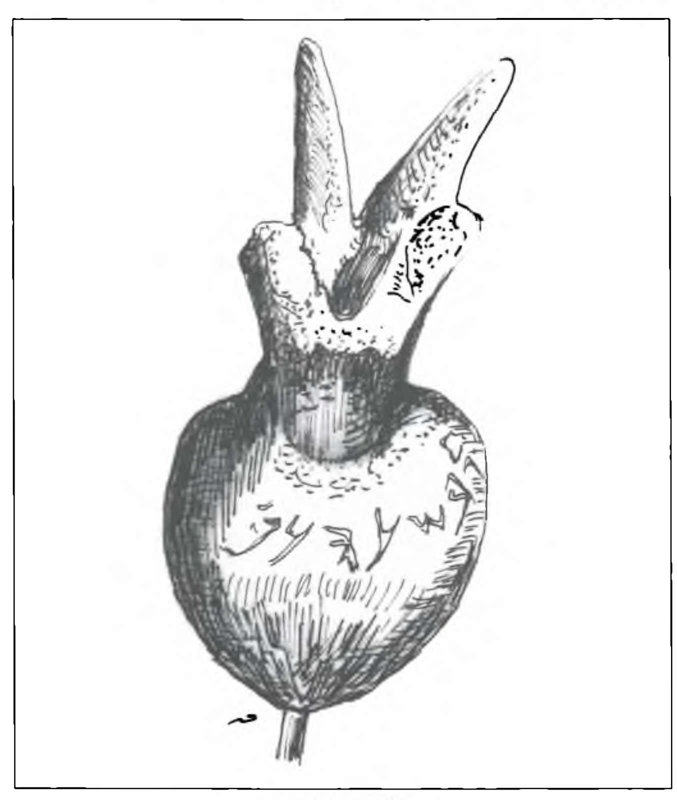
(٢) B.A.R (Biblical Archeology Review).

(٣) (Grand Palais).

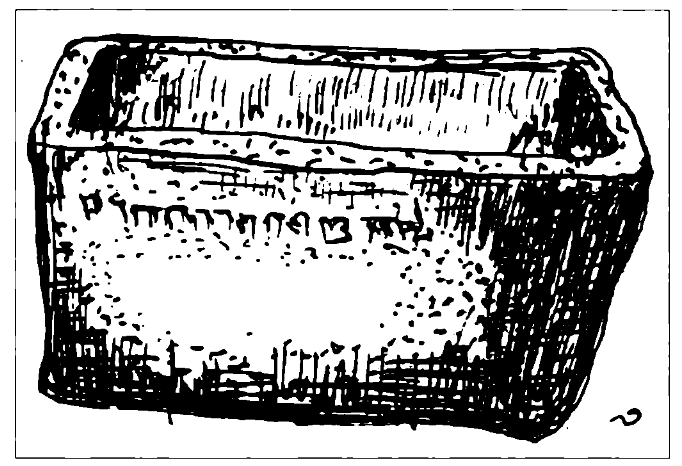
(٤) I.A.A (Isreli Antiquities Authority).

(٥) (Science et Avenir).

ولا بد لنا من الإشارة، إلى أنه على الرغم من نشر المقال، هناك خطر مردّه قلّة عدد الذين سيقرأون تلك المجلّة ويهتمّون بالمقال، بالنسبة لجميع الذين زاروا معرض «القصر الكبير» في باريس العام ١٩٨٧، وانطبعت في ذاكرتهم بأن القطعة «المزورة» تعود إلى معبد سليمان وكأنّه وجد حقاً! وهم كثرة.



رمّانة «المعبد» المزورة



حاوية عظام جاك الأخ المفترض ليسوع، المزورة

ب ـ اللوحة المزوّرة عن الملك يؤاس[(١)]:

هناك أيضاً، لوحة حجرية صغيرة تعود إلى القرن الثامن ق.م تحمل كتابة تشير إلى (يؤاس) ملك (ياؤدا)، المصنّف كملكٍ طيّب بالنسبة للمرويات التوراتية التي تقول عنه إنه رمّم «المعبد» وحارب (حزا إيل) ملك آرام دمشق.

هذه اللوحة، حاول أحد السماسرة بيعها إلى متحف إسرائيل، طالباً مبلغ ٤,٥ مليون دولار أميركي. إلا أنه في شباط ٢٠٠٣ تم التأكّد من أن اللوحة المشار إليها، وقطعة أخرى سوف نشير إليها في المقطع التالي (ج)، كلاهما من إنتاج أحد تجار العاديات في إسرائيل وهو من سكان تل أبيب، وقد اتخذ معملاً له في القدس الشرقية حيث تمّ العثور على أدوات تزوير كاملة، ومن بينها ناقل الكتروني يمكن بواسطته نقل أي كتابة أو صورة وتثبيتها على الورق، كما عُثِر لدى المصادرة في معمله على عدد كبير من الأختام التي هي قيد الإعداد لتقليد الأختام القديمة، وكذلك قالب لصب تماثيل

(١) (Joas): «ابن أحزيا (Achaz)».

برونزية للإله الكنعاني بعل بطريقة الشمع المذاب، وعثر كذلك على لوحة حجرية مماثلة للوحة التي اعتبرت بعد تزوير الكتابة عليها أنها تشير إلى الملك (يؤاس)، وكانت خالية من الكتابة. كما عثر أخيراً على قطعة أخرى حملت كتابة حديثة الحفر وهي مماثلة لقطعة اتخذت أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ الديانة المسيحية وهي التي نقدم عنها بعض المعلومات في المقطع التالي.

ج ـ حاوية عظام الموتى ذات النقش المزوّر:

هذه الحاوية، هي عبارة عن وعاء حجري لحفظ عظام الموتى، التي تتم استعادتها بعد فترة من الدفن، لوضعها في مِعْظمة، وهي عادةٌ عرفتها فلسطين منذ أقدم العصور، وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

اتخذت الحاوية المشار إليها أهمية كبرى، عندما تمّت قراءة الكتابة المنقوشة على إحدى جبهاتها في نهاية نيسان العام ٢٠٠٢، وقارئ الكتابة، هو عالم الخطوط الفرنسي اندريه لومير، الذي تعودنا على ورود اسمه في تلك المناسبات وهو الذي نشر عنها مقالاً في مجلة الأركيولوجيا التوراتية[1] في نهاية أكتوبر (تشرين الأول) من العام ٢٠٠٢، وكان متحف أونتاريو الكندي، قد دفع مبلغ (٢٥٠٠٠٠) دولار للاستحصال على هذه الحاوية، وذلك بمناسبة المؤتمر السنوي لجمعية الأدب التوراتي الذي عُقِد في متحف أونتاريو.

أما الكتابة التي كانت تحملها الحاوية فهي كما يلي: «جاك بن يوسف شقيق يسوع». والأهمية التي يمثلها هذا النقش الآرامي، هو الاعتراف بأن يسوع، لم يكن وحيداً لمريم العذراء، بل كان له أخ هو جاك، وفي ذلك ما يخدم المعتقد البروتستانتي خلافاً للمعتقد الكاثوليكي الذي يصرّ على أن مريم العذراء بقيت عذراء بعد ميلاد المسيح ولم يكن لها أي ابن آخر.

لن ندخل في تفاصيل أكثر بصدد التزوير الحديث وقد قدّمنا عنه الأمثلة أعلاه، وليس من الصدف أن يكون عالم الخطوط الفرنسي اندريه لومير هو الذي كان في كل

---

(١) يساعدنا هذا الملحق على التشكيك في كل ما يكتبه أندريه لومير وينشره، ويجب التنبه إلى عدم تبنّي آرائه إلا بعد تأكيدها من مصادر أخرى!.

مرة يشهد على صحة القطع، وقد شهد كذلك على صحة عدد كبير من القطع المزورة الأخرى، فهل هو شريك مع المزوِّر نفسه؟، نسمح لأنفسنا بطرح هذا السؤال، معتبرين أن لومير يمكنه في كل الأحوال الالتجاء إلى الخطأ الممكن في مثل تلك المناسبات ولكن تكرار الخطأ لا يشهد لصالحه[١].

د ـ عودة لملك مؤاب:

وبالإضافة إلى ذلك، فإن المقال الذي اعتمدناه لتقديم المعلومات أعلاه أطلعنا في الوقت نفسه على تفصيلٍ يرتبط بموضوع عرضناه آنفاً في الفصل العاشر المقطع (ب) من الفقرة (١٠ ـ ٣) وهي التي تشير إلى أن ملك مؤاب (ميشا)، استعاد نتيجة معركة، الممتلكات التي كان قد اغتصبها من والده الملك عومري الذي حكم في الشمال الفلسطيني، وكانت المرويات التوراتية تكرهه وهو الذي بنى مدينة السامرة واتخذ منها عاصمة له وهي التي اتُّهِمتْ ببيع جسدها إلى فرسان آشور الأشدّاء.

أما التفصيل الجديد الذي أطلعنا عليه اندريه لومير بشكل غير مباشر فهو أنه بمناسبة استجوابه من قبل «المسؤولين عن محاربة التزوير»، بعد أن كان قد شهد على صحة لوحة (يؤاس) التي أشرنا إليها آنفاً، أبدى شكّه بأنه أثناء تفحصه اللوحة، تساءل إذا ما كانت هذه اللوحة تعود إلى المجموعة المزورة التي أطلقها أحد مشاهير تجار العاديات منذ القرن التاسع عشر وهو المدعو (ويلّيلم موزيس شابيرا)[٢] الذي «فبرك» عدداً من المخطوطات العبرية المزورة، وبواسطتِهِ حَصَلَ متحف اللوفر في باريس على النصب التذكاري المعروف بنصب (ميشا) ملك مؤاب، فهل علينا التشكيك أيضاً بذلك النصب، ولدينا بعض الأسباب لهذا التشكيك وذلك بسبب ذكر الإلٰه يهوه في مقطع وحيد في نصّه حيث يقول الملك المؤابي، إن إلٰهه (كاموش) قال له: «إذهب واحتل (نيبو)[٣]» وقد قام بذلك بنجاح بين الفجر والظهيرة، وهنا يضيف النص أن ميشا سلب أوعية (يهوه) وجرّها أمام إلٰهه كاموش الذي كانت المرويات التوراتية تكرهه بشكل عنيف يماثل كرهها للإلٰه بعل الكنعاني. ولا بد من الإشارة إلى أن الشك مردّه باعتقادنا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) (Willelm Moses Shapira).

(٣) (Nebo) معارك الملك المؤابي تمت إلى الشرق من البحر الميت.

أن مؤاب والشمال الفلسطيني كانا يمارسان المعتقدات الكنعانية، وكان الشمال الفلسطيني بشكل خاص منفتحاً على الإتنيات المتعددة التي كانت تشكل سكان عاصمته (السامرة) ولم يكن يهوياً. وقد استعاد ميشا ممتلكاته التي كان عومري قد احتلّها سابقاً وتمّت الاستعادة بعد وفاة (آحاب) بن عومري وهو الذي تزوج الأميرة الكنعانية (جيزابيل)[١] ابنة ملك صيدون، وهذا ما يمكن استنتاجه من ضمن الفصول السابقة من هذا الكتاب.

---

(١) (Jezabel) أو أزابل وهي التي قالت عنها المرويات إن أعداءها الذين رموها من النافذة، تركوا جثتها من دون دفن والتهمتها الكلاب.

الملحق رقم (٢)

سياسة السبي والتهجير في الشرق الأوسط القديم

السبي واستبدال السكان، سياسة اتبعتها امبراطورية آشور ومن بعدها مملكة بابل الجديدة. ولم تكونا هما اللتان ابتدعتا هذه السياسة التي عرفتها مصر وبلاد ما بين النهرين قبلهما، وكذلك الامبراطورية الحثية.

ففي ما بين النهرين، هناك وثائق تشير إلى ذلك منذ فترة حكم ملوك ماري في القرن الثامن عشر ق.م. إبان حكم كل من شمسي ـ أدّو وزمريليم، وكان هذا الأخير معاصراً لحمورابي.

بعد قرون عدة من زوال مملكة ماري، عرف سكان المنطقة العليا من بلاد ما بين النهرين عمليات تبادل سكان نفّذها الملوك الآشوريون في الفترة الآشورية المتوسطة. ومن بين هؤلاء الملوك يمكن ذكر:

- أدد ـ نيراري الأول (١٣٠٧ ـ ١٢٧٥).
- شلمنصر الأول (١٢٧٤ ـ ١٢٥٤) وقد أسر (١٤٤٠٠) سجين من مملكة ميتاني (الحورية) في الشمال.
- كما أن توكولتي ـ نينورتا الأول (١٢٤٤ ـ ١٢٠٨)، نقل (٢٨٨٠٠) حثي من منطقة الفرات الأعلى.

ومع الإشارة إلى أن الأرقام أعلاه، يجب عدم تبنيها كما وردت، على اعتبار أنها من مضاريب رقم (٣٦٠٠)، إلا أنه من المؤكد أن التهجير قد تمّ فعلاً.

تركت لنا محفوظات مملكة ماري لوائح تمثل المنقولين الميتانيين (الحوريين) عائلة عائلة، كما تضمنت المحفوظات (النيو آشورية) جرداً للغنائم المجمّعة بعد المعركة والانتصار، ومن بينها معلومات عن عدد المرحّلين، ويمكن اعتمادها بصورة عامة وعلى هذا الأساس، حاول أحد الباحثين[1] بالاعتماد على تلك المحفوظات، إحصاء العدد الإجمالي للمنقولين اعتباراً من القرن التاسع قبل الميلاد، كما يلي:

عدد المهجّرين	الملك الحاكم	سنوات حكمه
١٢٩٠٠	آشور نصير آبال الثاني	(٨٨٣ ـ ٨٥٩)
١٦٧٥٠٠	شلمنصر الثالث	(٨٥٩ ـ ٨٢٤)
٣٦٢٠٠[2]	شمسي أدد الخامس	(٨٢٣ ـ ٨١١)
٣٩٣٥٩٨	تغلات فلصّر الثالث	(٧٤٥ ـ ٧٢٧)
٢٣٩٢٨٥	سرجون الثاني	(٧٢٢ ـ ٧٠٥)
٤٦٩١٥٠	سنحريب	(٧٠٥ ـ ٦٨١)

ونتيجة دراسة إحصائية للأرقام أعلاه توصل الباحث إلى عددٍ إجمالي بلغ حوالى أربعة ملايين ونصف مليون من المهجرين خلال القرون الثلاثة التي دام خلالها الحكم الآشوري الجديد (النيو آشوري).

أدت الحركات السكانية هذه، إلى تفاعل المهجّرين مع مناطق سكنهم الجديدة والانصهار فيها مع السكان الذين سبقوهم إليها ومع السكان الأصليين، بحيث لا يمكن التكلم عن إتنية معينة، وخصوصاً إذا ما علمنا أن الامبراطورية الآشورية نقلت وبادلت سكاناً من عسقلان وصور وبيبلوس وأرواد وعيلام وميديا، ومن فارس ومصر وإيونيا وليديا.

تابع البابليون السياسة نفسها لدى عودة بابل إلى الحكم، وتمّ تأسيس الامبراطورية البابلية ـ الجديدة، وأوردنا آنفاً أن سرجون الثاني قام بترحيل حوالى (٢٧٠٠٠) نسمة من أهالي السامرة ونقلهم إلى مناطق آشور الجبلية وإلى المدن الميدية (في إيران الحالية)،

---

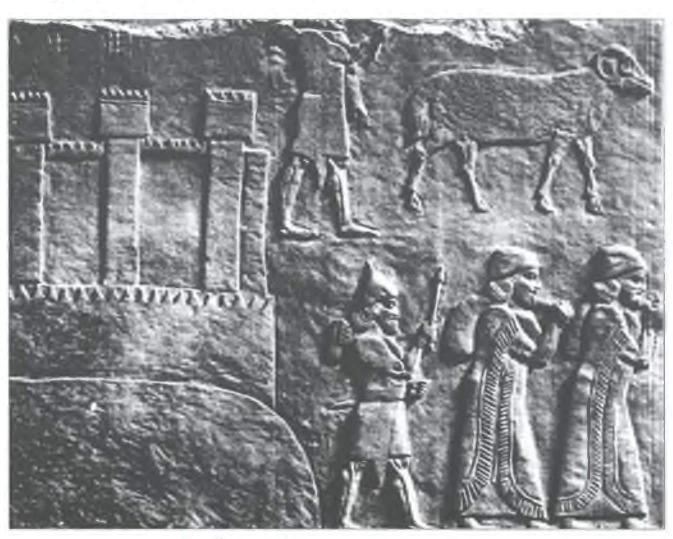
(١) الباحث هو (ب. أوديد) (B. Oded): قاموس حضارة ما بين النهرين مجموعة (Bouquins) العام ٢٠٠١.

(٢) زادت الأرقام بشكل واضح بعد هذه المرحلة نتيجة تأسيس الامبراطورية واتساعها واتباع سياسة أكثر فاعلية في نقل السكان وتبادلهم.

وأسكن في السامرة جَبَليين وقبائل عربية (انظر المقطع د من الفقرة ١١ ـ ٢) ووفقاً للمبدأ نفسه، قام نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ ـ ٥٦٢) في العامين (٥٩٧) و(٥٨٧) بترحيل عدد من أهالي مملكة ياؤدا، ومن بينهم الملك (يواكين) وأفراد عائلته يرافقه عدد من الأغنياء والحرفيين والمحاربين الذين ضمّهم إلى جيش بابل.

وبصورة عامة، كان ترحيل السكان يؤدي بعد جيل أو جيلين إلى قطع المهجّر علاقته بمقره السابق والتعلق بما حصل عليه في مقرّه الجديد، وكثيرون هم الذين توصلوا إلى مراكز ذات أهمية، إذْ لم تكن سياسة الترحيل والإسكان في مناطق جديدة، سياسة استعباد وخصوصاً بالنسبة للمتعلمين والحرفيين وحتى بالنسبة لليد العاملة الاعتيادية.

وبالإضافة إلى ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن اتساع الامبراطورية الآشورية وحجم التبادل السكّاني سهلا تعميم اللغة الرسمية وهي اللغة الآرامية وترسيخها وهي التي تبنّتها آشور عن آرام، وتكلمت بها فلسطين، وكانت لغة المسيحية الأولى في عهد



سياسة تهجير السكان خلال حكم الامبراطورية الآشورية



الحكم الروماني وهي اللغة التي كتب بواسطتها (أحيقار) الآرامي حكيم بلاط نينوى في زمن حكم أسرحدون[١]. كما أن الفرس تبنّوا اللغة الآرامية التي أصبحت بدورها لغة امبراطوريتهم الرسمية، وهي التي استمر استعمالها مجتازةً فتح الاسكندر الكبير والفترة السلوقية والفترة الرومانية ومرحلة المسيحية الأولى ورافقتها اللغة اليونانية في الفترة التي عُرفت بالهلنستية. واستمرت الآرامية في اللهجة السريانية التي هي الآرامية الحديثة، وكلّها لهجات عربية قديمة توحّدت في اللغة القرآنية.

ولا ننسى أن اللغة الأكادية كانت قبل الآرامية اللغة الرسمية بالنسبة للمراسلات الدبلوماسية بين بلاد ما بين النهرين والساحل الكنعاني والامبراطورية الحثية ومصر الفرعونية، شهدت بذلك جميع الوثائق المتبادلة بين دول العالم القديم آنذاك، ومراسلات تل العمارنة التي عرضنا محتوى قسم منها في هذا الكتاب (الفصل السابع) هي أفضل مثال على ذلك.

وختاماً لهذا الملحق، نستدل على نجاح الانصهار في مملكة بابل، من الإشارة

(١) انظر الكتاب الثالث من ديوان الأساطير لقاسم الشواف، من منشورات دار الساقي، بيروت، العام ١٩٩٩.

إلى أنه بعد سقوط بابل على يد كورش الفارسي في العام ٥٣٩ ق.م وإصداره قراراً يسمح بعودة المهجرين من مملكة (ياؤدا) إلى مقرهم السابق وكان قد مضى على ترحيلهم حوالى نصف قرن. فإن عدداً كبيراً منهم قرّر البقاء في وطنه الجديد مكتفياً بتزويد بعض الفقراء والمتعصبين الذين رحلوا بمساعدة مادية وحافظ على ما حصل عليه من مراكز وثروة!.

الملحق رقم (٣)

ما ورثته المرويات التوراتية عن أكبر تزوير عرفه التاريخ دعماً لأحلامٍ استيلائية

نستعرض في ما يلي المراحل التي أدت إلى الأحلام الاستيلائية على أرض فلسطين وتزوير التاريخ الذي نتج عنها، والذي بوشر بوضع أسسه التوسعية والمركزية في نهاية القرن السابع ق.م في زمن الملك جوزياس في الجنوب الفلسطيني والذي ستروي قصّته الفقرات التالية، وكانت مملكة الشمال آنذاك في السامرة قد زالت وتمّ ضمّها إلى الامبراطورية الآشورية.

في تلك الفترة، يمكن القول، إنها أي في الجنوب الفلسطيني، عرفت وضع مشروع المرويات التوراتية التي وصلتنا والتي لم تُستكمل إلا بعد فترة السبي البابلي والعودة الجزئية التي أوضحناها في الملحق رقم (٢) وذلك بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد فقط في ما يتعلق بالكتب الخمسة الأولى التي هي أساس الملحمة الأسطورية الإيديولوجية، تلاها في منتصف القرن الثالث أسفار (أخبار الأيام) و(إيزِدْراس) و(نيهيمي) . . . . ومن المفيد القول إن التنقيح والإضافات إلى المرويات استمرت خلال الفترة الميلادية و«بفضلها» اعتُبرت المرويات بعد تطويرها لتتلاءم مع الأفكار الجديدة للعصر «كعهدٍ قديم» لِعهدٍ جديد هو المسيحية! يخالف ذلك تطور الأفكار الدينية في الشرق الأوسط حيث نشأت المسيحية محاطة بحضارتي مصر الفرعونية والهلال الخصيب، ولا يدخل ذلك في نطاق هذا البحث.

نعود في ما يلي إلى عرض الأحلام الاستيلائية بالنسبة لفلسطين.

أ ـ التباين الحضاري بين جزءي فلسطين الشمالي والجنوبي:

نمت منطقتان متقابلتان من فلسطين نمواً متبايناً، فكانت المنطقة الشمالية التي تشتمل على أراضٍ زراعية سهلية وجبلية جيدة الخصوبة، يعيش فيها سكان مستقرّون تتلاءم كثافتهم ونشاطهم مع ما تقدّمه إليهم المنطقة. وكانت المنطقة الجنوبية، ذات السكان المبعثرين والأراضي الفقيرة الصعبة الاستثمار والتي بقيت متخلّفة ولم تتمكن من التمتّع بمتطلبات عناصر الدولة ولم تصل إلى مستوى (المدن ـ الممالك) التي ازدهرت في الشمال والتي كانت عامرة منذ فترة العمارنة في القرن الرابع عشر ق.م. وقد اتضح لنا أن القدس (أورسالم) لم يشرْ إليها كمدينة ذات أهمية أو كمملكة إلا في العام ٧٠١ ق.م عندما قام سنحريب الملك الآشوري بشنّ حملته على فلسطين واحتل بالإضافة إلى ما احتله من المدن، مدن (ياؤدو)، وحاصر ملك (أورشاليمّو) في مدينتهِ الملكية كعصفورٍ في قفص، كما ورد ذلك في المقطع (ز) من الفقرة (١١ ـ ٢) من الفصل الحادي عشر. ومن المفيد العودة إلى التعليق الذي أوردناه في نهاية هذا المقطع.

هذا ما يؤكد التباين الذي أشرنا إليه ما بين المنطقتين الشمالية والجنوبية من فلسطين، ويشير إلى تخلّف هذه الأخيرة التي كانت تنظر بنوع من الحسَد والضيق إلى منطقة الشمال التي زاد انتعاشها وازدهرت تجارتها خلال الحكم الآشوري الذي طالما أثبت تفوقه في التجارة بالإضافة إلى تفوقه في الحرب. واستفاد الشمال الفلسطيني من حركة التجارة «الدولية» التي أطلقها الآشوريون، كما كان الشمال هذا، منفتحاً لا تَتَناقضُ معتقداته مع ما يحيط به، وكانت مدينة (بيت إيل) عاصمةَ معتقده الديني الكنعاني والسامرة عاصمتَهُ المدِينة، وهي التي كما أسلفنا كرهتها المرويات التوراتية، واتهمتها ببيع جسدها إلى فرسان آشور.

ب ـ عودة مصر إلى الميدان الدولي بعد زوال آشور:

في العام ٦٦٣ ق.م، تمكن أحد أمراء الدلتا بمساعدة مرتزقة يونانيين من وضع حدٍ لاستقلال حكام المناطق، كما تمكن من طرد الإيتيوبيين من مصر العليا، وانتهت بذلك الفوضى التي كانت تعمّ مصر بتأسيسه الأسرة السادسة والعشرين وحكم تحت

اسم (بِسَامِّيتِيك) الأول[١]، وكانت مصر قبل ذلك خاضعة للنفوذ الآشوري، ولكن الخطر البابلي بدأ يهدد آشور والساحل الكنعاني.

خلف هذا الفرعون ابنه (نيكاو)[٢] الذي كان يتمتّع بحنكةٍ حربية لا تقل عما تميز به فراعنة مشهورون ولكنه مع الأسف لم يكن يملك جيشاً تتناسب قوته مع ما كان تحت تصرف هؤلاء الفراعنة على اعتبار أن مصر كانت مرهقة بسبب تفككها وفقدانها لمحمياتها وخضوعها للنفوذ الآشوري في منطقة الدلتا. ومع ذلك، فقد نجح (نيكاو) بتأسيس أسطول حربي، وتمكن من استعادة سلطة مصر على الساحل الكنعاني، وسجل انتصاراً في (ماجدّو) لدى لقائه مع جيش (جوزياس) ملك (ياؤدا) في الجنوب الفلسطيني، وتابع مظفراً حتى الفرات ولكن جيشه عرف انكساراً في كركميش أمام جيش (نبوخذ نصر) ملك بابل، ما جعل (نيكاو) يتخلّى عن محمياته المتوسطية ويعود نهائياً إلى مصر.

ومن الإنصاف ذكر بعض مآثر هذا الفرعون الذي أراد تحقيق فكرة سيتي الأول والد رعمسيس الثاني الذي أراد حفر قنال يصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط، وباشر فعلاً بذلك ولكنه عدل عن متابعة العمل بعد أن فقد (١٢٠٠٠٠) عامل في تلك المهمة.

ومن مآثره الأخرى التي تمكن من تحقيقها، هو أنه نجح بفضل بحّارته الفينيقيين من الدوران حول القارة الأفريقية، بخروجه من البحر الأحمر وعودة سفنه من مضيق أعمدة هركول (الذي أصبح مضيق جبل طارق في ما بعد)، وسوف نشير إلى معركته في ماجدو مع جوزياس من ضمن المقطع (د) في ما بعد.

ج ـ قصة الإصلاح الديني الذي أطلقه جوزياس في نهاية القرن السابع:

في العام (٦٣٩) ق.م تمّ تتويج (جوزياس) ملكاً على الجنوب الفلسطيني وكان صغير السن (٨ سنوات) وتحت تأثير الكاهن الأكبر (هليقِيّاهو)[٣] الذي كان يسهر على تربيته «كما يجب».

---

(١) (Psammetique I).

(٢) (Nekao) (٦٠٩ ـ ٥٩٤ق.م.).

(٣) (Hiliqiyyahu).

وفي العام (٦٢٢)، وهو العام الثامن عشر لتتويجه، وكان لا يزال يافعياً وعديم التجربة عندما أبلغه الكاهن الأكبر أنه أثناء أعمال صيانة «المعبد» تم اكتشاف الكتاب الأصلي للشريعة، تحت «أسطحة المعبد» وقام (شافان)[١] أمين سر الملك بقراءة محتوى الكتاب أمامه، ما جعل الملك، بعد ذلك يقوم بجمع سكان القدس وجميع أفراد الشعب كباراً وصغاراً، لِيقرأ الملك بنفسه أمام الجميع محتوى كتاب «العهد»، ويقسم أمامهم بأنه سيحترم «عهد يهوه»، ويطلب منهم ذلك بدورهم. ويعني احترام العهد، ما يعنيه، محاربة جميع المعتقدات الأخرى وإقصاء جميع الآلهة الأخرى: «بعل وعشترة وجيش السماء» من معبد القدس[٢]. هكذا وردت قصة الاكتشاف في المرويات التوراتية. وبعد ذلك باشرت عملية التزمّت الديني الذي نتجت عنه أصولية، يحق لنا نعتها بالفاشية من ذلك الوقت وورثتها أصولية اليوم التي اتخذت أشكالاً متعددة...

منذ زوال مملكة السامرة في الشمال الفلسطيني، كان الجنوب، كما أسلفنا يتطلع نحو الشمال وبشكل خاص بعد ابتداع «الكتاب» الذي ادُّعِيَ اكتشافه في المعبد، لتدمير معبد (بيت ايل) الكنعانيّ العبادة لكي يبقى معبد القدس «المطهّر من أرجاس بقية الآلهة» وحده المعبد المركزي. وبوشر فعلاً بتطهير الجنوب من الآلهة التي يكرهها يهوه ويغار منها كلّما توجّه «شعبه» نحوها... ومن هنا بدأ تصوّر الأسس التي أمكن اعتمادها بالنسبة لتدبيج المرويات التوراتية بحيث تخدم فكرة المملكة الموحدة وابتداع فكرة انتصارات داود الملك و«امبراطوريته» وبناء معبد سليمان ومركزيته ومركزية القدس... كل ذلك تمّ تدبيجه قُبيل السبي وبعده بالاعتماد على أحلام جوزياس وكاهنه الأكبر، وقد عرضت الفصول الأولى من هذا الكتاب عدداً من الحقائق حول هذا الموضوع.

هنا يحق لنا أن نتساءل عن دور الكاهن الأكبر في اكتشاف ما سمي «بالكتاب»[٣] الذي كان ينتظر صدفةً تحت «أسطحة المعبد»[٤]، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أولى

---

(١) (Shaphân).

(٢) لدينا هنا دليل على تعدد العبادات في معبد القدس كما أسلفنا مراراً.

(٣) كان من الأفضل للمزور أو لناقل الخبر استعمال تعبير «ملف» بردي، أو أي حامل آخر عوضاً عن «كتاب» لكي يجعل الخبر قابلاً للتصديق.

(٤) من الأفضل أيضاً اختيار مكان آخر لاكتشاف الكتاب لأن سقف المعبد لم يكن (جملوناً) يحفظ فراغاً يسميه مصدرنا (Combles)؟.

بوادر استعمال الكتابة لم تظهر في الجنوب إلا في بداية القرن السابع قبل الميلاد، وبوادر انتشار الكتابة بدأت في منتصف القرن، ويمكن القول إن فترة حكم جوزياس في نهاية القرن السابع لم تعرف غير الكاهن الأكبر وأمين سر الملك ممن مارسوا الكتابة والقراءة والسؤال الذي لم يناقشه أحد هو: من الذي ألف الكتاب «القديم» في مملكة لم تكن تعرف الكتابة؟.

كما يمكن أخيراً التساؤل إذا ما كان جوزياس هو نفسه الذي قرأ شخصياً أمام الشعب محتوى «الكتاب» المكتشف.

وفي كل الأحوال فإن جوزياس على ما يظهر آمن بصحة الاكتشاف وعمل بموجبه ما عَجّل في نهايته، كما سوف يتضح ذلك من المقطع التالي.

د ـ نهاية جوزياس (٦٣٩ ـ ٦٠٩ق.م):

نعود هنا إلى الفرعون (نيكاو) الذي أشرنا إلى حكمه في المقطع (ب) السابق ونضيف هنا، بأنه حين توجّه مع جيشه عبر الساحل الكنعاني بقصد مساعدة آشور في مواجهة جيش بابل في الشمال الغربي من الهلال الخصيب، تخوفاً من ازدياد الخطر البابلي، وجد أمامه، عند وصوله إلى (ماجدّو) التي تقع على بعد ١٤٠كلم إلى الشمال من القدس، جيش جوزياس الذي أراد مجابهته لمنعه من المتابعة؟ ومن الصعب طبعاً فهم تصرّف هذا الملك الذي يقود جيشاً من المستحيل صموده أمام جيش مصر! ولكن جوزياس بحسب الرواية التوراتية أصرّ على المجابهة وقُتِل في أول لقاء، مع جيش مصر! تابع بعد ذلك الفرعون (نيكاو) حتى كركميش وخسر معركته أمام جيش بابل.

حاول بعض الباحثين، تقديم التفاسير المبرّرة لتحدّي جوزياس للجيش المصري المتوجه إلى كركميش ومنعه من اجتياز ممر ماجدّو؟ محاولين تبني فكرة أن الملك جوزياس، وفقاً للأحلام التوسعية أو التوحيدية التي أشرنا إليها آنفاً، أنه استعاد منطقة الشمال وضمها إلى مملكته ووصل حتى ماجدّو وبنى فيها حصناً (لم يعثر عليه)، هؤلاء دعموا الأسطورة الإيديولوجية التي وضع أسسها كاهن جوزياس وذلك خدمة «للمملكة الموحدة».

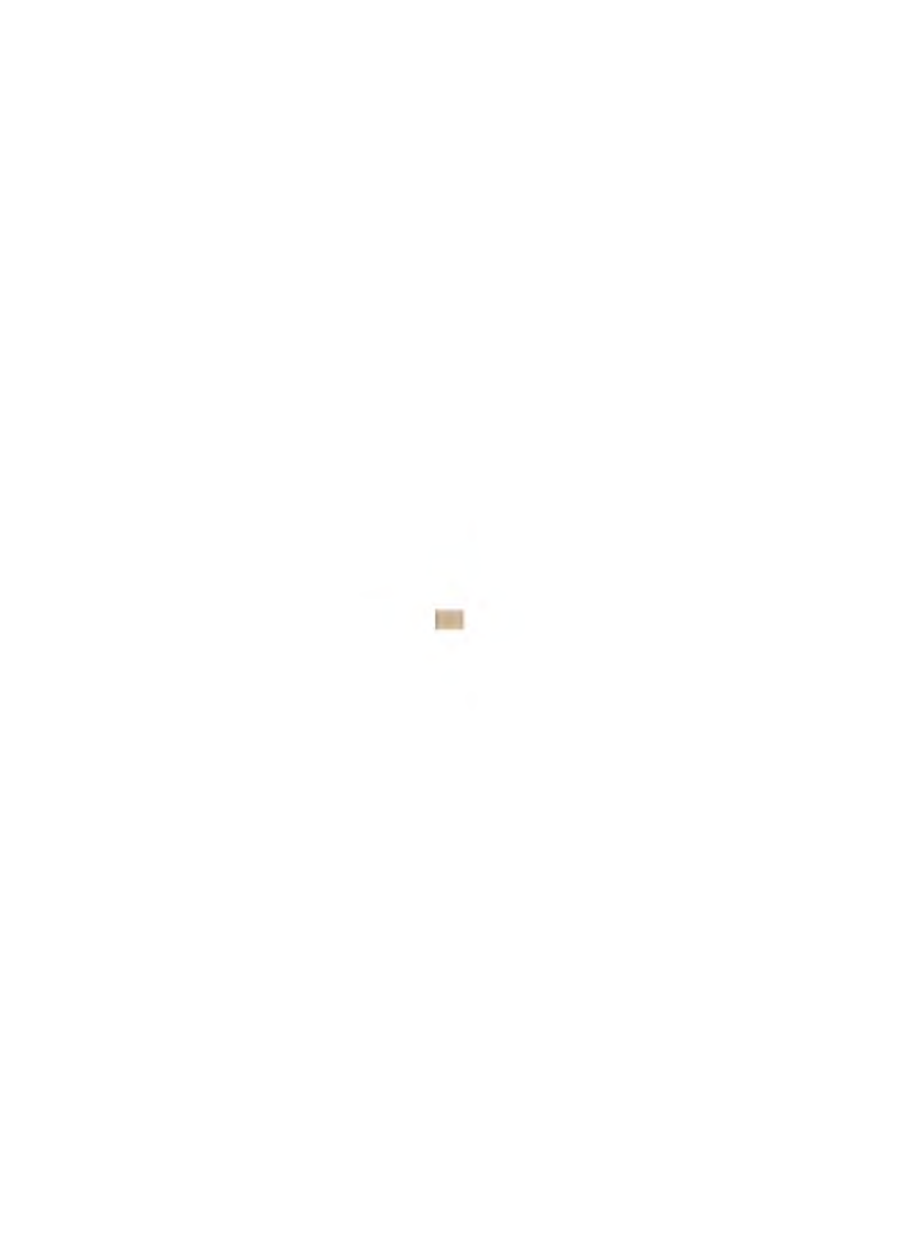
أما الباحثون الموضوعيون، فقد اعتبروا أنه من غير المعقول أن يفكر جوزياس،

إيقاف جيش مصر القوي، معتمداً على جيشه الصغير ومنعه من التقدم. وليس من المعقول أيضاً أن تسمح مصر لمملكة الجنوب قبل انحسار سلطتها عن جنوب الساحل الكنعاني، وأن تسمح لجوزياس قبل ذلك، بتجهيز جيش يتمتع بقوة كافية لتأدية دورٍ في المنطقة.

كما يضيف المشككون أنه من غير المعقول أن يغامر جوزياس بجيشه ضد مصر على مثل ذلك البعد عن مركز إمداداته.

ليست لدينا أي وثيقة غير توراتية لتأكيد اصطدام جيش جوزياس مع جيش (نيكاو) في ماجدّو، وقد يكون الخبر المقتضب الذي ورد في سفر الملوك ٢ (٢٣: ٢٩)، ثمّ بتفصيل أكثر في أخبار ٢ (٣٥: ٢٠ ـ ٢٤) التي أشارت إلى أن فرعون مصر نبّه جوزياس بأنه لم يأت إلى محاربته بل ليجتاز نحو الشمال، ولكن جوزياس أصرّ على المجابهة، وقتل أثناء المعركة العام ٦٠٩ ق.م.

وفي عرفنا، فإن لم يكن جوزياس هو الذي ابتدع أسطورة المملكة الموحدة وما نتج عنها في ما بعد في المرويات التوراتية التي وصلت إلينا، وأن كاهنه الأكبر هو المسؤول عن ذلك، يمكننا القول إن جوزياس لا بد أن يكون آمن بذلك وآمن بقدرة (يهوه) الذي سيحميه ويحارب إلى جانبه بحيث يتمكن من الانتصار على أي جيش يفوقهُ عدداً وعِدّةً: أوليست عجائب الأيام الأولى في مثال يشوع بن نون الذي أوقف يهوه الشمس من أجله لأنه لم ينهِ احتلال أرض كنعان (وفق الأسطورة)؟ وأسطورة داود الذي تغلب بمقلاع على العملاق جوليات هي مثل آخر ...... وهناك أمثلة عديدة أخرى.



قام مشروع تأسيس دولة إسرائيل فوق أرض فلسطين على فرضية رُوّج لها وقتاً طويلاً، ومفادها أن فلسطين كانت «أرضاً بلا شعب» وقد جاء الإسرائيليون الأوائل ليكونوا «الشعب» الذي يحكم فلسطين «الأرض» ويؤسس فيها «دولة» إسرائيل.

يسعى هذا الكتاب إلى دحض هذا التضليل لتاريخ فلسطين الذي مارسه المفكرون اليهود، وتبنّته مراكز الدراسات الأوروبية والأميركية، فينبش تاريخ فلسطين القديم منذ مراحل ما قبل التاريخ، وما قبل الرسالات السماوية (وضمنها اليهودية). ويستعرض حضور «دولة» فلسطين (قبل اليهودية وبعدها) في كل من الممالك الفرعونية والآرامية والآشورية والبابلية. كذلك يعرض لمرحلة الحكم الفارسي لفلسطين، فدخول الاسكندر المقدوني أراضيها، ثم مرحلة الحكمين الروماني والبيزنطي وصولاً الى الفتح العربي ونهاية الخلافة العباسية.

ويحاول هذا الكتاب أن يفضح التزوير الذي حرّف تاريخ فلسطين، بالاستناد الى حقائق ووثائق تاريخية قديمة، يعود بعضها إلى ما قبل قيام الديانة اليهودية، ويورد كثيراً من المكتشفات التاريخية الأثرية التي تؤكد وجود فلسطين، ومن الأنصاب التذكارية، والنقوش القديمة التي ذُكرت فيها فلسطين وتاريخها القديم، وكُتبت على جدران معابد أتباع الحضارات والديانات التي سبقت مجيء اليهودية.

هذا الكتاب وثيقة مهمة تثبت «تزوير» تاريخ فلسطين، وتعيد صوغ تاريخ حقيقي لهوية المكان، وناسه، وذاكرته.

ISBN 1-85516-776-X



